

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

د. ابراهيم بيضون

الدولة الاموية والمعارضة

حروب
معين التاريخ
لاهل التاريخ

مدخل إلى كتاب
السيطرة المربية

للمستشرق الهولندي فان فلووتن
مع ترجمة له



0130776

Bibliotheca Alexandrina

جزوب
معين التارخ
لاهل التارخ

الدولة الأموية والمعارضة

معين جروب
لأهل التاريخ

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الثانية

1405 هـ - 1985 م

مكتبة **الجامعة اللبنانية** **البيروت**

بيروت - الحمراء - شارع النيل ٤٥ - بناية سلام
هاتف : ٨٠٢٤٧٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٩

بيروت - الصليبية - بناية طاهر هاتف : ٣٠١٣٠ - ٣١١٣١٠
ص. ب. ٦٣١١ / ١١٣ توكس : ٢٠٦٦٥٤E - ٢٠٦٨٠ لبنان

د. ابراهيم بيضون

الدولة الاموية والمعارضة

جروب التاريخ
معين التاريخ
لأهل التاريخ

مدخل إلى كتاب
السيطرة العربية

للمستشرق الهولندي فان فلوطن
مع ترجمة له

م
مؤسسة جامعة الكويت والنشر والتوزيع

الاهداء

الى الصديق

جورج حروفوش
كل الوفاء والتقدير

مقدمة الطبعة الثانية

تبقى « دولة » الأمويين مشيرة للاهتمام والنقاش ، على الرغم من الدراسات التي أحاطت بها ، عَرَضاً أو تفصيلاً ، بقدر ما كان لقيامها ، من تأثير على حركة التاريخ ، التي اتخذت مساراً آخر ، ما كان يحدث لولا تلك القوة « الخفية » التي تربصت بالدولة الإسلامية واحبطت مشروعها في عشرينات القرن الهجري الأول . غير أن القليل جداً من دارسي هذه الحقبة الهامة ، تنبّهوا الى المناخ الفكري غير الودي إزاء هذه « الدولة » ، الذي ساد القرن الثالث الهجري ، حيث بدأ يتضح ما يسميه البعض بـ « التكوين » في علم التاريخ الاسلامي .

وكان « فان فلوتن » في طليعة الذين توقفوا عند هذه المسألة المنهجية ، منتقداً بعض الروايات أو أكثرها التي عكست الموقف الرسمي للبلاط العباسي ، والتي كانت تخفي من الحقائق أكثر ما تكشف عنه ، حسب تعبيره . ولكن هذه « المسألة » لم تكن لها خلفية منهجية فقط ، لا سيما عند التعرض للسياسة الاقتصادية لخلفاء بني امية ، التي شكلت نقطة محورية في العلاقة مع الشعوب « الخاضعة » للعرب ، المدرجة لدى « فلوتن » في ظل قاعدة « الغالب والمغلوب » ، المتأثرة عموماً ، بالمناخ الفكري الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر ، وترك بصماته على نتائج المستشرقين بصورة متفاوتة .

ولكن ، لسنأ هنا في معرض الدفاع عن هذه السياسة ، تلك التي أوقعت
الأمويين في المأزق التاريخي ، الذي استحال على دولتهم الخروج منه ، بعد
تفاقم النعمة الشعبية على سياستهم ، في مطالع القرن الثاني الهجري ، ألا
أن فلوتن ، يبدو وكأنه يستدرج القارئ ، حين يشير الى غمطين من
المسلمين ، أو الى عهدين متميزين : الأول (الراشدي) ، اسلامي -
عقائدي ، والثاني (الأموي) ، قبلي - فثوي ، من دون التعاطي في
العمق ، مع ما يفترضه القول السالف عليه ، من نقد للنصوص ، التي
جنح بعضها بصورة جزئية أو كلية عن الواقع . ذلك أن « فلوتن » الذي ربط
« التدوين » بسياسة البلاط العباسي ، كان عليه تناول النص من هذا المنظور
النقدي ، حيث وقع الأمويون ، فضلاً عن خصومهم الشيعة ، فريسة
للتشويه التاريخي ، ولكن بشيء من التفاوت ، منصبّة السليبات كافة على
البيت الأموي ، في الوقت الذي جرى فيه تعميم على الحركة الشيعية
وملاحقة لقياداتها ، بعد أن ظلت في موقع التهديد نفسه ، إن لم يكن أكثر
خطورة ، للدولة الجديدة .

ولعل ذلك يقودنا الى التوقف عند الشيعة أو التشيع في كتاب « فلوتن » ،
الذي بحث هذه المسألة من خلال فرق ، ليست قائمة فقط ، ولكن مسلم
بها في زعمه ، كالسبئية التي يرى فيها نواة الفكر الشيعي « الغيبي » ، تلك
الحركة التي اعتبرناها ، على هامش التشيع ، بعد تشكيك عدد من
الدراسات العلمية الرصينة بها ، منذ ثلاثينات هذا القرن . ويبدو أن
المساحة الزمنية للبحث ، قد نأت بصاحبه ، عن بدايات التكوين القبلي
والسياسي للتشيع ، مركزاً اهتمامه على مفترق العصرين الأموي
والعباسي ، دون أن يلتزم كثيراً بالعنوان الرئيسي لـ « أبحاثه » ، في
« السيطرة العربية والشيعة والمعتقدات المهدوية في ظل خلافة بني أمية » .

ذلك أن التشيع أو « الشيعة » ، كما أثرت استخدامها في هذا المدخل الى كتاب فلوتن ، كتعبير - ربما أكثر انسجاماً مع الكلمة الفرنسية Le Chiitisme لم ينطلق فقط من « الحق الوراثي » للخلافة ، على الرغم من أهميته الجدلية ، التي ظلت متوجهة عبر العصور التاريخية المتعاقبة ، وإنما كان استجابة متحذية لآمال ومصالح الفئات التي وجدت ذاتها في الاسلام ، وقطعت من خلاله الى تحسين أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية .

وليس ثمة شك أن استمرار « الشيعة » طليعة مناهضة للنظام خلال العصر الأموي وجزء من العصر العباسي ، إنما كان تجسداً لهذه الدينامية ، التي كانت احدى سماتها البارزة في ذلك الحين . ونستطيع اضافة أحد الأركان الرئيسية لهذه الحركة ، وهو العلم ، الذي يعتبر من خصوصيات زعامتها المتناقلة ، فضلاً عن الموروث الكربلائي ، الذي أمدّها بركن اساسي آخر ، مستلهمة منه ، ومن حركات غيرها أيضاً ، النموذج الأرقى في التضحية والتجربة الفلّة في النضال .

ولا يبدو هنا « فلوتن » على كثير من الاستيعاب للشيعة ، من خلال هذا المنظور ، خاصة وأن هذه على الرغم من الاضطهاد الذي استهدفها في كلا العصرين الأموي والعباسي ، فإن زعامتها كانت أقل استهدافاً في الأول - إذا ما استثنينا المجابهة الحتمية بين الحسين ويزيد - في الوقت الذي كان السيف مسلطاً على رأسها في العصر الثاني ، ويجول دون قيامها بحدّ معين من التحرك السياسي . وسؤدي ذلك لاحقاً الى منعطف آخر في الحركة الشيعة ، ربما كان أكثر جذرية على الصعيد الفكري - الايديولوجي من المنعطف الأول - الذي جسّدته مقتل الحسين وأصحابه في كربلاء ، وذلك في عهد الإمام السادس جعفر بن محمد (الصادق) ، المنظر الحقيقي للفكر

الشيعة ، والمعاصر لأشد الخلفاء العباسيين تزمناً وأكثرهم حذراً من خصومه ، وهو أبو جعفر المنصور .

ومن ناحية أخرى سيؤدي ذلك الى وحدة ايدولوجية للاتجاهات الشيعية المختلفة ، تحت تأثير هذا الوضع السياسي القومي ، وهي الايمان بالمهدي المنتظر ، حيث يبدو « فلوتن » مصيياً الى حد كبير ، كون هذه المسألة بدت وكأنها الأمل الأخير ، في غمرة اليأس المطبق والحياة الصادمة بالسلطة « الجديدة » في ذلك الحين .

ان هذا الكتاب يتعرض لمسائل دقيقة ومعقدة ، تمتد على مساحة زمنية رهصت بالمتغيرات الجذرية في التاريخ الاسلامي . فقد انطلقت الآمال حينذاك وانصبّت الجهود لتحقيق السلطة العادلة ، حيث الأفاق كانت أقل قتامة في العهد المرواني ، واسودّت تماماً في عهد الارهاب العباسي ، مما أدى الى المحنة الشيعية ، التي بدأت بحظر العمل السياسي على « الأئمة » ، قبل أن تنتهي بحركتهم الى التمزق والانقسام الى عدة فرق - جنح بعضها مبكراً الى السرية المطلقة (الاسماعيلية) ، بينما الآخر الذي مثل شرعية « الحركة » وهمومها الكبرى ، بدا متكيفاً ما استطاع مع الأوضاع القائمة ، قبل أن ينحو بدوره مكرهاً الى السرية (الاثناعشرية) . وكانت المهديّة أو المهديّة ، بدون ريب ، نتاج هذه الحقبة المظلمة في تاريخ الشيعية السياسية ، التي بلغت ذروة المعاناة في القرن الهجري الثالث . ولا زال « المهدي » منقذاً أو مخلصاً في زمن الاحباط وفي لحظات الفجيعة بالأمل . . ذلك الواعد دائماً بالتغيير .

ومرة أخرى ، في هذه المقدمة الثانية لـ « الدولة الأموية والمعارضة » ، الذي صدر في طبعته الأولى في العام 1980 ، أضع هذا الكتاب بين يدي

القاريء ، وقد ضمّ مدخلاً مفصلاً الى بحوث « فلوتن » الثلاثة ، فضلاً عن ترجمة دقيقة لها عن الفرنسية . فلعل فيه من الفائدة لدارسي التاريخ الاسلامي ، ما أتوخاه وما أطمح اليه ، حيث جهدتُ ما أمكن ، مناقشتها بموضوعية ، ربما تعارضت في جانب أو أكثر ، مع الطرح الهادف ، المتأثر بالفكر الاستشراقي الذي ساد القرن الماضي ، وكانت له في الغالب نظرياته المبرجة وغير العفوية ، حيث ظهر هذا الكتاب ، في وقت كان المشروع الاستعماري الأوروبي للمنطقة ، قد نضج أو كاد في ذلك الحين .

بيروت في 17/ 2/ 1984

مقدمة الطبعة الأولى

كثيراً ما استوقفني كتاب (فان فلوطن) المترجم الى اللغة العربية منذ نصف قرن تقريباً⁽¹⁾ ، تحت عنوان « السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية » . وكان اول ما يستوقفني ذلك التباين الواضح بين عنوان النسخة العربية وبين الأصل الفرنسي ، بحيث تسلّم او تكاد بقضايا لم يتجاوز بها المؤلف حدود الاحتمال والتساؤل . واذا كان الاختلاف لغوياً في استخدام « السيادة » محل « السيطرة » في ترجمة La Domination ، فإن الفارق كبير بين العبارة الفرنسية Les croyances Messianiques وبين « الاسرائيليات » ، (ترجمتها العربية) ، وهي المنظومة التي قال بها عدد من مفكري العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . ويبدو انها استهوت المترجم ايضاً ، في التعبير عن ظاهرة « المهديّة » في الاسلام وبصورة خاصة لدى الفكر السياسي الشيعي .

وهذا الكتاب لا يزال منذ قرن تقريباً يحتل مكانة خاصة في الكتابات الاستشراقية ، لا سيما في مجال الاحاطة بمشاكل النظام الاموي وملاحقة المعضلات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سبباً في سقوطه وانهاره . ولكن ما يؤخذ عليه ، رغم منهجه العلمي ، ذلك الموقف المتشجع من الدولة

(1) ترجمه الى اللغة العربية كل من الدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم في سنة 1934 .

الاموية والمتعاطف عموماً مع حركات المعارضة ذات الاتجاه الشعبي ،
واللجوء احياناً الى الاستعانة بأمثلة غير مسنده لتدعيم رأيه ، فضلاً عن
ثغرات أقل أهمية ، كورود اخطاء تاريخية أو اضطرابات في الاستنتاج بين
حدث وآخر . وهذا ما حدا ببعض المؤرخين المعاصرين الى اسقاطه من
المراجع الرصينة ، بعد ان فقد برأيهم قيمته العلمية والموضوعية . على أن في
الكتاب رغم ذلك جوانب ايجابية عديدة ، تدفع هذا الحكم المبرم وتكشف
عن رؤية صافية وعمق في التحليل . وكان (فلوتن) - وهو من جيل مدرسة
معروفة في الاستشراق ، لها مفاهيمها الخاصة ان لم نقل قوانينها الثابتة ،
تلك التي واكبت المد الاستعماري الاوروبي على حساب الدولة العثمانية
« المريضة » - متأثراً بالدور الذي آلت اليه علاقات الشرق الاسلامي بالغرب
المسيحي ، والذي يمثل برأي هذه المدرسة التفوق والسيطرة . ومن هذه
الخلفية كان (فلوتن) يرى في دولة الامويين ، حاملة لواء التوسع في القارة
الاوروبية ، احد اشكال الاستعمار او الاحتلال العسكري في العصور
الوسطى .

وفي هذا الوقت ربما تشتد الحاجة الى مثل هذه الدراسات ، حيث تعيش
الامة العربية والعالم الاسلامي مناخاً فكرياً متميزاً ، يزداد الاهتمام في ظله
بالتراث والميل الى قراءة جديدة لتاريخ غابر يجهل تفاصيله الكثيرون . في
هذا الوقت بالذات كان الاتجاه بالحاح نحو اعادة النظر بدراسات
المستشرقين ، لا سيما التي ظهرت في القرن الماضي وعليها بصماته
الواضحة . ومن المثير جداً ان تتبنى اوروبا نفسها هذا الاتجاه الجديد عبر
مدرسة متوازنة ، اخذت تتبلور في منتصف هذا القرن ، خاصة المدرسة
الالمانية التي تعتبر رائدة الخط الاستقلالي الجديد في الاستشراق ، غير المرتبط
مع الدولة او المنشق معها .

ومن هذا المنطلق دون غيره وجدتُ في مادة هذا الكتاب - وهي تطرح قضايا شائكة ومعقدة أبان الحكم الأموي - حافزاً لوضعها بين يدي القارئ العربي ، في اطار ترجمة جديدة ودراسة نقدية مطولة . فما بين تأليف الكتاب او ترجمته الاولى ، وبين هذا الوقت مسافة واضحة ، اصاب خلالها مناهج لبحث التاريخي ، الكثير من التطور عربياً وعالمياً . واذا كان من افكار نرفضها في كتاب (فلوتن) ، انطلاقاً من اعتبارات موضوعية بحثية ، فثمة افكار اخرى كثيرة لا تخلو من قيمة علمية ، وهي مطروحة بكاملها للنقاش .

والكتاب عبارة عن بضعة ابحاث او مقالات يبدو ان (فلوتن) وضعها في اوقات متفاوتة ثم اصدرها بالفرنسية ، وهي غير لغته الاصلية ، وذلك لحرصه ، كما يشير في المقدمة ، على ان يصل كتابه الى اكبر عدد من القراء ، حيث كانت الفرنسية لغة الثقافة والاستشراق الاولى في ذلك الوقت . ولكن محور الكتاب يدور حول ابحاث رئيسية ثلاثة ، محددة في العنوان كما يلي :

الاول : السيطرة العربية La Domination Arabe ويضم مناقشات لقضايا اقتصادية واجتماعية من العصر الأموي ، تبدأ بقضية الفتوحات ونظام الضرائب وأوضاع الموالي ، وتنتهي بحركة الاصلاح الفوقي التي قام بها الخليفة عمر بن عبد العزيز ، واستمرت مع ثورة الحارث بن سريج وراء نهر جيحون .

الثاني : الشيعة او الشيعة Le Chiitisme ، ويبحث في المعارضة السياسية في ذلك العصر ، حيث انعقدت ريادتها للحزب الشيعي باجنحته المختلفة .

الثالث : المعتقدات المهدية او المهدوية Les Croyances Messianiques ، وهو البحث الاكثر تعقيداً والذي يحتاج اكثر من غيره الى

اعادة نظر والى تقويم جديد ، حيث ان طروحات جدية ظهرت مؤخراً ، متناقضة مع طرح (فلوتن) الذي يعتقد بتأثير الفكر اليهودي على نظرية « المهدي » الاسلامية ، من خلال اسطورة عبد الله بن سبأ المعروفة في المصادر العربية القديمة .

والمؤلف لا ينفك عبر بحوثه الثلاثة ، متقصياً العوامل التي ادت الى سقوط الدولة الاموية ، او ما يسميه ، البحث في جذور التشيع الخراساني لبית النبي . ولا ينسى في هذا المجال ان يتعرض للطعن بالمصادر العربية ، التي كانت برأيه تحجب الحقيقة اكثر من ان تكشفها ، وذلك لتأثر المؤرخين بسياسة البلاط العباسي في بغداد⁽¹⁾ . ولا يتردد هنا في طرح مجموعة من الاسئلة لا تحل من الاثارة ، تتصل بعلاقة « شعب مغلوب » يمثل الموالى ، مع « شعب غالب » يمثل العرب ، وانعكاس هذه العلاقة على قاعدة الحزب الشيعي ومدى تمثيلها للاغلبية الفارسية ، ومن ثم تبلور الفكر السياسي في مفاهيم هذا الحزب ، كنتيجة للاضطهاد والملاحقة ، فضلاً عن التصفية ، وذلك منذ سقوط الحسين في كربلاء ، متجسداً فيه الرمز المأساوي لنضال الشيعة في العصر الاموي . وهذا ما يعبر عنه (فلوتن) بـ *Les Croyances Messianiques* ، لاعتقاده ان ثمة علاقة بين « المسيح » اليهودي وبين « المهدي » الشيعي ، باعتبار ان فكرة « المخلص » او « المنقذ » يهودية الاصل ، حسب تفسيره التاريخي لها . وينتهي اخيراً الى استنتاج العوامل الثلاثة الرئيسية التي كانت وراء انتصار العباسيين وهي :

1 - كراهية الشعوب المغلوبة للفاتحين العرب ، منطلقاً من إدانة واضحة

(1) راجع للقلمة .

لسياسة الفتوح الاموية ، التي فجرت ازمت اقتصادية واجتماعية في
متهى الخطورة .

2 - موقف الحزب الشيعي ، رائد المعارضة السياسية ، الذي كانت لديه
المقدرة عبر طروحاته الاصلاحية ، على تحريك الفئات المضطهدة ،
التي كانت مادة الثورة العباسية المسلحة في وقت لاحق .

3 - انتظار « المنقذ » Le Messie الذي اسهم ، كفكرة غيبية في التأثير على
عواطف الجماهير وحقنها بدماء جديدة حتى لا يفترسها القسوط
والياس ، وتبقى القضية السياسية دائمة التوهج في النفوس .

.. وهذا الكتاب في قسمه الاول يتعرض لهذه القضايا المحورية التي
وجهت مسار المعارضة في العهد الاموي . اما القسم الثاني فيضم النص
العربي لكتاب فلوتن « السيطرة العربية » . وقد شئت اعادة ترجمته محافظة
على روحية الانسجام في الدراسة . فلعل في محاولتي هذه من الفائدة بعض ما
أصبو اليه ، نحو منهج علمي متوازن خارج دائرة الاستشراق المتعيس
والنص التاريخي « المقدس » .

بيروت كانون أول 1979

الامويون وخراسان

في معرض ما يسميه (فلوتن) « السيطرة العربية » La Dommination Arabe او سيادة الاقلية الحاكمة على شعوب البلدان المفتوحة - خاصة في خراسان ، تختبر التحولات السياسية والاجتماعية في العصر الاموي - يناقش السياسة التوسعية التي رافقت انتشار الاسلام ونمط العلاقة بين الدولة و « الشعوب المغلوبة » . ويلاحظ أن ثمة تمايزاً بين الدعوة الى الإسلام وبين الدعوة الى المسيحية التي احتفظت بطابعها بين شعوب ومجتمعات مختلفة ، تسللت اليها بهدوء ، بينما نزل الاسلام على هذه الشعوب بحد السيف ، مستمداً قوته المعنوية والمادية من شخصية الرسول . واذا سلمنا مع (فلوتن) ، بأن الدعوة الى الاسلام ، خاصة في المراحل الاولى ، كانت متزامنة مع الانتصارات العسكرية التي حققها العرب المسلمون في المنطقة ، فإن الطريقة التي طرح بها الدين الجديد ، كانت أقرب الى الحوار منها الى العنف ، وهي طريقة مبتكرة ورائدة لفئة منتصرة في ذلك الوقت ، حيث العلاقات العسكرية تُطَوِّع في الغالب كافة مظاهر المجتمع وقيمه ، لا سيما العقائدية (١) .

(١) يمكن الرجوع الى كتب الرسول التي توجه بها الى معاصريه من الملوك والامراء ، وكذلك كتب القادة

« لقد زعم (فلوتن) ، وهنالا يتخلى عن نزعتة الأوروبية « التفوقية » ، بأن شعباً غير متحضر وغير مثقف ، استطاع بسط نفوذه خلال عشر سنوات فقط على شعب بكامله ، وفي خلال عشر سنوات أخرى على شعوب المنطقة كافة . فهل يتفق ذلك مع قوله ايضاً ، بأن حرية العقيدة وملكية الارض ، ظلتا في متناول هذه الشعوب ، التي كان عليها ان تؤدي مقابل ذلك ضريبة عادلة ومشروعة ؟ ثم يسترسل في التناقض مشيراً الى صانعي هذه الفتوحات ، وهي القبائل العربية غير المثقفة كما يراها ، فيعتبر دوافعها حيناً وطنية^(١) وحيناً آخر جهادية ، تنطلق من قاعدة الالتزام بالقتال المفروض على كل مسلم دفاعاً عن عقيدته .

ولعل المسألة ليست الى هذا الحد من التعقيد او الغموض . فهناك عدة مؤشرات قد لا تخضع بصورة دقيقة لقانون اجتماعي ثابت او معادلة سياسية قائمة ، لان القبائل « غير المتحضرة » التي تحدث عنها (فلوتن) ، كانت في معظمها على معرفة او إلمام بالقرآن ، حيث كان المسلم الجديد ملتزماً بحفظ نصوصه وترديد آياته . ومن ناحية اخرى ، فان نظاماً متماسكاً ومتطوراً كان وراء هذه القبائل ، يدفعها دون إكراه الى ممارسة دورها التاريخي في المتغيرات الجذرية الجديدة ، المعاصرة لبدايات الخلافة الراشدية بصورة خاصة . ولقد كان اللجوء الى السيف آنذاك ظرفياً ، تحتمة المجابهة مع أنظمة عريقة ، وليس مع شعوبها . . وهو بالتالي غير معبر عن مزاج قبلي او نزعة دموية ،

= العرب الى اعدائهم قبل الاحتكام الى السيف . ولدينا كذلك وثيقة الاتفاق بين خالد بن الوليد ونصارى الحيرة ، وهي تعتبر نموذجاً في العلاقات الانسانية الراقية التي وضعت اسس التعامل مع البلاد المفتوحة وشعوبها في المستقبل .

راجع الطبري ، تاريخ الامم والملوك ج 3 ص 87 : وكذلك ابو يوسف ، كتاب الخراج ص 84-85 .

Van vloren, La Domination Arabe P. 2. (1)

التصقت بهذه العقيدة ، كما رَوَّج بعض المستشرقين . وليس أدل على ذلك ، من ان فتح المدن او القرى ، لم يسجل الا نادراً حوادث قمعية او استباحية ، كانت تجد تسويغها في القانون العسكري المتعارف عليه ، الذي يميز بين الفتح الصلحي والاكرهي .

ان (فلوطن) يلجأ الى إفراغ الفتوحات من أية مضامين انسانية أو تبشيرية ، واصفاً اياها بالاحتلال ، حيث يعيش شعب منتصر على حساب آخر مغلوب . وهو متأثر هنا بمقولة سلفيه فون كيرمر ^(١) Von Kermer وجولدتزيهر Goldziher ^(٢) ، وهي لا تعبّر بالضرورة عن بواكير العلاقة بين الدولة ورعاياها غير العرب . فقانون الارض - وهو من تشريع عمر بن الخطاب - لم يمس جذرياً حقوق الفلاح عليها واستغلاله لها ^(٣) فضلاً عما كانت تقدمه الدولة من خدمات ، وذلك مقابل ضريبة عادية .

لقد سبقت العرب في السيطرة على العراق وفارس والشام ومصر ، شعوب ذات حضارات عريقة كالفرس والرومان والبيزنطيين ، وفشل هؤلاء في تحقيق الحد الأدنى من الاستقرار ومن العلاقة المتكافئة مع السكان الاصليين ، خلافاً للعرب الذين حملوا معهم شعار المساواة بطريقة فذة ومبتكرة ، كان من العسير جداً على أية دولة « اوتوقراطية » آنذاك مجاراتهم فيه كمفهوم او ممارسة . واذا لم تحقق الفتوح سوى هذا النمط الايجابي ، وهو تحرير انسانية هذه الشعوب من الاضطهاد الديني والسياسي ، ومن

La Domination Arabe P. 3. (1)

Goldziher, Le Dogme et le loi de l'Islam P. 123. (2)

(٣) راجع موقف عمر في هذه المسألة ، حين رفض توزيع الأرض بين قلة الفتوح . ابن رجب ، الاستخراج في احكام الخراج ص 11 . ابو عبيد ، الأموال ص 81 . بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ص 144-146 .

ذهنية العصور القديمة المتخلفة ، فان الاسلام من هذا المنطلق قد حقق أحد أبرز اهدافه الأساسية .

على ان ثمة فارقاً كبيراً ، بين جيل صنعت منه العقيدة انساناً جديداً ، متمحوراً حول قضية مصيرية ، وبين جيل آخر افرزته الحروب الاهلية بكل ما رافقها من مؤامرات وانهيار في السلوك واهتزاز في الايمان . وقد جاء ذلك كله لمصلحة التيار الذي تزعمته الاسرة السفينانية وعلى رأسها معاوية ، الذي كرس مفاهيم جديدة في العمل السياسي ، لم تكن على انسجام كثير مع ذهنية العهد الراشدي السابق .

لذلك فإن الفتوحات الاموية تطبعت بشخصيات الخلفاء ، المفتونة الى حد كبير بالنموذج القيصري الذي انتقل بنسبة ما الى حياة القصور في دمشق . وكان التهافت على المال احد مظاهر هذا العهد البارزة ، حيث اسهم في إفساد النفوس على حد تعبير (فلوتن) . ومن هنا فبقت برأيه الاعمال العسكرية - التي قام بها ولاية المشرق الامويين في خراسان - صفة الفتوح ، لان دافعها هو الطمع والوسيلة المقنعة لتحقيق الثراء ، في الوقت الذي يتراجع فيه الاسلام كعقيدة الى الوراء في اتهامات القادة العرب ، وتتقدم عليه المصالح الشخصية والقبلية .

ان (فلوتن) كغيره من المؤرخين أو معظمهم ، يرى بأن الطابع العام لدولة الامويين ، انما كان دنيوياً بكل تفاصيله . وهو نتيجة لذلك الاختلاف في رؤية الخلفاء السياسية والاقتصادية ، وفي علاقات المجتمع المتنافر بعناصره وفئاته ، وكذلك في تسييس الفتوح ، الخاضعة في المقام الاول لمشيئة الولاة ، والمفرغة من المضمون الجهادي ، الذي كان أحد العوامل الأكثر تحريكاً للفتوحات الراشدية .

وقضية الفتوح مرتبطة عضوياً بقضية أخرى ، هي الضرائب او الخراج (١) ، الكلمة الأكثر شيوعاً في المعاملات المالية آنذاك ، مع انها الضريبة المفروضة على انتاج الأرض . وكانت هذه المشكلة من اعقد ما واجه العرب في البلدان المفتوحة وعاملاً من عوامل التحريض على الاضطرابات والازمات السياسية . وكان عمر بن الخطاب قد تفادى حسم هذه المشكلة ، لاعتبارات تتعلق مبدئياً بحالة الاستنفار الدائم لقوى الانتاج المسيّرة لحرب الفتوح . ومع هدوء الموجة التوسعية في عهد عثمان وتورط الخلافة في سلسلة من الاخطاء ، ومن ثمّ عجزها عن مواجهة النقمة الشعبية المتفاقمة ، كان ثمة مطلب للثائرين الذين اطاحوا بالخليفة ، غير مقاومة الانحراف ، يتعلق بتوزيع الارض على عرب الامصار . ويبدو ان عثمان وهو مرتهن لعلاقاته العائلية والقبلية ، كان عاجزاً عن بحث هذه المسألة التي ستعود على عهده بالضرر اذا ما توفر لها الحل ، لان ذلك سيؤدي الى انقطاع مورد اسامي عن بيت المال وهو الخراج . وفي عهد علي بقيت هذه المشكلة ايضاً خارج نطاق الحل الجذري في وقت داهمته الحملات « الارستقراطية » - القبلية المضادة ، فشغلت عهده القصير بالحروب الداخلية . ولم تلبث رياح التمزق ان عصفت بجيشه ، فخرج منه اكثر من عشرة آلاف ، وهم الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد وكانوا شراً عليه اكثر من اعدائه .

ان خروج فئة اساسية من جيش علي في صفين ، لم يكن فقط مجرد احتجاج على قرار مرفوض وهو (التحكيم) ، بل كانت له خلفية اخرى مرتبطة بمسألة الارض^(٢) التي عاشت في هموم هؤلاء المقاتلين ورؤسائهم حتى الاصرار . ولعل السؤال يفرض نفسه هنا عن علاقة ما من حيث الجوهر ،

(١) ضريبة الارض .

(٢) راجع كتابنا المجاز والدولة الاسلامية ص 206 .

بين الثورة على عثمان وبين « الخروج » على علي ؟ . . فهناك تشابه في الظروف وفي الحوافز وكذلك في الثورة على الخليفة ، الذي يفترض - انطلاقاً من سلطته « الثيوقراطية » - انه فوق النقد او الاعتراض .

ولقد جاء انتصار التيار الذي يمثله الامويون ، بمثابة ثورة مضادة استهدفت روح العهد السابق ، حيث العقيدة الاسلامية هي الوجه الاساسي للمجتمع ، وأقامت نظاماً تسيطر عليه مصالح « الارستقراطية » القبلية ، المتعارضة مع نظم ذلك العهد المتشددة . وكانت التشريعات التي وضعها عمر بن الخطاب ، والتي أرست القواعد المبدئية لمؤسسة الدولة ، اكثر ما تلحق بالضرر بقايا الاستقرائية ، المتوثبة دائماً لاستعادة نفوذها المفقود . وحتى يكبح غرائز هذه الفئة ، فرض عليها ما يشبه الإقامة الجبرية في الحجاز ، وراقب مداخيلها وأموالها وهو ما عرف بـ « نظام المقاسمة » (1) .

ولكن هذا النظام انهار مع كثير من النظم الاقتصادية في العهد الاموي ، وأصبح الخروج على القواعد في الجباية ، والزيادات الكيفية للضرائب ، أمراً مألوفاً ومعترفاً به من السلطة العليا ، اذا ما استثنينا خلافة عمر بن عبد العزيز القصيرة . ولم يكن ما سمي بـ « دار الاستخراج » غير شكل سطحي لنظام المقاسمة الأنف الذكر ، حيث وضع لمراقبة ثروات الولاة ، فكان عبثاً اضافياً على جماهير الموالي ومورداً فائضاً لهؤلاء . على ان (فلوتن) يسلو شديد المبالغة ، حين يتحدث عن جباية الضرائب بصيغة تقريرية واضحة ، ويكاد يقارنها بأساليب العصور القديمة المتخلفة ، حيث يتعرض العاجزون عن الدفع للتعذيب والاضطهاد ، وذلك دون ان يكون للروايات التي

La Domination Arabe P. 10. (1)

اعتمد عليها سوى النصيب القليل من الدقة والموضوعية (١) .

ولم يختلف (فلوتن) عن غيره من المستشرقين ، في الاهتمام بتطور حركة المعارضة في خراسان عبر خلفياتها السياسية والاجتماعية . واذا ما تساءل عن وسيلة ما للخروج من حصار نظام الضرائب « المتخلف » ، واذا كان الدخول الى الاسلام يحمل الحل الى هؤلاء « المضطهدين » ؟ يعترف ان الباب لم يكن موصداً في وجه احد ، ولكن ملاكي الارض (الدهاقين) ، كانوا اصحاب المبادرة في هذا التحول السريع (٢) ، وأول المستفيدين من النظام الجديد . وبفضل ما اكتسبوه من خبرة قديمة في الادارة والارض ، اندرجوا في خدمة السلطة على حساب الفئات المتوسطة والشعبية (٣) . وهكذا يريد الوصول الى ثابتة قائمة برأيه ، حتى في بدايات انتشار الاسلام في المشرق ، ان هذا الدين كان حليفاً بالفطرة لكبار الملاك والاغنياء ، واتخذ منهم الاعوان والمرتزقين ، الذين استأثروا بالعطاء دون الفقراء من سواد الفرس الاعظم (٤) . هذا في الوقت الذي يعترف ، بأن القواعد التي طبقت في هذا المجال ، سواء في عهد عمر ام في عهد علي ، كانت من الشدة بحيث لم يجرؤ أحد على اختراقها او النيل منها (٥) .

والدولة الاموية في حقيقتها ، برغم الامتيازات التي احيطت بها الاسرة

(1) La Domination Arabe O. P. Cit: P. 12

(2) O. P. Cit: P. 12- 13

(3) O. P. cit : P. 13

(4) O. P. Cit: P. 13- 14

(5) راجع قول عمر لأحد عماله حين أعطى العرب وحجب عن المواليد « فحسب للراء من الشر أن يقر أخاه المسلم » البلاذري ، فتوح البلدان ص 443 . وقول علي لعلمه على اخذ ييجان « فاقبل على خراجك بالحق واحسن إلى جنك بالانصاف » تاريخ البعقوبي ج 2 ص 202 . وكذلك Vloten P. 14 .

الحاكمة والتي افترضت تأمين المزيد من الاموال حفاظاً على هذه الامتيازات واستمراريتها ، فان سياستها إزاء المعارضة ، عربية كانت ام فارسية ، لم تصل الى هذا الحد من الغباء وقصر النظر ، خاصة وانها لم تجهل تماماً سبل الوصول الى القلوب عن طريق المال وتعزيز العطاء . فعلى الرغم من ضلوعها في خرق قواعد العلاقات الاجتماعية المتكافئة ، وذلك انطلاقاً من تحالفاتها المرحلية ، وقعت فريسة التشويه التاريخي احياناً ، بالقاء كافة هذه المشاكل المعقدة على عاتقها . ذلك ان علاقة العرب بصورة عامة بالشعوب التي خضعت لهم ، كانت منذ بدايتها اخذت ثمرات نظام الفتوح الذي جعل منهم « طبقة » عسكرية متفرغة . وكان استمرار هذه القاعدة ، قد خلق نوعاً من انعدام التوازن ، دفعت ثمنه الدولة كمؤسسة مدنية ، وأدى الى تسييس الجيش منذ الثورة على عثمان . أي ان نزعة الفاتح العسكري ظلت هي الطاغية على ذهنية الولاة والموظفين العرب ، سواء تدخلت الدولة لمصلحة هذه السياسة ام ضدها .

ومن خلال هذه المعادلة كان دخول الموالي في الاسلام ، دخول التابع وليس الشريك . حتى ان كلمة (مولى) هي تجسيد لتلك التبعية او الإلحاقية التي فرضت على الفرس ، اول شعب غير عربي اتصل جدياً بالعقيلة الاسلامية ، انطلاقاً من الظروف البيئية والجغرافية المشتركة . وهنا يتحمل الامويون وزر العلاقة الخاطئة هذه ، حيث أدى انتعاش النظام القبلي في هذا العهد الى اضطراب الصيغة التي لم تكن قد أخذت طريقها بعد الى التنفيذ . فكلمة (مولى) كان لها مدلول الالتحاق بالقبيلة والموالاتها ومن ثم القتال تحت رايتها (١) ، حيث الحماية متوفرة في هذا الارتباط القائم على

(1) ابن خلدون ، المقدمة ص 96 .

اساس قبلي وليس عقائدي .

ان اضطراب المعادلة في القواعد الاجتماعية والاقتصادية امر مسلم به ، وقد فرضته سياسة الفتوح وما افرزته من ارسقراطية عسكرية ، احتقرت كل شأن غير شؤن الحرب . غير ان (فلوتن) كان متطرفاً وليس مبالغاً فقط ، في تصوير حالة الموالي المأساوية ، التي انحطت حسب قوله الى مستوى الرّق (١) . وهو تصور في غير محله ، لان الرقيق باشكاله الاوروبية التي قصدها (فلوتن) ، لم تعرفه المجتمعات الشرقية خاصة في العصر الاسلامي ، حيث تجمعت اشكال الاسترقاق ان لم نقل حوربت بصورة مبدئية . ومن ناحية أخرى لم يكن الموالي - والمقصود هنا العمال والفلاحون الفرس - كطبقة اجتماعية ، أحسن حظاً في العصر الكسروي الساساني . فقد استغلهم «الدهاقين» (٢) أسوأ استغلال ، تحت مظلة نظام استبدادي ، تسيطر عليه الارستقراطية الدينية والسياسية . ولا شك ان هذه الفئات المسحوقة ، حققت الحد الأدنى من الحرية الشخصية والدينية في المجتمع الاسلامي الجديد ، ومارستها عبر اشكال مختلفة . وكان المسجد كمكان للصلاة او مقر للتجمع ، ابرز وسائل الاتصال الجماهيري في الاسلام . وهذه الحقيقة متناقضة تماماً مع زعم (فلوتن) ، بأن الموالي كانت لهم مساجدهم الخاصة (٣) . ونحن اذا سلمنا بالفوارق العديدة ، المتعلقة بالزواج والعطاء والجنسية وبعده ظاهرات اجتماعية أخرى في العهد الأموي ،

(1) Vloten P. 13- 14 .

(2) كان هؤلاء يملكون القسم الأكبر من الأراضي قبل سقوط الامبراطورية الفارسية . شعبان ، صدر الاسلام والدولة الاموية ص 191 .

(3) Vloten P. 14 .

فإن المسجد كان القاسم المشترك لكافة الفئات في المجتمع ، ليس من خلال دوره كبيت للصلاة فقط ، ولكن بما يمثله من دور مؤثر في الحياة السياسية اليومية (١) .

ان (فلوتن) في دراسته لوضع «الموالي» في العراق وفارس ، شأن من تأثر بهم من المستشرقين المعروفين امثال كريمر وجولدتزيهر ، ودوزي ، اتخذ من عهد الحجاج الثقفي - العهد الاسود للموالي - مدخلاً الى تقويم عام يتناول صميم العلاقة بين شعب مضطهد وبين سلطة قهرية . ولم يذكر (فلوتن) ان سيف الحجاج لم يصطبغ فقط بالدم الفارسي ، ولكن ايضاً وبصورة اكثر مبالغة نال هذا السيف من العرب دون تحديد في الهوية القبلية او الاجتماعية (٢) . ذلك ان القوة التي رافقت اتحاد حركة المطرف بن المغيرة والانتقام من الخوارج الصفرية ، وكذلك تصفية القيادات التي شاركت في ثورة ابن الاشعث ، وهي في اكثريتها الساحقة عربية ، ليست الانماذج من ممارسات الحجاج التي استهدفت مختلف احزاب المعارضة وشيعها ، وهي لم تكن مطلقاً في دوافعها عنصرية .

على ان التيار المناهض للامويين ، كان عليه انطلاقاً من المتغيرات التي رافقت الصراع على السلطة ، والتي تبلورت مع تطور الشكل الاجتماعي لهذا الصراع ، بحيث ان التيار الشيعي من خلال اطروحاته الاصلاحية المتقدمة ، كان الاقدر على احتواء الموالي واستيعابهم . وكان ثمة ما يجعل العلاقة مجتردة بين الطرفين ، الشيعة كحزب مهزوم سياسياً ، والموالي كفئة

(1) ابراهيم بيضون ، ملامح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري ص 94 .

(2) راجع رسالة عبد الملك الى الحجاج واتهامه بالاسراف في القتل . السمودي ، مروج الذهب ج 3 ص 133-134 .

مسحوقة لم تحقق الحد النسبي من حقوقها الاجتماعية ، خاصة حقها الكامل في المساواة . ولقد عايش هذا الاستغلال مزدوجاً ، سواء تحت قبضة (الدهاقين) ملاكي الارض ، او حين التجأت الى الاسلام تخلصاً من الضرائب ، فاصطدمت بسلطة قمعية على رأسها الحجاج . وكان (الموالي) قد تلمسوا بداية الطريق الى موقعهم الطبيعي من السلطة الاموية ، وذلك مع ثورة المختار الثقفي ، اول من تنبه الى حجم القوة الشعبية وأهميتها التي يمثلها (الموالي) . ووصلت مشاركة هؤلاء في الحركات الثورية أرقى درجاتها آنذاك ، في ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، عندما تحولوا من اكرية صامتة الى قوة فاعلة ، ذات تأثير جذري في التيار الثوري العام ، الذي تتوج بقيام الثورة العباسية .

لقد انهارت ثقة الموالى بالحكم الاموي وتحديدًا بولاية المشرق ، الذين مثلوا الصورة المتطرفة وربما المشوهة لهذا النظام . وبلغ التناقض بين السلطة الاموية وبين الموالى مرحلة الافتراق ، وذلك مع التكريس العملي لمبدأ التفاوت الاجتماعي ، الذي كان من ظواهره الملفتة بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث ، وشتم الأسماء على الأيدي وطرد الآلاف منهم الى خراسان ، حيث بدأت تحاك آنذاك خيوط النهاية غير البعيدة للدولة الاموية .

وكان ارتباط المشرق الاسلامي ادارياً بولاية العراق ، قد أدى الى التأثير جذرياً بمواقف هذه الاخيرة وبالتطورات السياسية والاجتماعية على أرضها . فتمة خط مباشر ربط بين الكوفة العراقية وبين خراسان الفارسية ، وضع الولايتين في موقع المجابهة السافرة مع الحكم الاموي . وبعد تحجيم دور الكوفة السياسي في اواخر القرن الاول الهجري ، كانت خراسان المؤهلة لوراثة هذا الدور ، بشروط لم تتوفر للاولى . وليس المهدف هنا التمهيد

للبحث في « ثورة فارسية » ، كان مسرحها هذه المنطقة التي سكنها آنذاك من العرب بما لا يقل كثيراً عن « موالي » الكوفة (١) . ذلك ان هدفنا الرئيسي هو التعرف على الظروف الموضوعية التي رافقت انفجار هذه المنطقة الساخنة ، منذ ان توجهت اليها انظار المعارضة ، كأرضية مفضلة للعمل الثوري ، حيث التناقضات اكثر حدة ، وظل السلطة المركزية يزداد تراجعاً وانحساراً .

ان تحالفاً مصلحياً قام بين دهاقين الفرس وبين الولاة العرب ، على غرار ما كان قائماً في العراق . وهو تحالف بين السلطة والاقطاع ، كان موجهاً ضد الاغلبية من صغار المزارعين والعمال وبقية الفئات المضطهدة في خراسان وبلاد ما وراء النهر . وكانت هذه المنطقة حتى مطلع القرن الاول ، محاطة بشريط من الامارات الوثنية ، التي اكتفى الحكام العرب من علاقات حسن الجوار معها ، بفرض جزية سنوية ، جاءت نتيجة مجموعة من المعاهدات السلمية بين الطرفين . غير ان شراة « الدهاقين » وعمال الجراج من جهة ، وحرص الولاة الامويين على تأمين نصيبهم الخاص من هذه الضرائب ، المتذبذبة بين وقت وآخر ، كان يؤدي الى تآزيم العلاقات مع امراء هذا الشريط الوثني ، ويجرّ أحياناً الى حروب مسلحة .

ومن الجائز أن نتساءل هنا عن موقف الخلفاء الامويين من احداث خراسان ، التي بدأت تأخذ هذا المنحى الاجتماعي المتميز ؟ وان نتساءل أيضاً اذا كان لديهم شيء من الادراك أو التصور الموضوعي لهذه المشاكل الموقوتة ، خاصة في مناطق التباين الاجتماعي والاقتصادي ، كالمغرب أو العراق وخراسان وبقية الاقاليم الشرقية ؟ . والجواب على ذلك ، ان أي اهتمام جدي

(1) فاروق عمر ، طيبة الدعوة العباسية ص 97-98 .

بقضايا شعوب البلدان المفتوحة ، لم يكن في بال خلفاء المرحلة الاولى من دولة الامويين ، التي انحصرت مشاغلها في تطويع حركات المعارضة وفي تدعيم السياسة التوسعية ، الهاجس المشترك لخلقاء تلك المرحلة . ومعنى ذلك ان أية افكار مستقبلية لبناء مجتمع غير عسكري ، لم تكن قد طرحت بعد .

يبد أن هذه المرحلة ، شهدت بواكير الثورة التصحيحية مع حركة المطرف بن المغيرة بن شعبه ⁽¹⁾ ، أول محاولة اصلاحية من داخل النظام الاموي . لقد رفض المطرف المشاركة في حكم لا يمثل سوى حفنة من كبار زعماء القبائل وبعض الدهاقين المتعاونين معهم . فكان برنامج الشوري ، رائداً لمن هو في موقعه : « أدعوكم الى أن تقاتل هؤلاء الظلمة على احداثهم ، وندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون الامر شوري بين المسلمين » ⁽²⁾ .

وقام الخليفة عمر بن عبد العزيز من قمة السلطة ، يكرر التجربة نفسها محققاً آمال المطرف بعد نحو عشرين عاماً ، وذلك في نطاق ثورة اصلاحية شاملة . ولقد انطلق هذا الخليفة من نقطتين متكاملتين : الاولى : مرتبطة بالقرار الجريء الذي اتخذه بتجميد العمليات العسكرية على جبهات الحدود المختلفة - باستثناء جيوب قليلة - متصدياً لقضية حساسة ، توكأ عليها اسلافه من الناحيتين المادية والمعنوية : « فلا تغزُ بالمسلمين . فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم » ⁽³⁾ . والنقطة الثانية ، كانت نتيجة حتمية لقراره

(1) ثار للمطرف في المدائن حيث كان معلماً للحجاج بن يوسف عليها ، وذلك في سنة 77 هـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج 4 - ص 211 .

(2) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج 4 ص 211 .

(3) من قوله لعلمه على غراسان بعد ان أمره بتوقيف غزواته في بلاد ما وراء النهر . الطبري ، تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 139 .

السابق ، وهي تتعرض لعلاقة الدولة بانسان الارض المفتوحة وموقفها من « اسلامه » ، حيث كانت هذه القضية موضع جدل في اوساط الخلافة ، من زاوية ما تعكسه من خلل على مصادر بيت المال . فكان أول خليفة أموي ، يضع شعار المساواة موضع التنفيذ ، ويسقط الضرائب غير المشروعة ⁽¹⁾ . ولكن هذه المحاولة لم تعط ثمارها المستقبلية ، فانطوت مع صاحبها دون ان ترى فيها الاسرة الروانية سوى الجانب السلبي ، الذي يهدد مستوى الفئة الحاكمة وتحالفاتها السياسية والاقتصادية .

غير ان التيار الاصلاحى « السلطوي » ، لم يتوقف بموت عمر بن عبد العزيز . فعلى الرغم من الرثة الاموية التي اجتشت جذور محاولته الفلذة بعيد ذلك ، فإن افكاره وجدت من تبناها وتحمس لها من الموقع نفسه ، كالأشرس ⁽²⁾ والى خراسان وكبير معاونيه أبي الصيداء ⁽³⁾ . الا أن هذه المحاولة تعثرت ايضاً ، وكان للسلطة العليا دورها الواضح في إفشالها . فقد تراجع الأشرس عن قراره بعد تقلص الخراج ⁽⁴⁾ مكتفياً بهذه الخطوة الجزئية ، دون أن يضع في حسابه الثغرات التي أوصلته الى نتيجة حتمية معروفة . وهذه الحركة الهادفة الى تحسين ظروف الموالي ، لا يتحمل وزر فشلها الموالي الاصلاحى فقط ، لأن « اشراف البلاد » على حد تعبير (فان فلوتن) ⁽⁵⁾ ، كانوا متضررين من هذه السياسة الجليدة ، ومقاومين لكل تغيير

(1) الطبري ج 8 ص 139 .

(2) الأشرس بن عبد الله السلمي المصدر نفسه ج 8 ص 195 .

(3) ابو الصيداء صالح بن طريف ، راجع الطبري وما ورد عن قول الأشرس له : « خرج على شريطة أن من أسلم لم يؤخذ منه الجزية » ج 8 ص 169 .

(4) المصدر نفسه ج 8 ص 196 .

(5) Vloten P. 23 (5)

يصيب مصالحهم وامتيازاتهم بسوء . اي أن تحالفاً طبيعياً وحّد بالضرورة بين كل من السلطة الاموية و « الدهاقين » القرس ، الذين كانوا يخشون أي تحول جذري في عقيدة الموالي الدينية ، لان ذلك سيحملهم على الامتناع عن التدخل المباشر في شؤون اتباعهم ، والى الغاء دورهم كوسطاء بين هؤلاء وبين السلطة الحاكمة . وبعبارة أخرى ، فان ذلك سيؤدي بهم الى الحرمان من « وسيلة فذة لاستنزاف أموالهم » ، حسب قول المؤرخ نفسه (1) .

واذا ما نساء لنا عن دوافع هذه السياسة التي لم يكن من نتائجها ، سوى استعداد سكان هذه البلاد ضد العرب . . . أهو تثبيت لاحتلال دائم - بلغة المستشرقين - لم يعد من مسوّغ له ، بعد ان أخذ هؤلاء السكان يتجهون الى الاسلام ؟ أم أن الواقع كان متناقضاً مع هذا التصور ، حيث التحول العقائدي لا زال سطحياً أو مشكوكاً فيه ؟ ذلك أن البناء الاجتماعي لشعوب المنطقة الواقعة وراء نهر جيحون ، كان قريب الشبه ان لم يكن أكثر تعقيداً بما يمثله لدى قبائل البربر في المغرب . وهذا ما أدى بالضرورة الى إصطدام العرب بمجتمعات تحكمها الكيانات القبلية المتنافرة ، التي لم تستوعب بسهولة فكرة المساواة والجماعية في عقيدة الاسلام . ولم يكن في المقابل من اليسير على الامويين ، التحرر من خلفيتهم القبلية - التجارية المتأصلة فيهم ، حيث انعكست على سياستهم المالية وأورثتهم الفشل الذريع في التعامل مع شعوب البلدان المفتوحة .

لقد كانت حركة عمر بن عبد العزيز في جوهرها أموية ، استهدفت انقاذ الخلافة من السقوط المتربص بها (2) . فالنظام الحربي الذي وضع اسسه

(1) Vloten P. 25

(2) ابراهيم بيضون ، ملامح التيارات السيلية في القرن الاول الهجري ص 328 .

عمر بن الخطاب ، بغية شحن النزعة القتالية وتحذيرها ، وذلك في مرحلة مصيرية وحاسمة من تاريخ الدولة العربية الاسلامية . . هذا النظام فقد دوره ان لم نقل اهميته ، بعد تلك المتغيرات المتعاقبة . من هنا اتخذت هذه الحركة توقيتها الضروري ، حيث أستنفد نظام سلفه الراشدي مهمته ، وبات مطلوباً بالحاح تحقيق بناء الدولة من الداخل .

وهكذا فان خطأ عمر بن عبد العزيز الرئيسي ، أنه لم يكن مبتدعاً او متطوراً في مفاهيمه الاصلاحية ، بما يتكافأ واتساع الدولة وتزايد سكانها ، وما يترتب على ذلك من اختلافات بين بيئة واخرى ، ومن تشابك في المصالح والاهداف وتضارب في الصلاحيات ، حيث السلطة المركزية تصبح كالدائرة في الماء ، تضيق كلما اتسعت حولها الدوائر وتوالدت . ولذلك فان القول بأن هذا الخليفة كان سلفياً الى درجة التزمّت ، يعبر كثيراً عن الحقيقة . فقد اقتبس تجربة سلفه الراشدي بشيء من الجمود ، دون ان يعي التفاوت الهائل في الظروف والمعطيات بين عهد وآخر . وهذا ما أدى الى اتخاذ حركته مسلكاً غير واقعي ، بحيث لم تصمد أمام المواجهة العنيفة التي تعرضت لها ، حتى في أوساط اسرته المروانية . فتصدت لها حركة مضادة ، لم ينجح في تطويقها ، وانتهت الى اسقاطها والى غياب صاحبها في ظروف قد لا تكون طبيعية (1) .

غير أن الفكر الاصلاحى من داخل السلطة الاموية ، وجد من عبّر عنه بطريقة فذة وجديدة ، وذلك في ثورة الحارث بن سريج (2) ، وراء نهر

(1) بيضون ، ملامح التيارات السياسية ص 329 . راجع منتخب التواريخ للمعشوق للحصني ص 100 . وهناك من يرى أن جماعة عمر كانوا يراهنون على الوقت لإبعاد يزيد عن ولاية العهد ، وهو ما لم يتحقق . شعبان ، صلب الاسلام والدولة الأموية ص 152 .

(2) ثار الحارث بين سنتي 116 هـ و 128 هـ . تاريخ الطبري ج 8 ص 319 وج 9 ص 66 .

جميعون . وكان هذا التأثير أحد قادة الامويين الكبار في خراسان ، حيث شارك في الحروب ضد الترك ، وارتبط آنذاك بصداقة ، مع أبي الصيداء ، القائد الذي ارسله الاشرس ، والي خراسان ، الى سمرقند ، لتنفيذ برنامج الهادف الى رفع الضرائب عن المسلمين الجدد . وكان ان تراجع الاشرس عن موقفه لاعتبارات ذكرناها آنفاً ، بينما ظل أبو الصيداء على قناعاته التي شاركه فيها الجارث فيما بعد .

كانت منطلقات ثورة الجارث على السلطة الاموية في خراسان ، في مضمونها ثورة على الاضطهاد ، بحسب ابرز شعاراتها في تحقيق المساواة الاجتماعية والعودة الى « الكتاب والسنة والبيعة للرضى » (١) . والواقع ان ثمة تشابهاً في المنطلقات وفي الرؤية الاصلاحية ، وحتى في الشعارات المطروحة ، بين هذه الثورة وبين الحركات الثورية المختلفة ، سواء من موقع المعارضة أم من داخل السلطة ، حيث كانت الدعوة الى « الكتاب » أو القرآن ، المطلب الرئيسي والقاسم المشترك . وهذا معناه أن الدولة الاموية ، برأي هؤلاء المعارضين ، فقدت مسوغ وجودها ، بافتقادها كمؤسسة ما تمثله من مضمون اسلامي ، وتحولت الى حكم فتوي متزمت .

وكانت هذه الحركة من أخطر ما واجه الامويين في مشرق الخلافة ، في وقت اشتعل مغربها ، من خلال معطيات متشابهة بثورة البربر الكبرى . غير ان ثورة خراسان كانت متشعبة بالخط الاسلامي « الراديكالي » ، بينما أسهمت في الثانية عوامل « ايدولوجية » أكثر سطوعاً ، حيث نجح الخوارج المهاجرون آنذاك الى المغرب ، في استثمار نقمة البربر وموقفهم المتشنج من خلافة دمشق ، عبر ثورة شاملة ذات محتوى اجتماعي في المقام الاول . ولعل

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢١٩ .

ابرز ملامح الثورة التي قام بها الحارث ، انها كانت اولاً عربية القيادة والجهامير ، قبل أن تتسع قاعدتها الشعبية لتضم مختلف المضطهدين في المنطقة من عرب وترك وفرس . وكانت ثانياً « ديموقراطية » الطابع ، خاصة في طرحها للقضايا السياسية والاجتماعية الملحة والمعقدة في اقليم خراسان . وكانت ثالثاً ، أمينة لشعاراتها وملتزمة بها ، رافضة التخلي عن أي من التزاماتها الجهادية ، رغم محاولات تطويقها من جانب السلطة بمختلف وسائل الجذب والاغراء (١) .

وكان الحارث قد تحالف مع خاقان الترك بعد عامين من اندلاع الثورة (118 هـ) (٢) ، اثر تحولات عسكرية لم تكن في مصلحته واضطراره للتراجع الى (طخارستان) وراء النهر . ولقد حدث ذلك في اعقاب انتصارات حققها الحارث على الجيوش الاموية ، دفعت والي خراسان - عاصم بن عبد الله - الى التفاوض معه ، بغية الوصول الى اتفاق بين الطرفين (٣) ولكن تغيير الوالي ومجيء أسد بن عبد الله القسري في قوات جديدة ، كان وراء هذه التطورات التي انتهت بتحالف الثورة مع الترك . وعلى الرغم من تدعيم موقعه العسكري في وقت لاحق وهزيمته للوالي الذي خلف أسد ابن عبد الله (نصر بن سيار) ، وطرده من عاصمته (مرو) ، فان الفشل كان محققاً بهذه الثورة التي استمر اندلاعها نحو اثنتي عشر عاماً (116-128 هـ) ، عندما انتهت بموت قائدها ، والدولة الاموية على وشك نهايتها ايضاً (٤) .

(1) تاريخ الطبري ج 8 ص 226-228 .

(2) المصدر نفسه ج 8 ص 234 .

(3) المصدر نفسه ج 8 ص 221 .

(4) المصدر نفسه ج 8 ص 224 .

ومن الواضح أن ثورة الحارث بن سريج كان يعوزها البناء التنظيمي المتجدد والطرح الايدلوجي المبرمج ، مما يؤهلها لدائرة أوسع من الاستقطاب السياسي والشعبي . وكانت تلك في الحقيقة ابرز فجواتها التنظيمية ، لا سيما الفشل في توحيد الموقف العربي ، وتكتل القبائل اليمنية ضدها ، حيث رأت فيها تجمعاً مضرراً بقيادة الحارث التميمي الاصل . ومن ناحية ثانية ، فقد كان لتعيين نصر بن سيار ، الوالي القوي ، الذي يمثل آخر حضور نسبي للسيادة الاموية في المشرق ، اسهام بدوره في التقليل من نفوذ الحارث والحد من انتشار حركته الاصلاحية الرائدة .

ولم يكن الحارث متطرفاً في سلوكه الثوري ، بل كان يتطلع الى صيغة توفيقية بين العرب والمسلمين الجدد ، وفق قاسم مشترك تلتقي عنده مصالح الفريقين . ولقد قبل هذا الاتجاه بموقف معتدل ايضاً من السلطة الاموية في خراسان ، التي نظرت الى دوافعه الاصلاحية بشيء من التقدير (المعاهدة التي كانت على وشك التنفيذ بينه وبين عاصم بن عبد الله ، وسعي نصر بن سيار لدى الخليفة من أجل العفو عنه) (١) . وهناك من يعتقد ، ومنهم المستشرق (فلوتن) ، بأن وراء هذا الاتجاه التوفيقي عند الحارث تأثر بفكر المرجئة الوسطي النزعة ، والداعي الى حل المشاكل الاجتماعية بطريقة عادلة (٢) .

لقد عاش الحارث عن كتب - منذ ان كان مقاتلاً في حروب الترك وراء النهر - مشاكل التباين الاجتماعي والاقتصادي بين المسلمين القدامى

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص 234 وج 9 ص 42 .

(٢) كان يرى المرجئة بأنه لا يحق للدولة ان تعامل المسلمين من غير العرب وكأنهم لا يزالون على الكفر بعد ان آمنوا بالاسلام . وقد كانوا يسمون حسب الشهر ستاتي ، « أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية والعلمية » الملل والنحل ص 43-45 .

والجلد . فكانت تجربته هذه إحدى أهم الخوافز لثورته ، التي رفعت شعار المساواة في طليعة شعاراتها الإصلاحية . وتحول الحارث لأكثر من عشرة أعوام ، رمزاً للثورة على الظلم وضميراً للفقراء والمضطهدين في خراسان والبلدان المتناثرة حول نهر جيحون . ولكن أشرق صفحات هذه الثورة ، أنها أسهمت في ظهور جيل متور ، متحرر من أية نزعة فتوية أو عنصرية . فكان نواة التيار الإصلاحي الجديد ، الذي سيقع عليه عبء التغيير المرتقب بعد سنوات قليلة . ولم يكن ثمة ما يحول دون ذلك الاتصال الروحي وتلك العلاقة الحتمية ، بين منظري الثورة العباسية الأوائل ، وبين الأثر العظيم الذي تركه الحارث بن سريج في خراسان .

الشيعية السياسية

كان التشيع بمفهومه السياسي ، أول الاشكال « الحزبية » في الاسلام ، مرتبطاً منذ نشأته بالصراع على الخلافة محور التجاذب والجدل بين الهاشميين وبين خصومهم في السلطة ، خاصة بني أمية . فقد ظهر آنذاك تياران : الاول تمثله السلطة بـ « شرعيتها » المكتسبة مع تحوّل الخلافة الى أمر واقع . والثاني تمثله المعارضة التي احتجت على بيعة « السقيفة » وتكتلت حول علي ، حيث كان برأيها الشخصية القادرة والمؤهلة لاستلام الحكم ومسك زمام الامور بعد النبي .

ومع انتشار حركة الفتح وما رافقها من متغيرات جذرية ، اصبحت هذه الصورة اكثر تعقيداً ، عندما برزت تكتلات جديدة أسهمت بأدوار متفاوتة في الحياة السياسية في ذلك الوقت . فقد أدى استيلاء الامويين على الخلافة في اعقاب حرب أهلية قبلية طويلة ، الى بلورة الاطار « الحزبي » للقوى السياسية المتنافسة وظهور « حزبين » جديدين : أحدهما أفرزته المعارضة التي تسلمت الحكم لفترة قصيرة ، وهو « حزب » الخوارج الذي اتخذ انحياها متطرفاً طوال العصر الاموي ، وثانيهما تحوّل من الموالاة الى المعارضة بعد انتقال مركز الخلافة الى دمشق ، ولكنه كان « حزباً » اقليمياً

تتحور حول (المدينة) ، حاضرة الاسلام الاولى . ولقد نجح هذا الاخير بما لديه من رصيد معنوي في توسيع دائرة النعمة على الحكم الاموي ، ولكنه في النهاية لم ير غير السلفية مخرجاً للازمة ، وما عداها يعتبر خروجاً على الشرعية ونهج الاولين من الخلفاء . هذا في الوقت الذي تابع فيه « الحزب » الرئيسي مسيرته كممثل طليعي للمعارضة السياسية ، وهو الحزب الشيعي ، بأسمه المعبر عن الولاء لعلي والمشايعه لحقه في الخلافة ، ذلك « الحق » الذي اتخذ اطاره الوراثي بعد اغتياله .

وهكذا فان اتجاهات سياسية اربعة ، يمكن تصنيفها في الاطار الحزبي ، كانت تشكل القوى الرئيسية في ذلك الوقت ، وهي كما يلي :

1 - حزب الأمويين الذي انتقلت اليه السلطة ، وكان يستمد القوة من تحالفاته القبلية و « الارستقراطية » ، القديمة والمستجدة . ولقد اتخذ الشام مركزاً له ، منذ بداية تكوينه السياسي ، دون ان يحالفه النجاح في توسيع هذه الدائرة من نفوذه ما يتعدى هذه المنطقة .

2 - حزب (المدينة) الذي كانت تحركه دوافع إقليمية سلطوية مع انتقال العاصمة القديمة الى الظّل ، وما ترتب على هذا الانزواء من ضرر معنوي ، لم يعوض عنه سخاء معاوية لاسكات الصوت الحجازي في المعارضة السياسية . وثمة عامل آخر برأي (فلوتن) كان وراء تحزّب (المدينة) ضد الامويين ، أنها وجدت في وصول هؤلاء الى الخلافة ، انتصاراً لاعدائها القدامى من مشركي مكة قبل سقوطها في العام الثامن الهجري ⁽¹⁾ . على انه رغم حساسيات العلاقة بين الطرفين ، فان مضمون المعارضة الحجازية كان سياسياً في المقام الاول أن لم نقل

1. Vloten P. 34 (1)

اقليمياً ، وذلك بما للمدينة من موقع تاريخي في انتصار الاسلام وتأسيس الدولة الاولى . ولكن معارضة (المدينة) لم تعد التجمع غير المنظم ، خاصة بعد هزيمة (الحرّة) ، التي قضت على كل الآمال في استلام السلطة أو تحقيق دور سياسي على شيء من الاهمية (١) .

3 - حزب الخوارج ، وقد ظهرت نواته في صفين كاحتجاج على مبدأ التحكيم . ثم تطورت افكاره عبر مقولات جريئة ، أصابت بعض نواحي العقيدة والثورة والإمامة . على ان اكثرها جرأة ما تناول شؤون هذه الاخيرة ، بتحريرها من الاستئثار القرشي ، وذلك من خلال صيغة « ديمقراطية » تتجاوز العرق واللون ، شرط توفر المواصفات المطلوبة للإمام . وهذا القرار يمثل في رأي بعض المستشرقين (٢) ؛ اتجاهاً جمهورياً ، من حيث الدعوة الى اختيار الخليفة عن طريق الجماعة ، والثورة على العرف « الارستقراطي » (٣) السائد ، وهو « قرشية » الخلافة . ومن ناحية أخرى ، كان الخوارج أول من نادى بحق الامة في خلع الامام ، اذا فقد الثقة أو اتهم بالانحراف . وهذا يعني أنهم سبقوا المعتزلة في هذا الاتجاه ، وهو الثورة على الامام الجائر . ولكن نقطة الاختلاف بينهما ، هو الموقف من الخلفاء الامويين ، حيث طعن الخوارج في ايمانهم ، بينما كانوا مجرد مغتصبين للسلطة ليس اكثر في رأي المعتزلة (٤) .

ولكن « ديمقراطية » الخوارج لم تكن سوى نظرية جوفاء ، تناقضت في

(1) راجع كتابنا الحجاز والدولة الاسلامية من 270-290 .

(2) Vloten P. 34 .

(3) فلهوون ، الخوارج والشيعية من 14-15 . راجع ايضاً شعبان ، صدر الاسلام من 107 .

(4) محمد عمارة ، للمعتزلة والثورة من 48-49 .

الصميم مع التطرف الذي التصق بهم وانعكس على سلوكهم بشكل عام . ففي الوقت الذي انتقلوا فيه احتكار قريش للخلافة ، كانت زعامتهم لفترة ما شبه متوارثة في بني تميم ، رواد التمرد على « التحكيم » . ومن ناحية ثانية ، فإن ما يتعارض وهذا الشكل السطحي للديمقراطية الخوارجية ، ان تكون جميع « الاحزاب » مرفوضة لديهم ، أو موضع طعن في الايمان ، بعد ان بالغوا في التعصب لأرائهم واقفلوا الحوار في وجه الآخرين . وقد عاش الخوارج طوال العصر الاموي ، وهم يعانون ذلك التناقض بين النظرية « الديمقراطية » المتطورة وبين الممارسة المتخلفة ، المصطبغة بالعنف والارهاب (1) .

4 - حزب الشيعة ، وهو أول اشكال التجمعات السياسية التي ظهرت في الاسلام واكثرها استقطاباً وجماهيرية . وكان التأييد لحق علي في الخلافة السبب المبدئي في ظهوره ، الا ان هذا الولاء لم يكن محكوماً بالحق الوراثي للأسرة الهاشمية - كما يرى (فلوتن) ومعظم المؤرخين - بقدر ما كان استجابة لمصالح تيار شعبي عريض ، كانت معرضة للخطر منذ ان أخذ التيار « الارستقراطي » القديم في التحرك والوثوب نحو السلطة . ولكن الانتقال من التجمع العفوي الى الاطار الحزبي ، لم يتبلور الا في العصر الاموي . واذا كانت خلافة معاوية قد نجحت في تحجيم المعارضة السياسية وتطوير تحركاتها الى حد كبير ، فإن خلافة يزيد أسهمت بدون قصد ، في تهية الارضية الملائمة لانفجار حركات ثورية موقوتة ، حددت الاطار العام للاحزاب الاربعة التي مر ذكرها ، لاسيما الحزب الشيعي .

(1) ابراهيم بيضون ، ملامح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري ص 214 .

وكانت ثورة الكوفة المجهضة التي انتهت الى سقوط الحسين ورفاقه في كربلاء مقدمة للحركة الشيعية « شهيداً الحقيقي الأول » كما يرى مؤرخ معاصر⁽¹⁾ ، وما أعقب ذلك من ظهور حركة التوابين الانتحارية ، التي استثمرها المختار الثقفي في اقامة أول حكم شيعي منذ تنازل الحسن ، قد اسهمت معاً في بلورة الشكل التنظيمي للحزب الشيعي ووضوح مفاهيمه ، خاصة في الاطار الاجتماعي . فنجح بفضل اطروحاته الاصلاحية ، في اختراق حواجز القمع والملاحقة ، الى عقول الجماهير التواقه الى المساواة والى العدالة .

وهكذا فان التشيع ، سواء في طوره السري قبل كربلاء أو في طوره العلني بعد ذلك ، كان ظاهرة سياسية لم تمس مطلقاً العقيدة خلافاً للخوارج ، « الحزب » الذي شارك الشيعة في معارضة الخلافة الاموية . ومن هذا المنظور فان أية خلفية غير سياسية ، لم تكن في ذهن القائمين على « الحزب » في ذلك الوقت . ولعلنا نلمح ذلك في مقولات القادة التاريخيين للشيعة ، حيث كانت واضحة ومحددة ، وهي ذات مدلول سياسي واصلاحي بحث⁽²⁾ .

اما التشيع في مفهومه الفقهي والعقائدي ، فقد ظهر في وقت متأخر ، واستقر في اطار مدرسة فكرية مستقلة ، منظرها الرئيسي الامام جعفر الصادق . ولقد استمدت شرعيتها برأي الشيعة من ثابتين : الاول هي حديث « الغدير » او وصية النبي لعلي بالخلافة⁽³⁾ ، والثانية هي « العلم » المتميز الذي حظي به أهل البيت أو « الحكمة العالية » التي أفاضها الله على

(1) شعبان ، صدر الاسلام والدولة الاموية ص 103 .

(2) محمد مهدي شمس الدين ، ثورة الحسين ، ظروفها الاجتماعية وآثارها الانسانية ص 142-147 .

(3) محمد جواد مغنية ، الشيعة والتشيع ص 15 . ابراهيم بيضون ، التوابون ص 32 .

محمد ، والتي انتقلت منه الى أعقابه مما جعل هذه الصفة الدعامة الأساسية في الفكر السياسي الشيعي . هذا باختصار ما تطور اليه هذا « الحزب » في مطلع الخلافة العباسية ، حيث طرأت تعديلات جديدة على مساره دافعة به الى الانزواء بعد تجربة فضائية مريرة . وكان ذلك مقدمة تطورات أكثر جذرية ، ستقوده الى المحنة التي اسفرت عن تمزيقه وانشقاق اتجاه جديد ، رفض هذا التحول غير السياسي في عقيدة الحزب ، وهو الذي تطور الى الحركة الاسماعيلية (1) .

ولكن الاسماعيلية لم تكن بداية الطريق الى التطرف في الحزب الشيعي ، حيث تجاذبته منذ البدء تيارات عدة ، الا انها لم تؤثر فيه تأثير هذه الحركة . فمن المؤرخين ومنهم (فلوتن) من يتحدث في نطاق المغالاة والتطرف الشيعي ، عن فرقة اسمها السبئية أو « السَّبائية » (2) . حتى أن بعضهم يعتبرها نواة التشيع ، وأن صاحبها عبد الله بن سبأ (من يهود اليمن) هو أول المروجين من الناحية « الايديولوجية » لما عُرف بالتشيع فيما بعد ، حيث اعتقد بأن شيئاً اُلهياً تجسّد في علي وابنائهِ من الائمة . وهذا الانتقال الروحي من إمام الى آخر ، حسب هذه النظرية المزعومة ، مقترن بتفاصيل خيالية عن غيبة الروح وعودتها « الرجعة » ومن ثم « التوقف » ، أي انتظار الامام (3) . وفكرة السبئية التي أخذ (فلوتن) اخبارها عن (الشهرستاني) (4) ، اُشتد رواجها فترة ما في اواخر القرن الماضي وأوائل هذا

(1) تسبب هذه الحركة الى اسماعيل ، الابن الأكبر لجعفر الصادق الذي استبعد عن الامامة لاسباب غير واضحة تماماً ، وعُيّن مكانه اخوه موسى الكاظم .

(2) الشهرستاني ، الملل والنحل ج 1 ص 174 .

(3) Vloten P. 40 .

(4) الملل والنحل ج 1 ص 174 .

القرن ، خاصة في اوساط المستشرقين ، الذين استهوتهم هذه « الروحانيات » في التاريخ الاسلامي وأفردوا لها الصفحات العديدة في بحوثهم .

بيد أن « السبئية » رغم اعتقاد بعض المؤرخين العرب بها ، ما لبثت أن أصبحت عرضة للشك والاختلاف⁽¹⁾ ومن ثم النفي المطلق، بعد التحقيقات والمقارنات الجدّية التي ظهرت تباعاً منذ الثلاثينات من هذا القرن ، وبعضها اعتبر أن عبد الله بن سبأ شخصية خرافية لا وجود لها في الاصل⁽²⁾ . ولعل آخر ما كتب في هذا الموضوع ما جاء في « الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية » للدكتور محمد عماره ، نافياً كل علاقة بين السبئية وظهور التشيع : « فدعوى عبد الله بن سبأ - على فرض وجوده ووقوعها - لم تكن من دعوى هشام بن الحكم⁽³⁾ بسيل . ومن هنا فان عصره لا يصح أن يتخذ بدءاً لتاريخ ظهور الشيعة والتشيع بالمعنى الفني المعروف⁽⁴⁾ » . و « السبئية » ، اسطورة كانت أم حقيقة ، فهي على هامش التشيع ومتناقضة في الصميم مع الفكر الشيعي بخلفيته السياسية البحتة .

وهكذا فإن طائفة « السبئية » التي يذكرها (فلوتن) في نطاق الحركات المتطرفة ، خاضعة للشك في اصولها غير الموضوعية ، ومتفية تماماً في المصادر الشيعية . أما « الكيسانية » ، فهي من أوائل الحركات الانفصالية ، التي ظهرت في اعقاب مأساة كربلاء . وهي تتفق مع مقولة الحزب حول

(1) أحمد لوساتي ، نظرات جديدة في تاريخ الأدب ص 316 .

(2) مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ واساطير أخرى . ج 1 ص 238 وج 2 ص 250 . محمد عماره ، الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ص 155 .

(3) أحد كبار المساهمين في ظهور التشيع كمنهج في مطلع الخلافة العباسية .

(4) محمد عماره ، الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ص 155 .

« العلم » الخاص الذي يتميز به الاثمة ، ولكن بشيء من المغالاة ، بأن محمد ابن الحنفية يحيط بالعلوم الالهية كلها . ومن هنا فهي رائدة الاعتقاد بالفكر الغيبي التأويلي ، زاعمة أن امامها (ابن الحنفية) لم يميت⁽¹⁾ وانه « المهدي المنتظر »⁽²⁾ .

وكانت « الكيسانية »⁽³⁾ التي يتسبب اليها المختار بن أبي عبيد الثقفي ، قد اتخذت انطلاقتها من العراق لا سيما الكوفة . ووجدت سبيلها الى استقطاب الجماهير الشيعية عن طريق المغالاة بشخصية الامام ، وان طاعته هي طاعة للقانون الالهي⁽⁴⁾ . وقد نجحت هذه الطروحات بعض الوقت في التأثير على الكوفة ، ولكن الفشل الذريع أصابها ، مع فشل المختار في الاحتفاظ بزعامه الشيعة في المدينة ، بعد ان تخلت عنه وتركته لمصيره مع حفنة قليلة من اصحابه⁽⁵⁾ .

ولعل (فلوتن) تنقصه الدقة في البحث عن جذور هذه الاتجاهات الجديدة في الاسلام ، والتي كانت برأيه ذات اصول فارسية ، كما انها احدى محصلات العلاقة المتشعبة بين الدولة وبين الذين وجدوا في هذا الدين حلولاً لمشاكلهم المزمنة . ولان عقوبة الموت تنتظر المرتدين منهم ، حسب قوله ، فقد لجأوا الى البحث عن ضالته في عقائد « توفيقية » ، كانت نواة ما ظهر

(1) الشهرستاني ، الملل ج 1 ص 147 . مونتغمري وات ، الفكر السليبي في الاسلام ص 66

(2) محمد جواد مغنية ، الشيعة والشيعة ص 32 .

(3) سميت بالكيسانية نسبة الى ابي عمرو كيسان ، قائد حرس المختار بن ابي عبيد الثقفي . وقد قال آخر .

انه مولى الامام علي . الشهرستاني ، الملل والنحل ج 1 ص 147 .

(4) Vloten P. 42 .

(5) عن المختار راجع بحثنا « الاتجاه الواقعي في الشيعة » مجلة العرفان للمجلد الواحد والسبعون ، العدد السابع - أيلول 1982 : ص 45 وما بعدها .

من مذاهب جديدة ذات جنوح خرافي أو غيبي أو تأويلي ^(١) . ولكننا نعتقد خلافاً لهذا التصور بأن العودة الى البحث عن الجذور الفارسية ، للتعويض عن العقائد والفروض التي لم ترق لكثيرين من الموالي ^(٢) ، أمر يشوبه الارتياب وذلك في وقت كان لا يزال مبكراً أمام هذه الاختيارات الصعبة والحاسمة . أما التأويل ، الذي تطور من الكيسانية الى الاسماعيلية ، فبات من ابرز عقائدها الخاصة ، فلم يكن مصدره سرى الخوف من السلطه والابتعاد عن ملاحقتها ، عبر اسلوب قضائي تكتفه السريه المطلقة . وكان ذلك نواة الفكر السياسي الجديد الذي طرأ على الشيعة بمختلف فرقها ، الذي تطور في النهاية الى « المهدي » .

اما بقية الحركات التي يتحدث عنها (فلوتن) ، كنموذج لهذا الخلط من الافكار والعقائد الفارسية ؟ فلم تكشف عن نفسها الا في وقت متأخر ، اي بعد سقوط الدولة الاموية . ولان التشيع كظاهرة سياسية بمضمونه الرامي الى معارضة « السلطة الجائرة » ، عبر ثورة اصلاحية ، فقد ارتبطت باسمه بعض الحركات والتيارات ذات الاتجاه الشعبي في الغالب ، دون ان يكون بينهما صلة ما على المستوى الفكري والايديولوجي .

ان « الحزب » الشيعي الذي فشل عبر محاولات عديدة في استلام الحكم ، كان عرضة - كأى حزب في هذا الموقع - للانقسام ولظهور اتجاهات متطرفة ، ربما بحلة اكثر ازاء « الحزب » الذي انشقت عنه . وكان موقف الاثمة - زعماء الحزب - رافضاً ^(٣) لأي نوع من المغالاة والافكار المستوردة ،

معين التاريخ
لاهل التاريخ

(1) Vloten P. 42-43

(2) Vloten P. 43

(3) Vloten P. 43-53

حتى أن هذه الواقعية (١) التي التزموا بها في تلك المرحلة، عادت عليهم فيما بعد بالضرر الكبير، وذلك مع ظهور تيار ثوري انفصالي، أدى الى ما يمكن أن نسميه بالمحنة الكبرى او محنة الحزب، التي اسفرت عن انشقاق الفرقة الاسماعيلية. كما وجد هنالك من استغل هذه الدعوة الى التطرف والترويج لها، كالحركة الكيسانية - التي اتخذت مسرحها أولاً في الكوفة وانتقلت منها الى خراسان - أول فرقة شيعية تنحى في سلوكها هذا الاتجاه الغلوائي.

ولم يكن محمد بن الحنفية على الأرجح مؤسس هذه الدعوة، حيث كانت عدة اعتبارات تحول دون أي دور قيادي له في تلك الظروف. ولكن يبدو أنها استغلت اسمه (٢) لتغطية نشاطها السياسي وتسويغ شرعيتها، عبر مظلة «علوية» لا بد منها (٣). أما زعيمها الحقيقي الذي انتسبت اليه وحملت اسمه، فهو ابنه عبد الله الملقب بأبي هاشم، حيث عرفت أحياناً بالهاشمية تيمناً به. وقد وُصف هذا الأخير بأنه رجل طموح، متقن للعمل السري، وقد ارتبط بعلاقات حميمة مع البيت الأموي حتى مقتله بتدبير من سليمان بن عبد الملك (٤).

غير أن الكيسانية لم تعش بعد أبي هاشم، الذي اوصى بالامامة، دون

(١) ابراهيم بيضون، الاتجاه الواقعي في التشيع. مجلة العرفان للمجلد الواحد والسبعون عدده 5 (1982) ص 74 وما بعدها.

(٢) لقد انكر محمد بن الحنفية ما نسب اليه من احاطة بالغيبات وعلوم ما وراء الطبيعة كما أنكر علاقته بالاختار وتبرأ منه حسب الشهرستاني، الملل ج 1 ص 149. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية 109-110.

(٣) تعتقد جماعة الكيسانية بأن ابن الحنفية لم يميت وإنما اختفى في مكان مجهول وسيظهر ليملا الأرض قسماً وعدلاً. الشهرستاني، الملل ج 1 ص 147. محمد جواد مغنية، الشيعة والتشيع ص 32.

(٤) قال اتباعه أن الاملة انتقلت اليه بعد وفاة ابيه محمد بن الحنفية ومعها اسرار العلوم. الشهرستاني ج 1 ص 170.

الدعوة ، لبني العباس ، حسب ما أوردته المصادر التاريخية (١) ، حيث كانت هؤلاء دعوتهم الخاصة بتنظيمها المتطور وافكارها الواقعية . ومن الفرق الشيعية التي انقرضت ، (الناووسية) جماعة عبد الله بن ناووس الذي اعتقد بالائمة الستة الاوائل . . أي أنهم توقفوا عند جعفر الصادق « المهدي المنتظر » حسب زعمهم (٢) ثم (الشمطية) نسبة الى يحيى بن ابي الشمط ، وكانت تعتقد بأمامة محمد بن جعفر (٣) ، وترى وجوب الثورة على الحاكم الجائر شأن الزيدية . و (الفطحية) أو (الأفطحية) ، التي اعتقدت بأمامة عبد الله الافطح ، من ابناء الصادق (٤) . واخيراً (الواقفية) أو الثمنية ، لاعتقادها بثمانية أئمة ، آخرهم (الرضا) وهو المهدي المنتظر (٥) .

وهذه الفرق انقرضت جميعها وطواها النسيان ، بينما استمرت فرق اخرى في طبيعتها الاثنا عشرية أو الامامية ، وهي التي تمثل من حيث المبدأ شرعية الحزب الشيعي ، وتحمل مضمون استمراريته . ولقد حافظت على وحدتها وانسجامها ، خلافاً للزيدية (جماعة زيد بن علي) التي حصرت الامامة في ابناء علي من فاطمة شأن الاثنى عشرية ، ولكنها اختلفت معها في شروط الامام الذي ينبغي أن يرقى إلى مرتبة عالية من الزهد والعلم

(1) النوبختي ، كتاب فرق الشيعة ص 27 .

(2) الشهرستاني ج 1 ص 166 . محمد جواد مغنية ، الشيعة والتشيع ص 33 . هاشم معروف ، عقيدة الشيعة الاثنى عشرية ص 239-240 .

(3) الشهرستاني ج 1 ص 167 .

(4) للكان نفسه ج 1 ص 167 .

(5) البقرية ، أو الجعفرية الواقعة . المصدر نفسه ج 1 ص 165 . هاشم معروف ، عقيدة الشيعة الاثنى عشرية ص 241 . محمد جواد مغنية ، الشيعة والتشيع ص 33-34 .

والشجاعة ، وليس فرضاً أن يكون معصوماً وأفضل أهل زمانه (١) . وقد توزعت الزيدية إلى ثلاث فرق : الجارودية والسليمانية والبتيرية (٢) لكل منها اجتهادها في النص والوصية والامامة والشورى (٣) . أما الاسماعيلية التي اعتقدت بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، فكانت تمثل الاتجاه الشوري المنشق عن « الحزب » الشيعي ، وذلك عبر وسائل وممارسات شديدة التكم والسرية . وقد ذهبت الاسماعيلية مذاهب شتى في معتقداتها وفي طرحها لمسألة الامامة ، بحيث تسربت اليها أفكار فلسفية غير عربية ، كان لها تأثيرها الجذري في ظهور تيارات مختلفة ومتشاحنة ، ولكنها التقت عند قاسم مشترك هو التطرف في العمل السياسي ، بحدود متفاوتة بين تيار وآخر (٤) . وما يستوقفنا أخيراً في هذه الدراسة لظاهرة التشيع ، بفرقه البائدة والحاضرة ، انها كانت معاصرة لعهد المنصور العباسي والامام الصادق ، حيث أثارت خلافة الأول جدلاً انتهى الى تفجير الازمة الموقوتة . ولقد اشد حينذاك الضغط على تحركات الحزب الشيعي وصفي الكثيرون من زعمائه ، وهو ما أسميناه بمحنة الحزب . وثمة وحدة ايديولوجية التقت عندها هذه الفرق الشيعية بتياراتها المتعددة ، وهي الايمان بـ « المهدي المنتظر » الذي بدا حينذاك وكأنه الامل الأخير ، والرمز النضالي المستمر . . وهي جميعها ايضاً ذات خلفيات سياسية ، قاسمها المشترك التغيير والثورة ، بحدود متفاوتة في الاسلوب والممارسة والتعبير .

(١) « جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالامعة ، أن يكون إماماً واجب الطاعة ، سواء كان من اولاد الحسن أو من اولاد الحسين . . » الشهرستاني ، الملل ج ١ ص ١٥٤-١٥٥ .
عمن الامين ، اعيان الشيعة ج ١ ص ١٣ .

(٢) الشهرستاني ، الملل ج ١ ص ١٥٧

(٣) محمد جواد مغنية ، الشيعة والتشيع ص ٣٤-٣٥

(٤) الشهرستاني ، الملل ج ١ ص ١٩٢ .

خلفية النظرية المهدية

استهوت عقيدة « المهدي » فان فلوتن مثل الكثيرين من الكتاب الغربيين ، الذين استرعى انتباههم ما كان لهذه الأفكار من تأثير على حياة الشرق حتى اليوم⁽¹⁾ . ولعلمهم وجدوا فيها شيئاً من ملامح هذه المنطقة ، كما هي في ذاكرة الاوروبي ، خزاناً للأساطير والغموض والاسرار⁽²⁾ . ولكن الملفت للنظر أن يرى هؤلاء المستشرقون ، ومنهم (فلوتن) ، ان فكرة « المهدي » انتقلت الى المسلمين بتأثير خاص من الفكر اليهودي⁽³⁾ . وهي موصولة كنظرية ، بجذور خارجة عن البيئة الاسلامية من ناحية ، وكمارسة كان دافعها اسقاط النظام السياسي القائم من ناحية أخرى .

واذا كان الجانب العملي للمهدية ، بدوافعه الموضوعية المختلفة ، يبدو لنا كأحدى المسلمات في زمن تفشى فيه هذا النوع من الفكر السياسي الرومانسي ، فان الجانب التنظيري قد لا تتفق فيه مع الطرح الاستشراقي السالف ، الذي يلغي دور البيئة والظروف الخاصة في ظهور هذه الفكرة .

(1) فلهورن ، الخولج والشيعة ص 166 . دي غوية ، القرلمطة ص 32 ، Vloten P. 54 .

(2) مكسيم رودنسون ، مجلة الطليمة ص 72 . القاهرة . 1970 .

(3) Vloten P. 57, 58

إلسنا هنا في معرض النفي القاطع لاي اقتباس قد يكون وارداً ، عن نظرية « المخلص » اليهودي (Messie) ، الذي سيخرج من قبيلة هوذاً أو يهوذا ، حسب ما ورد في سفر التكوين^(١) . فللؤثرات الحضارية تخترق الحواجز مهما ارتفعت ، وليس ما يحول دون غزوها للمجتمعات حتى المغلقة . ولكننا اذا سلمنا في الوقت نفسه بأن « المهدي » موصوله بالتنبؤات اليومية التي اهتم بها الانسان العادي ، اهتمام رجالات الدولة الكبار ، فلا بد من البحث عن أصول عربية مستقلة لهذه الظاهرة ، خاصة وأنها كنظرية ، تحررت من طابعها اليهودي ، وعاشت في وجدان عدد غير قليل من شعوب ومجتمعات العالم الوسيط ، متاقلمة مع تقاليدها وشخصياتها الحضارية .

ومن الواضح ان المجتمع العربي قبل الاسلام ، كان له « تراثه الغيبي » الخاص ، حيث أن « حكومة العشرة » الوثنية في مكة - إذا جاز التعبير - كانت تضم بين أركانها مسؤلاً لا يستطلع الغيب ويتولى ما يعرف بـ « الايسار »^(٢) . وعلى الرغم من محاربة الاسلام لكل هذه المظاهر غير العقلانية ، فإن الغيبيات لم تعدل متحمسين لها أو على الاقل الاعتقاد بجانب منها ، يصب في حياة الانسان اليومية كالطير والشؤم والقال . . . وسرت هذه الظاهرة حتى لامست حياة الكبار من خلفاء وأمرء ، حيث كان يطيب لبعضهم استكشاف المستقبل ، في وقت كانت الدولة بكافة مؤسساتها مرتبطة بقرار رجل واحد وخاضعة أحياناً لمزاجه . وفي مصادر التاريخ الاسلامي امثلة عديدة ، تكشف ما لهذه الظاهرة من تأثير على عقول بعض رجالات الحكم في الدولة الاموية . ويروي لنا الطبري في هذا السبيل ، الازمة التي

(1) الاصحاح الثالث الآية 14-15 . فان فلوتن ، السيادة العربية ص 109 (الترجمة العربية القديمة) .

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج 3 ص 236 .

انفجرت بين الحجاج بن يوسف وبين عامل خراسان يزيد بن المهلب ، بسبب نبؤة اسرها للاول عالم بالغيب ، من ان رجلاً اسمه يزيد سيخلفه على العراق (1) .

ان الشعوب تغمرها احياناً حالات من اليأس ، تنهار معها الامال بالتغيير أو تحقيق الذات . فتبحث عن حلول متشابهة المضمون ولكنها مختلفة الشكل ، الذي تنعكس عليه عادة البيئة وتترك بصماتها عليه (تدجين المسيح الدجال في الروايات العربية) (2) . فالاضطهاد الذي عاناه اليهود في التاريخ القديم ، كان دافعهم الى التفكير بالمنقذ في غمرة اليأس وسقوط الحلم . والصورة نفسها تتكرر ، ولكن باشكال مختلفة لدى شعوب أخرى مهزومة بالقضية أو بالامل ، دون ان تكون بالضرورة من الشرق (3) .

ولم تكن فكرة « المهدي » المنقذ ، من ابتكار الشيعة في المشرق . فغالباً ما تداولها الثوار على الحكم الاموي ، لاضفاء مسحة عقائدية على حركاتهم ازاء سلطة دنيوية الطابع ، كان من أبرز نقاط ضعفها ان القائمين عليها لم يكونوا من رواد الاسلام التاريخيين . واذا كان المختار الثقفي ، قد لقب نفسه بـ « أمين المهدي » كونه نائباً للامام الذي يفترض انه « المهدي » (4) ، فان الحارث بن سريج أحد قادة الامويين في خراسان ، كان اكثر جرأة بالتخاذ هذا

(1) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 42 .

(2) Vloten P: 59-60 .

(3) يقول ستانلي لين بول Stanley Lane-Poole في كتابه « العرب في اسبانيا » : ان الاسبان رفضوا هزيمة ملكهم روزريق على يد العرب وخلقوا عليه صفات للنقذ المخلص ، كما فعل الانجليز بالملك آرثر ، فاعتقلوا انه سيمود مرة أخرى من مقره في احدى جزر المحيط ، بريثاً من جراحه ليقود النصرارى قتالاً للحلطين . ص 19-20 .

(4) البلاذري ، انساب الاشراف ج 5 ص 223 .

اللقب لنفسه ، وذلك من موقع تمثيله ، كمنفذ للمضطهدين في بلاد ما وراء النهر سواء من العرب أو الفرس أو الأتراك⁽¹⁾ وما لبثت شخصية «المهدي» في وقت ما ، أن لبست من هم في السلطة والمعارضة على السواء . فالخليفة العباسي الاول أعلن أنه «المهدي» ، الذي تحقق الخلاص من الأمويين على يديه ، بينما وصل استغلال الخليفة الثاني (المنصور) لها ، الى حد تلقيب وبي عهده بهذا الاسم⁽²⁾ . اما الأمويون فكان لهم « منقذهم » الذي عرف بـ « السفيناني »⁽³⁾ . وربما كان اتخاذ هذا الاسم دون « المرواني » ، له علاقة بالرمز الذي يمثل السفينانيون كمؤسسين للدولة الأموية ، خلافاً للمروانيين الذين اضاعوها . ويعتقد (فلوتن) بأن فكرة « السفيناني » ظهرت قبل سقوط هذه الدولة ، هادفة الى استعادة الفرع المؤسس حقه في السلطة⁽⁴⁾ . ولقد غزت هذه الفكرة بعض القبائل ، التي كانت تطمح الى دور سياسي في مجتمع متمزق الاوصال ، لتضاف الى قيمها ورموزها التاريخية . . فيكون هنالك « القحطاني المنتظر » و « التميمي المنتظر » الى آخر ذلك⁽⁵⁾ .

اما « المهدي » كنظرية شيعية ، فكانت الأكثر تطوراً في المجتمعات الشرقية ، حيث كانت نتاج معاناة قاسية ونضال سياسي مرير . فقد كان الحزب الشيعي من موقعه الطليعي في المعارضة ، هدف السلطة الأموية ملاحقة وتصفية واضطهاداً ، كما كان هدف تأمر الجناح العباسي في الحزب ، الذي استأثر بالخلافة وكان اشد ضغطاً من الأمويين على الشيعة ورصد تحركاتهم . وكان ذلك بداية انقراط العقد ، بخروج العباسيين الى موقع

(1) الطبري ج 8 ص 228 .

(2) غنار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ص 33 .

(3) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ج 1 ص 137-138 .

(4) Vloten P. 61 .

(5) O. P. Cit .

السلطة ، واستلام الجناح « الحسيني » قيادة الصراع المسلح ضد الحكم الجديد . واستمرت هذه الظاهرة الانفصالية ، بخروج الاسماعيليين من الحزب عبر حركة شبه انقلابية ، رافضة مبدأ التحول في موقفه من الثورة الى المهادنة . وهي تمثل في الجوهر انقساماً بين تيارين تجاذبا الشيعة في ذلك الوقت ، أحدهما متطرف والآخر معتدل . ويبدو أن اسما عيل - مؤسس هذه الحركة - قد أبعد عن الامامة بسبب نهجه الثوري الذي اكتسبه من معاشته للعناصر المتطرفة كما يرى (برنارد لويس) (1) .

يبد أن غياب الجناح الثوري - اذا صح التعبير - عن « الحزب » الشيعي الرئيسي ، لم يمنع عنه الملاحقة العباسية ، حيث كان مصدر الخطر الحقيقي والمنافسة الجديدة (2) . ولقد عاش هؤلاء منذ عهد المنصور في ظل ما يشبه الإقامة الجبرية ، وقضى بعضهم في ظروف يحيط بها الارتباك (3) . وكان ذلك من دوافع هذا التطور ، الذي طرأ على سلوك الحزب الشيعي باتجاه الاعتدال . على أنه لا ينبغي تجاهل ما تركه المنشقون من تأثير على هذا السلوك ، بطريقتهم المبتكرة في السرية ومعها احتجاب الامام ، الذي احتفظ

(1) الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص 40 .

(2) ذكر العلامة السيد محسن الأمين في « رحلاته » عن سامراء ، « ان فيها قبر الامام علي بن محمد المهدي وابنه الحسن بن علي العسكري عليهما السلام ، كان قد استدعاهما ملوك بني العباس اليها واجبراهما على الإقامة فيها خوفاً منهما ان يتنازعهم في الخلافة ، لاعتقاد جميع الناس بلامنتها وميل جميع الناس اليها » . ويذكر أيضاً « ان فيها السرداب المسمى سرداب الغيبة ، وهو سرداب الدار التي سكنها العسكريان عليهما السلام . وذلك ان اتخذا السرايب في الدور أمر متعارف في العراق يأوي اليها الناس وقت الظهيرة توقياً من الحر » . الى ان يقول « ومن زعم ان الشيعة تقول بوجود الامام الثاني عشر في السرداب وغيابه فيه ، فقد أخطأ ، وانما يتركون بهذا المكان من باب التبرك بأثر الصالحين » .

رحلات السيد محسن الأمين ص 127-128 .

(3) الاصفهاني ، مقاتل الطالبين ص 336-380 .

بعزلته حتى اعلان الخلافة الفاطمية ، أحد افرازات الجناح الاسماعيلي ،
وذلك بزعامة أبي عبيد الله الملقب من دون مصادفة أيضاً بـ « المهدي » .

وهكذا نمت « المهديّة » مع خيبة الأمل في اصلاح النظام الأموي ،
وتبلورت كعقيدة في غمرة اليأس الذي استبد بالحزب الشيعي ، بعيد
استيلاء العباسيين على الخلافة . وفي تلك الأثناء كان « الحزب » أمام
اختيارين ، إما حلّ نفسه في أعقاب الفشل الذي أصاب مشاريعه في استلام
الحكم ، وإما إعادة تنظيمه بما يتلاءم والظروف المستجدة ، التي قضت
باستخدام أوراق غير مكشوفة في نضاله ضد السلطة . ولذلك اتخذت
« المهديّة » الشيعية (الإمامية) ، حجماً متميزاً عن الحركات السياسية
الأخرى ، بحيث اقترنت بالإمام محمد بن الحسن (المهدي المنتظر) ، أول
الغائبين من الأئمة . فكان عهده بداية منعطف في تاريخ « الحزب » ،
متجسدة فيه فكرة الانقاذ والخلاص . ومن هذا المنطلق وحده ، كرمز يمثل
الانتصار على الظلم وتحقيق النظام العادل ، سيعود « المنقذ » ، ذلك القائد
الفدّ الذي سيصنع بعودته التاريخ ، حاملاً اسم « المهدي المنتظر » .

المهدية وسقوط الدولة الأموية

هل كان للمهدية علاقة بسقوط الخلافة الأموية ؟ هذا السؤال يطرحه (فلوتن) في نطاق التعرض لهذه المسألة ودورها في شحن العواطف ضد السلطة . وهو يعتقد أن ثمة مقدمات أو تنبؤات أخذت في الانتشار ، واعدة بالخلاص الآتي من الشرق على يد الرجل ذي الاعلام السوداء (١) . ولا ندرى إذا كانت هذه النبوءة سابقة على قيام الثورة العباسية ، أم أنها انتشرت بعد ذلك لتحيطها بهالة من القداسة والروحانية . ولم يكن هذا الرجل سوى أبي مسلم الخراساني ، الذي سيصبح بعد مقتله أحد الرموز الوطنية للجماهير خراسان ، التي نادى به أماماً وانتظرت منتقداً ليملاً الأرض عدلاً ورحمة (٢) .

وكان (الموالى) في الحقيقة عصب الثورة العباسية ، التي اختارت خراسان نقطة انطلاقها في الحرب المسلحة ضد الأمويين . ولقد شاعت السلطة الأموية ، بتناقضاتها القبلية المستفحلة ، أن تقدم خدمة جليلة لقائد الثورة الذي استثمر هذا التناقض ، لتوسيع دائرة نفوذه في أوساط القبائل ، الناقمة على السلطة « القيسية » ، المتمثلة بنصر بن سيار آخر الولاة الأمويين في

(1) انظر P. 63 . Vloten .

(2) زعم بعض الفرس أنه « إشيربلي » Ochederbami أحد أحفاد زرادشت . P. 68 . Vloten .
راجع كذلك مختار العبادي ، في التلخيص العباسي والاندلسي ص 49-50 .

خراسان . وعلى الرغم من أهمية العامل الجغرافي ، الذي قدم الأرضية الملائمة والظروف المثالية للتحرك ، إلا أن الدور المؤثر في تحقيق أي انتصار عسكري ، ارتهن لهذه التحالفات العربية . فكان من العسير جداً إقناع القبائل ، حتى المبادية للأمويين ، باتخاذ مبادرات من هذا النوع ، دون حساب ما تحققه من وراء هذا التحالف ، من مكاسب سياسية ، وإضعاف لخصومها التقليديين . ذلك أن موقف الزعماء القبليين ، لم تكن له سوى خلفية الصراع على السلطة ، خلافاً للعرب المنتشرين في قرى ومزارع خراسان ، الذين كانوا خارج دائرة هذا التطاحن المأساوي . فقد أعلن هؤلاء موقفهم المؤيد لدعوة أبي مسلم ، بالحماسة نفسها التي حركت جماهير (الموالي) ، وانطلاقاً من المصلحة المشتركة لكل من الطرفين (١) .

وهكذا فإن تقويم الموقف العربي في خراسان ، من خلال موقف زعماء القبائل في (مرو) ، يحتاج إلى شيء من المراجعة في توزيع القوى السياسية ، ليس في العاصمة وحدها ولكن في كافة المنطقة الخراسانية . ولذلك فإن مقولة (فلوتن) المعروفة ، « بأن العرب كانت تنقصهم العاطفة الوطنية » (٢) ، تحتاج بدورها إلى إعادة نظر ، حيث المسألة لم تكن مطروحة في هذا الاتجاه ، ولم تشهد الساحة الخراسانية آنذاك هذا القفز بين تيار وطني وآخر شعوبي . كذلك فهي لا تعبّر عن واقع الحال ، إزاء نظام قام في ظروف غير طبيعية وانتهج منذ البدء سياسة قسرية ، أعتقد عن سوء تقدير ، أنها السبيل الأجدى ، إلى صد الأخطار عنه ، بينما أدت في الواقع إلى بعث التعصب القبلي ، الذي كان مصدر الخطر الحقيقي والمرض الذي فتك به

(١) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ج ١ ص ٤٣ .

(٢) Vloten P. 60 .

أخيراً . فقد كان الالتزام بالقبيلة وبموقفها ، هو الذي يحدد أية علاقة بين الدولة وبين جماهيرها التي افتقدت احساس المواطنة ، وذلك بعد فشل الأولى في تحقيق التوازن بين الأطراف القبلية التي اعتمدت عليها ، وأصبحت مرتبهة لمواقفها المتقلبة . وهذا ما يجيب عليه (فلوتن) بقوله ، أن أحداً لم يكن يعنيه سوى مصلحته الخاصة ، وتحديدأ مصلحة القبيلة التي ينتمي إليها⁽¹⁾ .

غير أن (فلوتن) يبدو مغالياً إلى حد ما ، ومنسجماً مع خلفيته الرومانسية ، حين يرى أن الثورة العباسية وكأنها من صنع الرجل « الخارق » أبي مسلم⁽²⁾ وجماهيره من (الموالي) ، التي أخذت الاسلام الحقيقي على يديه ، بعد أن كانت لا تعرف منه سوى دفع الجزية⁽³⁾ . وهذا الاستنتاج أنما يقودنا للحكم على تلك الجماهير بالتضليل ، وبأنها كانت تدفع من دمها ثمن سعادة الحكام العرب . وغني عن القول أن الثورة كانت تعني (الموالي) بقدر ما كانت تعني العرب ، وكانت مقدماتها واضحة في ذلك التيار الاصلاحى الذي بدأه الخليفة المتنور عمر بن عبد العزيز ، ورسخ مفاهيمه الحارث بن سريج في خراسان . وكان من نتائجه أن المساواة لم تعد مطلباً شعوبياً كما يعتقد (فلوتن) وغيره من المستشرقين ، وإنما كان مطلباً اجتماعياً لجميع الفئات المنضوية في اطار الاسلام ، وهي متشابكة المصالح والعلاقات الى درجة يصعب التمييز بين عناصرها الفارسية او العربية⁽⁴⁾ .

ومع اغترافنا بأهمية المشاركة الفارسية في الثورة ، وبوجاهة المسوغات

Vloten P. 66 . (1)

O. P. Cit P. 67 . (2)

O. P. Cit P. 67 . (3)

(4) فلروق عمر ، العباسيون الاوائل ج 1 ص 44 .

التي فجرت الموقف ضد الامويين ، الا ان (الموالي) كانوا غير قادرين على شغل هذا الدور بصورة طليعية ومتميزة . ذلك أننا لا نستطيع اغفال الدور الكبير الذي قام به العرب في التمهيد لهذه الثورة قبل عشرات السنين . واذا كان قادتها قد استفادوا من صراعات القبائل المتفجرة ، الا انهم استندوا عملياً الى ذلك التيار الاصلاحى ، المتحرر من الحماسيات العنصرية والقبلية . وبعبارة أخرى فإن الدعوة الى الثورة انبثقت من نفوس المضطهدين العرب والمسحوقين الفرس ، ليجمع بينهم تيار اسلامي موحد بقيمة ودعوته الى المساواة والحياة الكريمة .

ومهما اختلف تقويمنا عن (فلوتن) فإننا نتفق معه ، بأن النظام العباسي كان البديل الاسوأ لاولئك الذين اجتذبتهم شعارات الثورة الجوفاء . فكانت الوسائل التي استعملت في ملاحقة ، حتى المشتبه بهم ، من الضراوة ، بحيث أنها تفوقت على أساليب النظام السابق . وكان العلويون - حلفاء الامس - اكثر الفئات تضرراً ، ونال زعماءهم الكثير من الاضطهاد والتصفية . وكان ذلك بداية الافتراق ، ليس فقط بين الشيعة العلوية والعهد الجديد ، ولكن بينها وبين سياسة أثبتت فشلها ، وبات من الضروري إعادة النظر في المواقف السابقة ، ومن ثم تقويم جديد لمرحلة مصيرية أخرى من تاريخ الشيعة .

المصادر والمراجع

مصادر

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي (ت 630 هـ)
- الكامل في التاريخ - المطبعة الأزهرية - القاهرة 131 هـ
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت 808 هـ)
- المقدمة ، المطبعة البهية ، القاهرة - د. ت .
- ابن رجب ، أبو الفرج بن عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت 795 هـ)
- الاستخراج في أحكام الخراج . تحقيق عبد الله الصديق ، بيروت - د. ت .
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328 هـ)
- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان . المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة 1943
- أبو عبيد ، القاسم بن سلام (ت 223 هـ)
- كتاب الأموال . تحقيق محمد خليل هراس . مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة 1962
- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ)
- كتاب الخراج - المطبعة السلفية ، القاهرة 1396 هـ

الأصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت 356 هـ)
- مقاتل الطالبين - المكتبة الحيدرية - النجف 1385 هـ

البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر (ت 429 هـ)
- الفرق بين الفرق ، دار الآفاق الجديدة - بيروت 1980

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ)
- أنساب الأشراف . تحقيق محمد حميد الله . دار المعارف بمصر -

1959

- فتوح البلدان . تحقيق رضوان محمد رضوان - القاهرة 1959
الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت 584 هـ)
- الملل والنحل . تحقيق محمد سيد كيلاني . دار المعرفة - بيروت

1975

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ)
- تاريخ الأمم والملوك . مكتبة خياط - بيروت د.ت.
المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346 هـ)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق يوسف أسعد داغر . دار
الأندلس . بيروت 1973

النوبختي ، أبو محمد الحسن بن موسى (ت 210 هـ) .
- كتاب فرق الشيعة . النجف 1355 هـ

اليقوي ، أحمد بن يعقوب (ت 284 هـ)
- تاريخ اليعقوبي . دار صادر . بيروت 1960

مراجع

الأمين ، حسن

- دائرة المعارف الاسلامية الشيعية .

دار التعارف - بيروت . د . ت .

الأمين ، محسن

- أعيان الشيعة ج 1 ، طبعة بيروت د.ت.

- رحلات السيد محسن الأمين . دار الغدير ، بيروت . د.ت.

بيضون ، ابراهيم

- التوابون ، الطبعة الثانية ، دار التعارف . بيروت 1978

- الحجاز والدولة الاسلامية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

بيروت 1983

- ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري . دار النهضة

العربية . بيروت 1979

- الاتجاه الواقعي في التشيع (ابن الاشر) . مجلة العرفان مجلد 71 -

عدد 7 - 1983

الحصني ، محمد أديب آل تقي الدين

- كتاب منتخبات التواريخ لدمشق . تقديم كمال صليبي ، دار الآفاق

الجديدة - بيروت 1979

دي خويه ، ميكال يان

- القرامطة . ترجمة وتحقيق حسني زينة

دار ابن خلدون . بيروت 1978

شعبان ، محمد عبد الحي

- صدر الاسلام والدولة الأموية .

الأهلية للنشر . بيروت 1983

شمس الدين ، محمد مهدي

- ثورة الحسين ، ظروفها الاجتماعية وآثارها الانسانية

دار التراث الاسلامي . بيروت 1974

العبادي ، أحمد مختار

- في التاريخ العباسي والأندلسي

دار النهضة العربية . بيروت 1972

العسكري ، مرتضى

- عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى

النجف 1972

عمارة ، محمد

- المعتزلة والثورة . المؤسسة العربية للدراسات . بيروت 1977

- الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية . المؤسسة العربية 1977

عمر ، فاروق

- طبيعة الدعوة العباسية

دار الارشاد . بيروت 1970

- العباسيون الأوائل . دار الارشاد . بيروت د.ت .

لواساني ، أحمد

- نظرات في تاريخ الأدب . بيروت 1971

لويس ، برنارد

- الدعوة الاسماعيلية الجديدة

ترجمة سهيل زكار . دار الفكر . بيروت 1971

لين بول ، ستانلي

- العرب في اسبانيا . ترجمة علي الجارم . دار المعارف . القاهرة 1963

معروف ، هاشم
 - عقيدة الشيعة الاثني عشرية
 دار الكتاب اللبناني . بيروت 1956
 مغنية ، محمد جواد
 - الشيعة والتشيع . دار الكتاب اللبناني . بيروت د.ت .
 وات ، مونتغمري
 - الفكر السياسي في الاسلام
 دار الحداثة . بيروت 1981
 ولهوزن ، يوليوس
 - الحوار والشيعة . ترجمة عبد الرحمن بدوي ، الكويت 1978

- Beydun . -

- Elements d'Analyse de L'Irrédentisme Iraquien sous les
 Omayyades. Grénoble 1971.

Cahen. C

Mouvement Populaire et Autonomisme Urbain dans L'Asie
 Musulmane de Moyen Age. Paris 1958.

Goldziher. I.

- Le Dogme et la loi de L'Islam. Paris 1920

Lambard. M -L'Islam dans sa premiere Grandeur. Paris 1971

Perier. J

- Vie d'Al- Hadjadj Ibn Yousof. Paris 1904.

Van Vloten. G

- Recherches sur la Domination Arabe, Le chiitisme et les

croyances Méssianiques sous le khalifa des Omayyades.
Paris 1895.

Massé. H

- L'Islam Ed., Librairie Armand colin. Paris.

ابحاث
في
السيطرة العربية

والتشيع والمعتقدات « المهلوية »
في ظل خلافة بني أموية

تأليف
ج . فان فلوتن

ترجمة
الدكتور ابراهيم بيضون

RECHERCHES

Sur

**La Domination arabe, Le Chiitisme
et les Croyances messianiques Sous
le Khalifat des Omayyades.**

Par

G., VAN VLOTEN

**Verhandelingen der Koninklijke Akademie van Wetenschappen te
Amsterdam.**

AFDEELING LETTERKUNDE.

Deel I. N. 3.

**AMSTERDAM,
JOHANNES MULLER.**

1894.

مقدمة المترجم

ظل هذا الكتاب ، الصادر في اواخر القرن الماضي باللغة الفرنسية ، واحداً من الابحاث الرصينة والبارزة في الحقل الاستراتيجي ، وكذلك واحداً من اهم مراجع ما يسميه بالتشيع الخراساني والاتجاهات السياسية المعارضة لدولة بني أمية . وكانت وسيلته الى القارئ العربي ، تلك الترجمة التي ظهرت في الثلاثينيات من هذا القرن . هذه المحاولة الجريئة التي لا بد من التنويه بالجهد الواضح فيها ، والتي لا تجارها سوى جراءة المؤلف في اختيار الفرنسية لغة كتابه ، حيث يعترف بانه لم يكن على الملم شامل بها . ولقد تجلّى ذلك في استخدامه العبارات المطولة ، خلافاً لتقاليد هذه اللغة ، في محاولة تبدو احياناً عقيمة للتعبير عن افكاره بصورة مرضية . وهذا ما كان يؤدي غالباً الى اضطراب العبارة وغموضها ، وربما تناقضها مع الهدف الذي توخت الافصاح عنه .

ولم تستطع الترجمة العربية لاعتبارات ما ، ان تصدى لهذه المشكلة الا بالمزيد من التصرف بالنص والتجاوز المتكرر لمواقع الالتباس والغموض وهي كثيرة ، مما يضع القارئ امام التساؤل ، اذا كان هذا الكتاب موضوعاً في الاصل بهذه اللغة ؟ .

Voir l'introduction (1)

وكانت اعادة ترجمة هذا الكتاب ، فكرة تراودني كلما عدت اليه في الطبعتين الأصلية والمترجمة . وصرعان ما اخذت هذه الفكرة طريقها الى التنفيذ ، عندما طلبت اليّ « دار الحداثة » وضع دراسة للكتاب ، بغية اصداره في طبعة جديدة . واذا كان ما نالني من المصاعب في محاولة استيعاب ما ناء به اسلوب المؤلف ، الذي كان واضحاً انه كتب أبحاثه من خلفية سياسية معروفة ، فحسبي انني كنت اميناً على النص ، من دون ان يؤثر ذلك على سلامة المعنى او يقلل من حداثة الاسلوب ، حيث حرصت ما امكن على اختزال المسافة بين الكتاب وبين قاريء هذا العصر .

د . ابراهيم بيضون

بيروت في 22 / 1 / 1980

مقدمة المؤلف

هذه الدراسة في تطور الحزب العباسي ، تطمح الى وضع القاريء امام تقويم جديد للدوافع السياسية والدينية التي ادت الى سقوط الاسرة الاموية الحاكمة . ذلك انه لا يسعنا سوى الاعتراف بأن هذا السقوط كان مضموناً او مؤكداً ، منذ الوقت الذي تكتل فيه محازبو بيت النبي من الجناح العباسي ، انطلاقاً من مشرق الخلافة الاقصى في خراسان ، حيث نشأ حزب معارض تبني دعوة العباسيين بكل قواه .

ومن هنا فان عملنا محصور في حل المسألة التالية ، وهي البحث في اسباب جذور التشيع الخراساني لبيت النبي واسبابه ؟

ان حل هذه المسألة قد يبدو على شيء من السهولة ، حيث الاخباريون العرب اشاروا الى دعوة عباسية منظمة هيأت النفوس لحكم بني هاشم (من البيت النبوي) . ونخال ان مهمتنا تنتهي عندما نتعرف الى غمط تلك الدعوة او نهجها والى من توجهت ، ومن ثم الذرائع التي تسلحت بها ووجدت من خلاها الطريق الى النفوس .

وفي اطروحتي « De Opkomst der Abbasiden in Khorasan » (نشأة الحزب العباسي في خراسان)⁽¹⁾ ، حاولت قدر المستطاع تتبع

(1) . Leyde 1890 .

الاحداث الخراسانية ، حتى ارتقاء السلالة الجديدة الحكم ، معتمداً على ما اورده المؤرخون في هذا الشأن . بيد انه لا يسعني سوى الاعتراف بأن حل هذه المسألة المطروحة لم يكن مرضياً ، وذلك لاقتناعي بأن روايات الاخباريين العرب في هذا الموضوع كانت تعكس الموقف الرسمي في البلاط ، وتخفي وراءها من الحقائق اكثر ما تكشف عنه .

ومع ذلك فلم تبقى هذه الابحاث السابقة معدومة الاهمية ، فقد اتاحت لي بالاضافة الى تقويم نسبي لهذه المصادر ، ان احقق ما هو اكثر اهمية من ذلك ، وهو التعرف الى خلفية انتصار القضية العباسية من خلال عناصر رئيسية ثلاثة :

- 1 - كراهية شعب مهزوم لآخر يسومه الاضطهاد .
- 2 - التشيع Le Chiitisme او الاتجاه الموالي لبیت النبي .
- 3 - انتظار المنقذ او المسيح المخلص Messie .

والحقيقة اننا في امس الحاجة الى دراسة اكثر عمقاً ، تتجاوز الطريق الذي سلكه المؤرخون العرب ، حيث يتوجب علينا في البداية التحقق من احوال الشعوب المخضعة وعلاقاتها بالشعب المسيطر . ثم نخلص الى البحث في تأثير هذا النمط من العلاقة على انتشار الافكار الشيعية ، ومن ثم تفسير المدى الذي وصل اليه الاعتقاد بما يسمى بالمهدية ، ودور ذلك في انتصار الدعوة العباسية .

وهنا نقدم للقارئ خلاصة الابحاث الجديدة وهي ، ان لم اكن غخطاً ، ستعدل كثيراً في الافكار الشائعة عن الحقبة الاموية ، دون ان تأخذها الصراعات القبلية التي كرس لها كتاب العرب ومؤرخو الغرب مكانة كبيرة ، بينما هي تكاد تحتل موقعاً ثانوياً بين مجموعة الاسباب التي ادت الى

سقوط الاسرة الحاكمة . واذا ما استطاعت هذه الصراعات في اللحظة الاخيرة ان تؤثر بطريقة غير مباشرة في تطور الحركة الاصلاحية ، الا انها لم تترك اي تأثير على تركيبة الوضع الجديد فيما بعد .

وغني عن القول بأن ابحاثنا لن تقتصر على دراسة اوضاع المنطقة الخراسانية فحسب ، وان كان البحث في ظروفها الخاصة ، يقودنا الى معرفة كافة الحقائق في القسم الشرقي من الخلافة بصورة عامة ، واقليم العراق بصورة خاصة . وهذا التوسع في البحث ، وان زاد في تعقيد المهمة التي نقوم بها ، الا انه سيؤدي بنا الى نتائج افضل للدراسة هذا العصر بطريقة مرضية .

ولن نلجأ هنا الى ارهاق القارئ بلوائح المصنفات التي اعتمدناها ، وفي طليعتها تاريخ الطبري (طبعة دي غويه M. de Goeje وكتابات مؤرخي القرنين التاسع والعاشر الكبار ، من امثال البلاذري واليعقوبي والمسعودي وابن عبد ربه ، ومن لحقهم اخيراً كصاحب « كتاب العيون » وابن الاثير والعلامة المقرئزي . اما بالنسبة للمخطوطات ، فاذا ما استثنت جزءاً من مجموعة (Legatum Wernerianum) الغنية ، حيث سأسير اليها في الملاحظات الواردة في هذا البحث ، فقد استقيت المعلومات الاكثر اهمية من « مقفى » المقرئزي Mógaffa de Magrizi و « طبقات ابن سعد » ، حيث اتيح لي الاطلاع عليها بفضل المبادرة الايجابية المعروفة لادارة المكتبة الوطنية في باريس وكذلك المكتبة اللوقية في غوتا Ducale de Ghotat .

ولن انسى استاذي دي غويه ، الذي ادين له بالعرفان والتقدير ، لما اظهره من حماسة في متابعة دراساتي والاهتمام بها ، وفي توجيه خطواتي الاستشرافية المضطربة في خضم التاريخ الاسلامي الواسع . . فقد كلف

نفسه عناء قراءة مسودة هذا الكتاب وزودني بملاحظات كنت مقدراً للغاية لها . ويبقى ثمة اعتذار لا بد منه ، اذ تجرأت على استخدام لغة لم احسن التعبير بها تماماً ، انه ضعف اقر به بتواضع وطيب نفس ، وهي اللغة الفرنسية التي اردت التوجه من خلالها ، ليس فقط الى زملائي من العلماء ولكن ايضاً الى بعض الشرقيين الذين لا يقدرّون نتائج الدراسات الغربية .

وأنتي لأعتقد أخيراً بأن معرفة الحركة العباسية ليست خالية من الفائدة بالنسبة للشرق الراهن . وغالباً ما وجدت تماثلاً واضحاً بين ما يجري فيه من احداث وبين تلك المترامنة مع ايام عبد الملك او هشام . . . فقد يكون ذلك « عبره لمن يعتبر » (1) .

ليدن ، آب 1893
Leyde, Aout 1893

(1) وردت باللغة العربية .

السيطرة العربية

- 1 -

ثمة فارق كبير في الانتشار بين المسيحية والاسلام فقد انتشرت الاولى في الظل ، تحت ثقل الاضطهاد والآلام ، منسجمة ومقولة المسيح « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . واستطاعت ان تحافظ على طابعها العالمي المتطور ، متسللة يهدوء عبر القرون الى امم مختلفة ذات حضارات متقدمة وراقية . وخلافاً لذلك فقد تمتع محمد بفضل اسلام « المدنيين » بسلطة روحية وزمنية عظيمة ، بعد بضعة أعوام من النضال والاضطهاد ، حيث نجد ذلك في آيات قرآنية عديدة . وقد اصبح الاسلام بفضل ذلك ديناً نضالياً يعلن عن نفسه بالانذار وقوة السيف . وختى في شبه الجزيرة لم يكن اعتقاد الناس بهذا الدين (او بالاحرى خضوعهم له) نابعاً عن موادة او مسالمة . فما كان للنبي من قوة وتأثير ، دفع بالقبائل البدوية الى مبايعته والاعتراف به ، ذلك الموقف الذي انقلب بعد موته ، لأن ما أخذته من الاسلام لم يكن عن اقتناع بـ « كتاب الله » ولكن بقوة سيفه ، الذي حمل به خالد تلك القبائل على الخضوع التام .

لقد ادرك النبي بعد وقت غير قصير بأن دينه الموجّه اساساً الى ابناء قومه ، لم يرق لاهل الكتاب من اليهود والنصارى ، حيث لم يتردد مطلقاً

من سميتهم بالكاذبين واتهامهم بالتحريف لكتبهم ، معلناً ان دينه وحده هو الدين الحقيقي والارقى درجة بين الاديان الاخرى . وكان من نتائج ذلك طرد اليهود من (المدينة) وشن حملة على امبراطورية بيزنطة المسيحية ، في الوقت نفسه الذي فاجأ فيه الموت الرسول . فالقيت هذه المهمة على عاتق خلفائه الذين كان عليهم متابعة اخضاع الكفار . واذا ما عرضنا لتلك الحروب المعدة في هذا الاتجاه وأثرها على الحالة النفسية لدى القبائل ، سنجد انها احتملت الاسلام كثير ثقل حتى في مرحلة الفتوح الاولى . غير ان هذا الدين من ناحية اخرى اتاح لها الممارسة الحرة في تفجير طاقاتها القتالية ، حيث كوفئت على ذلك بسخاء في هذا العالم وبشواب عظيم في العالم الآخر ، واتخذت منها قضيتها القومية غداة الانتصارات الاولى على الكفار من الاجناس الاخرى . وفي اندفاع « وطني » بقلر ما هو ديني ، ستقوم بنشر هذا الدين حتى حدود افريقية الشالية والبقاع المتقدمة من آسيا .

اما المسيحية فلم تنتصر الا بعد قرون من المحن والآلام ، خلافاً للاسلام الذي لم يكده يمضي على ظهوره اثنا عشر عاماً ، حتى اعتنقه شعب بأكمله ، كان على استعداد تام ليس للمعاناة فقط وانما للسير قُدماً في الفتح . وفي الوقت الذي وجدت المسيحية انتصارها بين امم اكثر تحضراً ، لم يكن الشعب العربي قد تجاوز حالة البداوة بكثير ، عندما تلقى تعاليم الرسول المكّي . وعلى الرغم من احتواء الجيش الاسلامي بين صفوفه ، قبائل ذات عادات حضرية وغير بعيد عن الاحتكاك بالافسكار الدينية للشعوب المجاورة ، الا ان بداوة الصحراء وتقاليدها ، لم تكن قد اختفت تماماً من حياة هؤلاء المتمدنين (سكان المدن) والمتحضرين من العرب .

ومن الواضح انها لم تكن مسألة دين امتد تأثيره الى سورية وقسم كبير من المملكة الفارسية القديمة ، ولكنها مسألة جنس غريب وغير مثقف ،

استطاع بقوة السلاح النفاذ الى المقاطعات المسيحية والاقامة بين مناصري
ديانة زرادشت .

وكانت القوانين المعتمدة في تنظيم هذا الفتح على جانب كبير من البساطة
وهي مقتبسة في معظمها من معاهدات سابقة جرت في ايام النبي .
فالشعوب الخاضعة بملء ارادتها ، كان يترك لها حرية العبادة والاحتفاظ
بملكية الارض ولا يطلب منها سوى الجزية (المسماة ايضاً خراج الجزية)
Kharadj- djizya ، وهي ضريبة كانت تلتزم بدفعها الشعوب الخليفة ،
مقابل سلامتها او حمايتها من جانب المسلمين . وعلى العكس من ذلك فان
للمسلمين الحق في قتل الرجال واستعباد النساء والاطفال اذا تم احتلال
البلاد عنوة اي بالقوة . بيد انه كان يفضل عادة ترك الارض لاصحابها
واستغلالها لحساب المتصرين .

وحسب هذه الطريقة لا يصح اعتبار الغزو الاسلامي تلاحماً بين جنس
وآخر ، او انتصاراً روحياً لدعوة ما ، ولكنه كان يمثل احتلالاً مسلحاً ما لبث
أن تبلور بوضوح في سلوك الخليفة الثاني عمر وتصعيده لحركة الفتوح .

وكانت التشريعات التي أقرها عمر تفرض على كل مسلم مقاتل بأن
يكون جندياً تحت لواء الاسلام ، مستنفراً في أية لحظة وسيفه في يده للدفاع
عن دينه ، وكان يتقاضى مقابل ذلك راتباً من بيت مال الدولة هو « العطاء » .

وكانت الجيوش الاسلامية تتخذ معسكراتها في النقاط الاستراتيجية
الاکثر أهمية في سوريا والعراق ومصر ، وتمتد مع تقدم الفتوح الى
الامبراطورية الفارسية القديمة بما فيها ميديا وخراسان .

وكانت حياة المستوطنين العرب تتوافق مع هذه الشخصية العسكرية ،
حيث كان محظوراً عليهم استملاك الارض ، ويعيشون فقط من « العطاء »

(الاجر الذي تدفعه الحكومة) ومن « المعاوين » (ضريبة عينية من الشعب المخضع) ، ومن الغنائم التي لا تنضب مصادرها ، طالما استمر فتح البلدان واستغلالها دون أن يتناقض ذلك والشخصية العربية التواقئة دائماً للاحتلال .

وكانت الانقسامات بين القبائل أحياناً وما يسيطر على حياة الصحراء من نهب وشحناء وثورات ، تزداد تفاقماً مع ضعف السيطرة المركزية من أقصى الشرق حتى اطراف الغرب .

وهكذا فإن الاحتلال العربي بشكل عام ، يقدم لنا صورة لشعب يعيش عبثاً أو عالة على شعب آخر . وهذا ما لاحظته جيداً فون كرىمر Von Kremer حين قال : « الشعوب المغلوبة تبذر وتحرق والمسلمون يحصلون ويشغلون أنفسهم بمهنة شريفة هي الحرب » (1) .

وهذه الكلمات تلامس من دون ريب طبيعة السيطرة الاسلامية في المناطق المحتلة . ولكن الحقيقة أن الظروف التخفيفية لم تكن قليلة الحدوث . فقد لوحظ على سبيل المثال بأن السوريين والمصريين ، كانوا مثقلين بالضرائب قبل غزو العرب لبلادهم ، بحيث لم يظهروا أزاء الفاتحين مقاومة تذكر . . وهذا ما ينطبق ايضاً على سكان السواد في العراق (2) . ثم أن العرب احتفظوا بنظام الجباية القديم الذي لم يطرأ عليه أي تعديل ، حيث اعتمدوا بادئ الامر على موظفين محليين من البلاد المفتوحة . اما الضرائب

(1) . Culturgeschichte des orient 1, 71 .

والفكرة نفسها موجودة لدى الطبري في احلى خطب عمر بن الخطاب ج 1 ص 2761 .

(2) Van Berchem, la propriété territoriale et L'Impôt foncier sous les premiers Khalifes

. P. 26

وهي التي ادخلها عمر ، فلم تكن جائرة ، يضاف الى ذلك ما كان يقوم به الحكم العربي من خدمات مهمة كبناء الطرق وحفر الاقنية وتأمين الحماية للشعب الى آخر ذلك .

هذا ولا يجب ان يغرب عن بالنا ، أن كل سلطة مؤقتة او انتقالية (وهو ما حدث بالتأكيد بالنسبة للاحتلال العربي) ، تصبح على المدى البعيد غير مقبولة مهما كان الترحيب بها في بادئ الامر ، الا اذا رافقتها متغيرات جديدة تقتضيها ظروف تلك المرحلة . ولكن خطأ الفاتحين العرب وفي طليعتهم الخلفاء ، انهم تجاهلوا هذه الحقيقة واعطوا الاولوية لمصالحهم الشخصية . واذا اردنا الدلالة على ان السيطرة العربية لم تخلق مطلقاً اية شروط مرضية للشعوب التي اخضعتها ، فلنكتفي بنسب ان هذه السيطرة رفضت في الوقت المناسب اي اصلاح او تغيير كانت البلاد باشد الحاجة اليه .

- 2 -

اذا كانت الاعمال التي قام بها الفاتحون الاوائل ، تؤكد اخلاصهم لقضية مشتركة تفوقت على اي اهتمام آخر بما في ذلك نزعة الاحتلال ، فان الانانية وكذلك الجشع سرعان ما استأثرا بالقلوب بعد وقت قريب ، وغمر رجال الصحراء ترف غير عادي انصب عليهم من كل ناحية ، مما كان له اثره في افساد النفوس اكثر من تهذيبها .

ولقد اصابنا الاسر المرموقة في الكوفة ثراء فاحشاً ، كان مصدره « الغنائم » والاعطيات السنوية « المخصصات » . فكان الكوفي اذا ما ذهب الى الحرب ، يصطحب معه أكثر من ألف من الجمال ، عليها متاعه وخدمته (١) .

(١) الطبري 2/ 806 (س 8) .

كما ان صحابة النبي ايضاً كانوا يمتلكون الأرض والقصور والثروات الطائلة ، يضاف الى ذلك حقهم في الاعطيات الهائلة التي كانت توزع عليهم ⁽¹⁾ ، الامر الذي ادى الى انتفاضة أبي ذر في سورية (الشام) لصالح المعوزين ، ودعوته الاغنياء الى التنازل عن جزء من ممتلكاتهم لهؤلاء الفقراء ⁽²⁾ .

ولقد فرضت حالة الترف المتصاعدة هذه تغطية دائمة لمواجهة متطلبات جديدة ⁽³⁾ واللجوء الى الاستدانة كطريقة فذة من اجل اشباع رغباتهم ، فمهد ذلك السبيل الى مؤامرات ، على غرار ما حدث في روما ، حيث باتت الثورة ضرورية مع اللجوء الى ارضاء المرايين ، واتخاذ الاضطرابات ذريعة للاستيلاء على بيت المال ونهبه ⁽⁴⁾ .

على ان طريقة اكثر سهولة وشفراً من ذلك ، هي الجزية والحملات العسكرية ضد الكفار . وغالباً ما كانت تأتي هذه الاخيرة تلبية لرغبات القادة ، اكثر منها رغبة في نشر العقيدة الدينية ، حيث تجلّى ذلك بصورة خاصة في اقليم خراسان .

(1) المسعودي : مروج الذهب 4/ 253 (طبعة Barbier de Meynard IV, 253 suiv.

Weil, Geschichete der khalifen I, 166, Von Kremer,

Gesch. D. Herschenden Ideen P. 320, 352.

(2) الطبري 1/ 2858 .

Weill 1, 170. Von Kremer I. P. 339 et ibid. ann. 15.

(3) الطبري 1/ 2755 (12 وما بعده) ، 2811 (16 وما بعده) ، 1027/ 2 (12 وما بعده) ، 1189 (12 وما بعده) .

اليقوي (طبعة Houtsma 2 / 281 (300 وما بعده) .

(4) الطبري : 1028/ 2 (8 س) ، 1029 (4 س) .

وكانت معظم المقاطعات المحاذية لهذا الاقليم وهي طبرستان وطخارستان وبلاد ما وراء النهر ، مرتبطة بمعاهدات جوار تضمن لهم حرية العبادة والاستقلال النسبي مقابل ما تفرضه عليهم من ضريبة سنوية محددة ، وذلك في العهد الاول من الخلافة الاموية . ولا يسعنا الا الاعتراف بأن هؤلاء الكفار لم يكونوا دائماً حريصين على الالتزام بهذه المعاهدات ، مما كان يعرضهم لهجمات جديدة من المسلمين الذين كانوا يستخدمون خلالها حق الفتح الاكراهي ، اي دخول البلد عنوة وما يترتب على ذلك من نهب وتخريب وسبي للنساء والاولاد . ولكن غالباً ما كانت عائدات الغنائم (باستثناء الخمس المخصص لبيت المال) ، سبباً في غزوات لم يكن ما يسوّغها في بعض الاحيان ، وهذا ما يؤكده البلاذري ⁽¹⁾ فيما كتبه عن حروب جرجان وطبرستان . وما يسمى بـ « فتوحات » يزيد بن المهلب ، لم يكن في الحقيقة سوى حملات من الارهاب او قطع الطرق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام .

ولعل ما حدث في سمرقند يعتبر مثلاً صارخاً لهذا النوع من « الفتوح » . فقد استسلمت هذه المدينة على اثر معاهدة ابرمتها مع سعيد بن عثمان ، مقابل دفع سبعماية الف درهم وتقديم الف من سكانها كرهائن ⁽²⁾ . ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم في وقت لاحق ، (حسب الرواية العربية) وطردها أهلها واحتل جنوده منازلها ⁽³⁾ ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق . وفي عهد عمر الثاني (عمر بن عبد العزيز) الذي آلت اليه الخلافة في دمشق ، شكاه أهل سمرقند ظلامتهم للخليفة الجديد وما نزل بهم

(1) فتوح البلدان (طبعة دي غويه) ص 334 وما بعدها . الطبري 1317/2 وما بعدها .

(2) الطبري 1245/2 و 1246 .

(3) Nerchakhi, Discription de Bokhara (ed. Schefer) P. 46, 51 suiv.

من خراب وتدمير على يد قتيبه . فأمر عمر بتعيين قاض خاص للنظر في هذه المسألة ، وجاء قراره من الخبث ، ما يبدو واضحاً لأي قارئ متجرد ، حيث قضى بأن يتحارب الفريقان - العرب وأهل سمرقند - وراء أسوار المدينة ، وأن يؤخذ هؤلاء بالقوة قبل عقد معاهدة جديدة معهم . فلذا ما انتصر العرب وهو ما كان محتملاً (حيث فقد أهل سمرقند خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها) عادوا مرة أخرى الى فتحها عنوة وانطبقت عليها شروط الاحتلال العسكري ، الا اذا امثلوا لتلك التي فرضها العرب عليهم ، أي ان قرار القاضي لم يغير شيئاً في وضع المدينة (١) .

هذه النماذج من الاحداث تظهر لنا جيداً (٢) الفكرة التي خالجت العرب وزعماءهم عن المهمة الموكولة اليهم في الشرق . فقد وضع كل منهم مصلحته الشخصية في المقام الاول ، بينما احتل الاسلام المرتبة الثانية من اهتماماته . ومن ذلك مثلاً ان يزيد بن المهلب الأنف الذكر ، لم يجد في ولاية العراق ما يفي بحاجاته ، فطمح الى ان تكون له خراسان ايضاً ، حيث الغنى الطائل والخير الوفير . وقد سجل احد الشعراء غنى الاسرة المهلبية التي ينتمي اليها يزيد بعد موت ابيه المهلب -

الا ذهب الغزو المقرَّب للغنى

ومات الندى والجود بعد المهلب (٣)

(1) الطبري 2/ 1364 ، البلاذري ص 420-422 .

(2) اشرت الى هذه المراجع ليعود اليها القارئ اذا شاء ذلك . البلاذري ص 418 (موسى بن خازم واهالي

ترمز) . الطبري 2/ 179 .

البلاذري ص 420-422 .

• Schefer, chrestomathie persane 1. P. 28

(3) الطبري 2/ 1251 .

Les ghazia qui apportent la richesse

Les largesses et la générosité sont mortent avec Mohalleb

والحقيقة ان كرم ذلك اليمني الشهير كان عظيماً الى درجة انه عندما جُرد من ممتلكاته، بعيد عزله عن الامارة، كان عليه من الضرائب نحو مليون درهم ليبيت المال ، سدد منها مائتي الف ثمن مجوهرات ومنقولات لزوجته ، بالاضافة الى ثلاثمائة ألف سددها أحد موالي اسرته المهلبية كان يعمل في ديوان الخراج . وما تبقى فقد دفعه عمه ، الوالي السابق لمدينة اصطخر (١) . اما يزيد ابنه ، فقد بلغ ما طالبه الحجاج به ، ستة ملايين من الدراهم لم يحصل منها سوى ثلاثمائة ألف (٢) .

وهذه الامثلة ترينا الى اي حد تغيزت حالة البساطة ، تلك التي حافظ عليها الخلفاء الاوائل ، في عهد خلفاء الاسرة الاموية . ومع ذلك فليس من الانصاف ان نلقي التهمة بكاملها على عاتق هؤلاء الامويين وحدهم ، اذ كان الجيل الذي خلق صانعي القادسية واليرموك متأثراً بالترعة نفسها التي سكنت قلوب اولئك الرجال المتشين بالانحصارات التي حققتها سيوفهم . وكان يفترض ان يكون لذلك أثر عكسي ، وهو ما حدث بالفعل . . . فاذا أعدنا قراءة ما اورده المؤرخ التقليدي (المسعودي) حول النتائج الحتمية لهذه الفتوحات ، التي ظهرت لأول مرة في عهد الخليفة الثالث عثمان ، حيث ينتهي هذا المؤرخ الموضوعي الى القول : « ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة . فأين عمر عن وصفنا ؟ » (٣) .

(1) 1034/2 وما بعدها .

(2) الطبري 1213/2 .

(3) . للمسعودي : 253/4 وما بعدها .

وقد صرخ مرة أمير سجستان (رتبيل) قائلاً « ما فعل قوم كانوا خماص
البطون سود الوجوه من الصلاة نعالهم خوص ؟ . فقد كانوا اوفى منكم
عهداً وأشد بأساً وان كنتم أحسن وجوهاً » (١) .

ومع هذا فقد عمد الامويون الى اختيار عما لهم وموظفيهم ومستخدميهـم
من بين هؤلاء العرب المترفين ، الذين اعتادوا التمتع بالحياة والانغماس في
عيشها ، دون مشقة العمل وعناثه .

فهل يأخذنا العجب اذا كانت الروح السائلة في العهد الاموي روحاً غير
دينية ؟ لقد رأينا فيما تقدم من البرهان على دنوية الحملات التي استهلكت
الكفار ، وهو تأكيد قاطع على ما كانته الولايات في ذلك العهد .

- 3 -

لم يكن نظام الضرائب الذي شرّعه الخليفة عمر ، يشكل عبثاً ثقيلاً على
المكلفين (الراشدين) ، حسب مقولة فون كريمير Von Kremer . ولكن
طريقة الجباية التي قام بها عمال الخراج كانت جدّ تعسفية وتثير سخط سكان
الريف (السواد) ، كما يصف المؤرخ نفسه (٢) . ولعل ذلك ينطبق على
ولاية مصر في أيام عمرو بن العاص ، حيث بلغ خراجها مليونين من
الدراهم ، بينما تجاوز الاربعة ملايين في عهد الوالي الذي خلفه (٣) ، مما يحمل
على التأكيد بأن الخليفة عمر في تشريعاته لم يضع قاعدة ثابتة في هذا المجال .
أما تفسير هذا التفاوت في الخراج ، فيعود برأي كريمير الى زيادة في الضريبة

(١) البلاذري : ص 400 وما بعدها .

(٢) Streifzüge auf dem Gebiete des Islams P. 19 .

(٣) (عبد الله بن سعد أبي سرح) البلاذري ص 216-218 .

« الجزية » من ديتارين الى اربعة ^(١) . غير انني اجهل مصدر ذلك التحليل ولا أملك آية اشارة عنه ، باستثناء ما جاء في نص البلاذري عن قول للخليفة عثمان الى عمرو بن العاص « ان اللقاح بمصر بعدك قد درت البانها » ورد هذا الاخير بقوله « لانكم اعجفتم اولادها » ^(٢) .

وكانت الاحوال اكثر سوءاً في عهد الامويين ، فلم يلتزم هؤلاء او عمالهم بالنظم التي قررها اسلافهم الراشدون . وقد كتب معاوية مرة الى (وردان) مصر « أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً » . فرد عليه بقوله : « كيف ازيد عليهم وفي عهدهم ان لا يزداد عليهم » ^(٣) .

ومن الواضح كما يبدو لنا ، ان الامويين تجاوزوا في جباية الضرائب حدود النظم السابقة . وفي اليمن نجد ايضاً نماذج مماثلة ، حيث مارس احد اخوة الحجاج « الشهير » ، اسوأ انواع الابتزاز ، طوراً في مصادرة الممتلكات الخاصة ، وطوراً بفرض ضريبة ثابتة (وظيفة Watzifa) ، فوق الضريبة القانونية المقررة عليهم وهي « العشر » ^(٤) . وكان حدوث ذلك في ولاية

(1) . Culturgechichte 1, 61

(2) على غرار ما كانوا يعانون في البلاد المنخفضة في زمن الدوق الب :

«Hij heeft niet aan de Wol genoeg, maar gaat de schaapkens villen».

(3) البلاذري ص 217 . Von Kremer, Ueber die landverwaltung Unter dem khalifate P. 83 suiv.

. Karabaceck: das Arabische papier (Mittheil. A. D. papyr. Erz. Rainer 1) P 91

الطبري 1/ 2584 .

كان يكتب الخلفاء الامويون الى ولاتهم في مصر ، ان هذا الاقليم قد فتح عنوة ، وان اهله ارقاء حيث لا يوجد ما يحول دون زيادة الضريبة المفروضة عليهم واتخاذ الطريقة المناسبة في التعامل معهم . انظر ايضاً :

Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne 1, 233.

(4) البلاذري ص 73 .

عريقة صافية العروبة له دلالة واضحة ومهمة ، حيث يعطينا الحق في الافتراض بأن الاوضاع كانت اشد سوءاً في الولايات الاخرى الخاضعة للعرب . والواقع حسب ما نعرفه عن بلاد فارس مثلاً ، كان جباة الخراج يلجأون عادة الى تقدير المحاصيل في وقت سابق على الحصاد ، ومن ثم يرغمون المزارعين على التنازل عنها بثمان اقل من المتداول بكثير⁽¹⁾ ولعل في التفاصيل التي زودنا بها القاضي أبو يوسف في (كتاب الخراج) ما يلقي نظرة فريدة على الادارة الاموية في بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) . فقد قرر واليها في عهد عمر الاول (زياد بن غنم الفهري) بمبادرة خاصة ، اضافة دينار فوق الضريبة العينية المعروفة⁽²⁾ . وحتى هذه الزيادة لم تكن لترضي مطلقاً الضحاك بن عبد الرحمن ، واليها في عهد الخليفة عبد الملك . فقد أمر باحصاء جديد لسكان الولاية ، فافرضاً عليهم نوعاً من الجباية الذاتية ، والزام كل فرد بتقديم ارباحه خلال السنة . فكان الوالي يستخلص منها تكاليف الملابس والمأكل وبعض النفقات الاضافية ، ويستولي على الباقي باسم بيت المال . ولقد أدى ذلك زيادة ثلاثة دنائير على كل فرد اضافة على الضريبة السابقة⁽³⁾ .

(1) ابن سعد : كتاب الطبقات 1, 245 R (God. Goth. 1748) وكتب عمر بن عبد العزيز الى علي بن اوطاه : بلغني ان عمالك بفارس يخرصون الثمار على اهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قوموها وان طوائف من الاكراد يأخذون العشر من الطريق (وردت باللغة العربية) .

(2) كتاب الخراج ص 23 (طبعة بولاق 1302 هـ) ويستخلص من رواية الكاتب : « فلم يبلغني ان هذا على صلح وعلى أمر اثبته ولا برواية عن الفقهاء ولا بأسناد ثابت » (بالعربية) بأن النظام الذي وضعه عمر لم يتناول بلاد ما بين النهرين حسب قول فون كريمر .
 . Von Kremer. (Culturgesch 1, 60)

(3) كتاب الخراج ص 23 .

وفي العراق ايضاً نرى اشكالاً عدة من الزيادات الاستثنائية (غير المشروعة) تضاف الى الضرائب القديمة . وكان على عمر الثاني ان يأمر بجهة الضرائب في عهده بالألا يتقاضوا من الدراهم ما يزيد وزنه على اربعة عشر قيراطاً ⁽¹⁾ ، وهو الوزن العادي الذي أقره الخليفة عمر الاول ، حيث رأى هؤلاء يتقاضون دراهم اثقل وزناً ، مما يؤدي الى ارهاق الشعب بزيادة باهظة في نفقاته . هذا بالاضافة الى زيادات اخرى يقررها ذلك النظام نفسه ، كنفقات سك العملة والمحركات الرسمية وموفدي (رسل) الادارة ، وكذلك عقود الزواج والمحافظة على خزانة الدولة . وتذكر في هذا المجال ايضاً الضرائب العينية *Ayin* وهي كلمة فارسية ترجمها دي غوبه *De Goeje* في مصطلحه عن الطبري بـ *donum quo augetur tributum* ، وهدايا النيروز والمهرجان التي أصبحت بطابعها الالتزامي عبئاً ثقيلاً ومرهقاً ⁽²⁾ .

ولكن هذه النفقات العادية والاستثنائية ، التي فرضت على كاهل الشعوب المغلوبة ، لم تكن الثغرة الوحيدة في ادارة يتسم نظامها الضرائبي بالشدّة والتعسف ، بعد ان اصبحت جباية الاموال أو نهبها هدف موظفي الخراج الرئيسي ، بما عرف عنهم من ايمان سطحي وتبذير للاموال العامة . تلك الممارسات التي لم تقل خطورة عما اسلفنا . وبلغ الامر حداً من الجشع الى درجة تستخدم فيها ادارة ولاية ما ، كسبيل لتحقيق ثروات غير مشروعة . ولعل خير دلالة على ذلك الواقع تلك العبارة الخاصة « أكل ولاية

(1) كتاب الخراج ص 49 . الطبري 2/ 1366 .

Fragmenta Historiarum Arabicorum P. 47

(2) اليعقوبي : ج 2 ص 258 وما بعدها . الطبري : 2/ 63 (ص 9) . ابن الاثير ج 3 ص 99 .

او حلبها كما تحلب الناقة » ، التي لاكتها الالسن في اشارة الى الاستغلال لهذا المنصب (١) .

وكثيراً ما ارتفعت الشكوى ضد الولاة وعمال الخراج الذين استأثروا بأموال الدولة لانفسهم ، وذلك منذ خلافة عمر الاول . وقد نقل الينا البلاخري (ص 384) قصيدة مثيرة ، يتهم فيها علداً غير قليل من الولاة و (رؤساء الموظفين) في رساتيق (Rostaq) وقرى خوزستان في ميديا وفارس « الذين يكسدون في جيوبهم الواسعة مال الله » (٢) ، او نعود اذا عادوا ونغزوا اذا غزوا ، فمن أين اذن لهم ذلك الغنى ولنا ذلك الفقر (٣) ، كما يستطرد الشاعر .

ولم يكن الولاة يجلبون مشقة في اخفاء هذه التجاوزات ، حيث ان بعضهم كان يطالب الخليفة في نهاية عهده بالولاية ان لا يجبر موظفيهم بتقديم اي حساب عن المهمات التي شغلوها (٤) . وكان عمر الاول قد اشترع قانوناً لحصر هذه التجاوزات الادارية ، وهو ما سُمي بـ « نظام المقاسمة » . الذي كان يقوم بتسجيل دقيق لممتلكات الولاة قبل تعيينهم والزامهم ، بعد الاعتزال ، بدفع نصف الاموال التي جمعوها على حساب الادارة (٥) .

وهذا ما فعله معاوية عند عودته الى (المدينة) ، حيث ردّ لبيت المال نصف الاموال التي جمعها ، لينعم بهلوء بما بقي له (٦) . وقد سار على هذه

(١) الطبري 1029/2 (س 2) . البلاخري ص 414-216-94 .

(٢) جاء في البلاخري « يسيفون مال الله في الادم الوفرة » .

(٣) نؤوب إذا أبوا ونغزوا إذا غزوا فأنى لهم وفر ولسنا أولي وفر

(٤) الطبري 69/2 .

(٥) البلاخري ص 385-217-82 . الطبري 1/2864 (س 4) .

(٦) « ليطيب له الباقي » الطبري 2/202 (س 6) .

القاعدة عندما ارتقى العرش فارضاً على موظفيه طريقة المقاسمة هذه ⁽¹⁾ .

ومن البديهي ان الزعماء لم يكونوا وحدهم ممن يفتنون على حساب بيت المال ، فثمة مجموعة اخرى من صغار الموظفين ، لم يكن من هم لديهم سوى الامثال برؤ وسائهم او التفوق عليهم ، وذلك باستلاب ما يقع في ايديهم من اموال الدولة . وبلغ ما عانتها هذه الاخيرة من مصاعب ازاء استرداد هذه الاموال ، لجوء والي العراق (عبيد الله بن زياد) الى استبدال موظفيه العرب بأخرين من الفرس . واصبح الاعتماد على الدهاقين (كبار ملاكي الارض) في جباية الضرائب من الامور المألوفة منذ ذلك الحين . ولان هؤلاء خبروا جيداً هذا النوع من العمل ، لم يجدوا كبير صعوبة في استرداد بعض الاموال المحصلة « كانوا ابصر بالجباية وأوفى بالامانة » ⁽²⁾ . بيد انه من المؤكد ان عدداً من الموظفين استطاعوا رغم هذا التدبير ، تجميع ثروات كبيرة ، كانوا يلجأون الى اخفائها لدى اصدقائهم او ذويهم ، محرمين يأمنون اليهم . ولم يكن ما يمنح بعض الولاة من تعيين جماعاتهم في مناصب ذات منفعة والتغاضي عما يقومون به من ابتزاز للشعب واستغلال لمراكزهم ⁽³⁾ .

ولقد اشرنا سابقاً الى محاولات الخلفاء الاولين ، استرداد ما يمكنهم بيت المال من مكتسبات الموظفين غير المشروعة . اما الامويون فقد ادخلوا نظاماً صارماً للإشراف على الجباية ومراقبتها . ففي عهد عبد الملك كان الجباة وعمال الخراج يخضعون لتحقيق دقيق عند انتهاء مهماتهم الادارية ، كـ

(1) اليعقوبي : 264/2 .

(2) الطبري : 458/2 و 995 (س 19) .

(3) راجع في هذا المجال للمعلومات للهمة التي ذكرها ابو يوسف في كتاب الخراج ص 61 (س 16 ...) .

يمارس عليهم التعذيب لحملهم على الاعتراف باسماء من اودعوا لديهم الاموال ، في محاولة لاستعادة ما هو مستلب منها الى الخزانة . وقد كان يطلق على هذا الاجراء اسم الاستخراج او التكشيف Istikhradj ou takchif (1) . وكانت التحقيقات التي يخضع لها هؤلاء تتم في اماكن خاصة تعرف بـ « دار الاستخراج » . واذا كان لهذا الاجراء ما يسوغه في بادئ الامر ، فقد تجاوز حدوده المسموح بها بعد حين ، وتحول الى غطاء للاحقاد الشخصية التي يغذيها عطش الطغاة من الولاة للسلطة ، والى اداة للانتقام وطريق للثروة . وهكذا اصبح الفساد ظاهرة عامة في اواخر الحكم الاموي ، حيث كان اول تدبير يقوم به والي الجليلد ، زج سلفه في السجن ، ومعه كافة الموظفين والصنائع والاتباع ، ومن ثم الافراج عن المعتقلين من العهد الاسبق . ولقد كان والي العراق خالد القسري ، يتقاضى عشرين مليوناً من الدراهم في السنة ، ويميز لنفسه اختلاس مائة مليون فوق ذلك . وحين خلفه يوسف بن عمر ، وضعه في السجن مع ثلاثمائة وخمسين من موظفيه ، ونجح في ان ينتزع منه ما يزيد على السبعين مليوناً (2) .

وهذه المبالغ الطائلة قد تدعو الى التفكير بنظام ، من السهولة ادراك نتائجه السلبية في هذا المجال . ومع ان عمال الخراج لم يكن يخامرهم الشك في المصير الذي ينتظرهم بعيد عزلهم ، فلم يدخروا سبيلاً للاثراء وتكديس الاموال ، غير عابئين بما يجمر ذلك من ارهاق للشعب بمختلف انواع الضرائب ، طالما كانوا مطمئنين ، ساعة الحساب ، الى رضى الدولة

(1) الطبري : 502/2 . العقد الفريد 1/179 و 3/13 (طبعة القاهرة 1293) . ان كلا من كلمة « توظيف » 388/2 و « استيعاء » الطبري : 2/1460 تشير الى نفس المعنى .
(2) الطبري : 2/1581-1841 . اليعقوبي : 2/355-388 . (« اشترى » يوسف بن عمر سلفه خالد من الخليفة الوليد الثاني ليكون له الحق في انتزاع ما امكنه من المال) .

وسكوتها ، بدفع جزء من اموالهم الطائلة . وكان من الطبيعي ان يقع العبء كله على كاهل الشعب المغلوب ، الذي لم يتح له إسماع صوته او ظلامته الى السلطة المركزية (1) ، فيظل مرتعناً لهذا الواقع متحملاً مختلف اساليب التنكيل والاضطهاد .

وكانت طريقة الجباية التي فرضها المتصورون ، مكروهة حسب رأي الفقهاء . وفي الموعد او الموسم المحدد لها يتوجه المكلفون (الذين تقع عليهم الضريبة) الى ديوان الخراج ، حيث يتخذ « صاحبه » العربي اريكة عالية . فكان الرجل يتقدم بخضوع ، باسطاً يده اليمنى وفيها قيمة الضريبة ، فاذا ما امتدت اليها يد صاحب الخراج ، يتلقى حاملها صفقة على رقبته من احد مساعدي هذا الأخير ، تدفع به حتى الباب . وكان مسموحاً للجمهور حضور هذا المشهد ، الذي يعتبر برأيهم احد رموز انتصار الاسلام على الشعوب الكافرة (2) .

اما الذين يعجزون عن دفع الجزية المفروضة عليهم ، فكانوا يخضعون للتعذيب بحرارة الشمس الحارقة او بصب الزيت على الضحايا في حالات اشتداد العقاب .

وفوق ذلك كانوا يجبرون على تعليق حجارة او جرار ممتلئة بالماء في اعناقهم ، ويكرهون على الوقوف موثقين لساعات طويلة على قدم واحدة ، مما يحول دون استطاعتهم بعد ذلك السجود للصلاة (3) . وفي بلاد ما وراء

(1) لمعرفة المزيد عن هؤلاء المؤلفين انظر الطبري 2/ 1354 والملحق رقم 3 .

(2) Karabaceek, das Arabische papier P. 87 .

(3) كتاب الخراج 18, 61, 62, 70, 71 .

النهر (جيحون) خضع الدهاقين بدورهم لتعذيب عمال الخراج ، فكانوا يعرضونهم للشمس مجردين من ثيابهم ويلقون بزنايرهم في وجوههم (1) .

-4-

لا اريد ان يتهمني القاريء ، وأنا اقدم هذه اللوحة القائمة ، بتعميم هذه الوقائع التي اشرت اليها على كافة المناطق التي سيطر عليها الامويون ، او الحقبة المتزامنة مع خلافتهم . ذلك ان الخلل الذي تحدثت عنه ، لم يكن الا مجرد استعراض للوقائع التي ذكرتها المصادر التي اعتمدناها ، دون ان يكون في استطاعتنا تجاهل ملاحظتين اثنتين :

1 - اننا لا نعرف سوى القليل عن اوضاع الشعوب المغلوبة ومعاناتها ، وذلك يعود الى ان المؤرخين العرب لم يكثرثوا لهذا النوع من الاخبار ، التي ظلت على هامش كتاباتهم .

2 - ان الاحداث المعروضة على الرغم من ضآلتها كمادة تاريخية ، تسوّغ الرأي السليم في تقويم الحكم الاموي ، وتؤكد ما اشرنا اليه في وقت سابق ، وهي ان المسألة لم تعد دعوة دينية بل تحولت الى دعاية شبه مبرجة لا تتوخى سوى النهب .

واذا ما تساءلنا عن طريقة ما لتفادي هؤلاء - المفروضة عليهم الجزية - دفع تلك الضريبة ؟ وهل كان باستطاعتهم التخلي عن ممتلكاتهم العقارية والالتزام بالعقيدة الاسلامية ، ومن ثم انتقلهم الى جانب الفاتحين ومشاركتهم في الغنائم التي كان عليهم أن يقدموها لهم من قبل ؟ .

وفي الحقيقة كان ذلك ما دار في خلد اغلبية الدهاقين (كبار ملاكي

(1) الطبري : 1510/2 .

الارض من الفرس) ، الذين كانوا اول المستفيدين في هذا المجال . وقد هياهم لهذا الدور ، النفوذ الذي تمتعوا به في ظل النظام السابق ، والتأثير الذي مارسوه على صغار المزارعين فضلاً عن معرفتهم الجيدة بتلك البلاد وسكانها ، مما أدى الى استخدامهم في المناصب الادارية وجباية الضرائب . وما لبث هؤلاء الدهاقون ان اصبحوا منذ ذلك الحين ، بطانة السلطة وحياناً جواسيسها ومفوضين للقيام بمهام سرية وخاصة (1) . اي ان طبقة النبلاء الاقطاعيين هذه ، نجحت في انقاذ مصالحها السابقة في الوقت المناسب ، وذلك باعتناقها الاسلام ، محقة الثروة والنفوذ من خلال دورها كوسيط في جباية الخراج (2) .

ولكن ما مصير اولئك الادنى وضعاً من الفلاحين البسطاء ، الذين اطلق عليهم المؤرخون العرب عامة اسم « العلوج » ؟ فهؤلاء لم يكن اي مجال للشك بسوء اوضاعهم ، اذ ان تحولهم الى الاسلام عاد اليهم بالمرارة وخيبة الامل . فقد وقف طموح العرب وكبريلؤهم القومي ، فضلاً عن جشعهم ، عقبة كأداء امام اي تعديل في اوضاع هؤلاء المضطهدين عبر هذا السبيل . وهذا ما سنلاحظه اولاً عندما نتعرض للحالة الاجتماعية لاولئك المستجدين في الاسلام ومن ثم الاهتمام بحقوقهم السياسية .

اما اولى تلك النقطتين فلن تستوقفنا طويلاً ، وذلك بفضل ابحاث كل من فون كريمر Von Kremer وجولدتزيهر Goldziher (3) . فنحن نعرف بأن المسلمين من غير العنصر العربي ، كانوا يلتحقون بالقبائل العربية بصفة

(1) الطبري : 2 / 942 .

(2) Von Kremer, streifzige P. 14 et Ibid n. 4 .

(3) Von Kremer, Culturegeschichte 11. 154 suiv .

Goldziher, Islamic Studien 1. 104 suiv .

(موالي) لها ، وذلك منذ اعتناقهم الاسلام . ومع اننا لا نرى في وضع الموالي آنذاك اي ارتباط بفكرة « دونية » او تحقيرية ، فقد اتخذ ذلك طابعه المعكوس جذرياً ، منذ اللحظة التي اخذ يزداد فيها عدد المسلمين الجدد (الموالي) ، ممن فرضت عليهم الجزية من قبل . وكان ذلك اكثر ما يرتبط بالنظر الى هذه الطبقة من المزارعين ، التي احتقرها العرب المحاربون ، واعتادوا على التعامل معها معاملتهم لطبقة ادنى تقترب من الرقيق . ويبدو لي رغم الغموض في كلمة (مولى) ، وهي تعني ايضاً العبد المعتق (المحرر) ، انه لم يكن لها اي تأثير على مفهومها الذي ارتبطت به . فقد شاع استخدام العرب غالباً لكلمة (مولى) مقترنة بالمعنى الاسترقاقي ، يضاف الى ذلك ، حسب ما توصلنا اليه ، بأنهم كانوا يدعونهم بأسمائهم الشخصية كما العبيد⁽¹⁾ ، واذا ما اراد احدهم الزواج فعليه التوجه الى سيده ، الذي كان له الحق في الرفض . اما في الجيش فكانوا يشكلون فرقة خاصة بتكوينها وقيادتها ، ومن المرجح انهم كانوا يشاركون في القتال كمشاة فقط⁽²⁾ . وفي الاجتماعات ايضاً اقتنعوا بأحط الامكنة ، دون أن يكونوا مقبولين في مساجد العرب ، حيث كانت لهم مساجدهم الخاصة ، ولعل

(1) كتاب الاغانى : ج 5 ص 155 . الطبري 2/ 684 .

Van Gelder : Mokhtar P. 72 cf. Dozy: Hist des Musulmans d'Espagne 11, 52.

لا يمكن اعتبار ما ورد في الطبري له علاقة بهذا السؤال عن الموالي الطبري العقد الفريد 2/ 596 (س) 18، 623 (س) 617 (س) 5 .

(2) العقد الفريد : 2/ 90 .

(3) الطبري 2/ 1920 (س 4) . قال امير خراسان لاحد العرب من حاشيته « انت واهل بيتك ممن اراد اسد بن عبيد الله ان يختم اعتناقهم ويجعلهم في الرجالة » ويبدو ان ذلك كان خاصاً بأهل النعمة (راجع الطبري 2/ 1252 . العقد الفريد 2/ 92) . واعتقد بأن المحاربين للشاة لم يكونوا سوى الموالي انفسهم .

Opkomst der Abbasiden P. 48, 105 (n. 1)

افضل ما نعبر عنه اخيراً في وصف حالة الموالي الاجتماعية ، وما لحقهم من احتقار اخوانهم في الدين ، هو ذلك القول المأثور « لا يقطع الصلاة سوى ثلاثة : مولى وكلب وحمار » (1) .

وحسبنا من هذه الاحداث الناطقة ، انها كافية لاعطائنا فكرة عن الاوضاع الاجتماعية لهؤلاء المسلمين الجدد ، ونحيل القاريء الراغب في معرفة مزيد من التفاصيل في هذا الموضوع الى مؤلفات فون كريمر وجولسد تزيمر ، التي سبق ذكرها . وسنحاول الآن من خلال استعراض حالة الموالي السياسية تبيان ما نزل بهم من ظلم الحكم ، الذي لم يعترف لهم بشيء مما كان لاخوانهم العرب . ولا ينبغي ان يغيب عن بالنا بأن كل مسلم ورد اسمه في سجلات الدولة (الديوان) ، كان يتلقى مقابل خدماته الحربية مكافأة سنوية يطلق عليها (العطاء) ، باستثناء ما كان يتلقاه من أجر (فريضة) عن ابنته . وهذا النظام الذي اقره عمر بن الخطاب بوسع القاريء ان يعود اليه مفصلاً في فتوح البلدان للبلاذري (ص 461) ولدي . (Von Kremer , Culturgeschichte I 169 suiv) ، من دون ان يجد ما يشير الى استثناء الموالي من العطاء . بيد اننا سرعان ما نلاحظ بأن عدد هؤلاء لم يكن على درجة من الكثافة في عهد هذا الخليفة ، حيث كان العطاء وقفاً على (الدهاقين) الذين كان لهم دورهم في الفتح الاسلامي الى جانب العرب (2) . ونستطيع كذلك الاستنتاج من اشارة البلاذري ، بأن العرب لم يكن ما يثير حفيظتهم آنذاك مقاسمة اولئك المسلمين الغرباء عائداً منهم من الغنائم (3) . وقد كان الخليفة عليّ حسب ما ذكره اليعقوبي ،

(1) العقد الفريد 1/1 .

(2) البلاذري : ص 457 (اخر الصفحة) .

(3) نفسه : ص 457 (م 3) .

حريصاً على تطبيق هذه القواعد القديمة ⁽¹⁾ . اما بالنسبة للامويين فلا نعرف تماماً مقدار التزامهم بالطريقة التي سار عليها الخليفة عمر بشأن الاعطيات السنوية ، وان كان لا يسعنا سوى الافتراض بأنهم انقصوا كثيراً في رواتب (اعطيات) اولئك الذين كانوا موضع سخطهم (كالعلويين مثلاً) . هذا عدا استثمارهم ببيت المال وتوزيع محتوياته بشكل اعتباطي على اعضاء الاسرة الحاكمة ⁽²⁾ ، ولكنهم مع ذلك كانوا على قدر من الحكمة باستدراكهم خطأ ما قد يسببه انقاص العطاء لدى رعاياهم العرب ، عن المستوى الذي أقره الخليفة عمر ، وهم اكثر من عرف كما سنرى تأثير المال على النفوس ، ومن احسن استغلاله في تحييد الخصوم واسكاتهم .

اما بالنسبة للموالي ، فينبغي طرح المسألة من منظور آخر . فقد كان عددهم يزداد في المدن لا سيما العراقية ، وذلك استناداً للعامل التالي : هو ان الاراضي التي اخذها العرب عنوة ، على نحو ما حدث في معظم (السواد) العراقي تقريباً ، وكذلك في سورية ومصر ، كانت تتحول الى وقف للمسلمين . وكان اصحابها من الفلاحين يتابعون استثمارها ، مقابل نصيب من انتاجها كضريبة عقارية (الخراج) يقدم للفاتحين . هذا بالاضافة الى مبلغ محدد على الفرد او ما يسمى بضريبة الرأس (الجزية) ⁽³⁾ ، لقاء ما يتمتعون به من حرية المعتقد وحماية العرب لهم . وفي حالة اعتناق الاسلام كانوا يعفون حكماً من هذه الجزية ، ولكن دون ان يرفع عنهم الخراج ⁽⁴⁾ .

(1) الحقوقى : 213/2 .

(2) الطبري : 1020, 534/2 (ص 11) .

Von kremer: Gesch. der herrsch. Ideen P. 336 suiv. 393 suiv.

(3) يجب ان نميز بين هذه الضريبة المعروفة بالجزية ، وبين الخراج المذكور اعلاه .

Van Berchem op. cit. P. 35. (4)

وليس من المدهش ان نرى حينذاك العدد الغفير من هؤلاء المسلمين المستجلين قد تخلوا عن اراضيهم ولجأوا الى الاستقرار في المدن ، حيث كان يعيش العرب ، ومشاركتهم اذا ما استدعت الحاجة في الحرب ، خاصة بعد التعرف على ثغرات نظام الخراج وسوء ممارسات الجباية .

وثمة مسألة لا بد من طرحها وهي المتعلقة برواتب المتطوعين الجدد ، اذ ليس من العسير مطلقاً ادراك التناقض في الرأي بين الموالي والعرب بصدد هذه المسألة . فقد رفض هؤلاء اي نقاش يؤدي الى مشاركة الموالي لهم في ثمرات الفتوح ، بينما كان الموالي يزعمون ان العطاء هو حق لجميع المسلمين (١) .

ولقد برز التناقض في مصالح الفريقين لأول مرة في حركة المختار الشهيرة في عهد مروان الاول ، حيث ضمنت لنفسها مؤازرة العنصرين العربي والفارسي من اهل الكوفة . ومن المثير حقاً ان يكون عدد العرب في تلك الثورة ، اقل بكثير من الموالي الذين جذبتهم الاعطيات التي منحها لهم الزعيم المتمرد . « ولم يكن ما يثير سخط الكوفيين (العرب) اعظم من ان يروا المختار يمنح الموالي نصيبهم من (الفياء) وهو المال الذي كان مصدره البلاد المفتوحة . فكانوا يقولون له « عمدت الى موالينا ، وهم فيء آفاء الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً . فاعتقنا رقابهم نأمل الاجر في ذلك والشواب والشكر ، فلم ترض بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا » (٢) .

وليس ادل على معرفة مشاعر العرب نحو غيرهم من هذه المداخلة . .
فاراضي الاجنبي وخيراتهما ، هي ثمن لحرية في العقيدة الوثنية ، وهي الثوب

(١) الطبري 1354/2 .

(٢) الطبري 650/2 وما بعدها . وانظر ايضاً : Von kremer: Herschende Ideen p. 328 .

الآلهي للمؤمنين العرب . هذا الاعتقاد بسيادة الجنس العربي وتفوقه ، كان لا بد ان يتعارض بصورة قاطعة والظروف الجديدة التي عاشتها دائماً البلدان المحتلة . ذلك ان الفاتح العربي الذي كان ينبغي اكمال مهمته مع تحول الشعوب المغلوبة الى الاسلام ، لم يرق له التخلي عن ثمار فتوحاته بمثل هذه السهولة . وهذا ما سيندر بأسوأ النتائج واطرها ابان حكم الحجاج الطاغية ، والى العراق في ظلّ خلافتي عبد الملك والوليد .

وكان ارتفاع نسبة المسلمين الجدد ، اولئك الذين ظهرت فيهم روح التمرد في حركة المختار ، قد اثار قلق الحكم ، لما ترتب على ذلك من تناقص مستمر في مصادره المالية ، وهجرة متصاعدة من الريف ، في وقت وقع اختيار الخلافة في دمشق على الحجاج لمعالجة هذا الوضع المتدهور .

وقد تلخصت سياسة الامير الجديد بوضع كلمات ، وهي ابقاء المدن العراقية - مركز معارضة الموالي - على وضعها السابق أي معاقلاً للجيش العربي ، بينما الموالي الذين منوا النفس في لحظة أمل بالمساواة التامة مع اخوانهم في الدين ، اجبروا على العودة الى اراضيهم وعلى دفع الجزية كما في السابق .

ونحن مدينون لـ فون كيرمر ، في معرفة هذه الرواية من التاريخ العربي . وللقاريء ان يعود الى كتابه «Culturgechicnete des Orients» للتعرف على اسلوب الحجاج في ارغام المسلمين الجدد على دفع ضريبة الكفار ، ومن ثم المقاومة العنيفة التي سجلها هؤلاء ضده ، بعد انضمامهم الى جانب الثورة التي قام بها عبد الرحمن بن الاشعث . ولم تكن امواج الدماء التي رافقت احباط هذه الثورة ، سوى تذكير الحكم للموالي

بواجباتهم نحو الفاتحين ، وانتزاع اي امل من نفوسهم بالتغيير في المستقبل ، ومن ثم طردهم من المدن واعادتهم الى قراهم ، بعد وشم اسمائهم على ايديهم .

ويعلل المؤرخون العرب هدف هذه التدابير الحازمة ، بأنه عودة بالنظام الضرائبي القديم الى سابق عهده . بيد انهم مجمعون على القول ، بأن حالة العراق بعد حكم الحجاج كانت اكثر سوءاً من قبل .

ومن هؤلاء ما يذكره اليعقوبي (طبعة هوتسما Houtsma ج 2 ص 384 وما بعدها) : « وكان (الحجاج) اول من اخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال . وانكسر الخراج في ايامه فلم يحمل كثير شيء ، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق الا خمسة وعشرين ألف درهم » (في عهد معاوية كان خراجها 120 مليوناً) (١) .

اما الطبري (ج 2 ص 1306) فقد روى : « بأن يزيد (بن المهلب) نظر لما ولاه سليمان (بن عبد الملك) ما ولاه من امر العراق ، في امر نفسه فقال : ان العراق قد اخرجها الحجاج ، وانا اليوم رجاء أهل العراق . ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج ادخل على الناس واعيد عليهم تلك السجون التي قد عاقاهم الله منها » .

وثمة مقاطع من التاريخ العربي Framgenta Historicorum Arabicorum p. 17. (cf. p. 33) تورد « ان سليمان بن عبد الملك دأب على

(1) يمكن المقارنة بين هذه الأرقام وبين الأرقام التي نقلها لنا ابن خرداذبة (طبعة دي غويه) ص 11 فهذه المبالغ وان كانت صحيحة فيما يتعلق بالسواد فقط ، فان ارقام ابن خرداذبة تكشف لنا عن حالة البلاد بعد الحجاج . بيد انني لا اعلق كبير اهمية على تلك المبالغ بقدر تعليلي على الملاحظات التي اضافها للمؤرخون عليها .

معالجة السلبيات التي خلفتها سياسة الحجاج ، حيث كرست فكرة بالغة السوء لحكم الوليد ، مستمدة من العنف والارهاب اللذين اقترن بهما حكم واليه ، الذي ادى الى جذب البلاد وافقارها .

ومن اليسير ان نرى هذه الملاحظات صادرة عن نفوس متفاوتة العداء لحكم الحجاج ، وانها قد لا تمثل حالة هذه البلاد الا بعد الحرب الاهلية التي فجرها ابن الاشعث ، حيث كانت المجابهة مسألة حياة او موت بالنسبة للأسرة الاموية الحاكمة . ولكن هل باستطاعتنا النفي بأن هذه الحرب لم تأخذ اهميتها التي اتخذتها في العراق ، دون مشاركة ضحايا الادارة ونظامها الضرائبي ، الذين قاوموا حتى آخر قطرة من دمائهم ؟

بيد ان الحجاج اذا لم يكن مسؤولاً عن تلك الحرب ، فانه على الاقل يتحمل نتائجها الخطيرة ، التي جرّت الى خراب ولاية مهمة . وقد يعترض احدهم قائلاً ، بأن الحجاج لم يكن في كل ذلك سوى مجرد وزير في بلاط دمشق ، وبأن سيطرة الجنس العربي على العناصر الاجنبية ، كانت تتوافق ومصالح الخلافة الاموية ، التي وضعت في الاصل اساس هذه المعادلة .

على انني ساكون آخر من لا يعترف بصحة هذا الاعتراض ، وليسمح لي بأن أرد عليه بملاحظة ليست أقل حقيقة : ان افتقاد سلطة ، كتلك التي كانت في قبضة الامويين ، بات امراً مؤكداً ، وذلك في اللحظة التي برهنت فيها الاحداث ، على ان النظام الذي ربطوا مصيرهم به ، لم يعد ثمة ما يسوغ بقاءه .

وهذا ما يبدو (فون كيرمر) مسلماً به ، عندما يتحدث عن الاساليب التي استخدمها الحجاج لاحباط مقاومة الموالي بقوله : ان تلك الاجراءات القمعية ، دمرت الامل الذي كان يراود الموالي المستجدين في الاسلام ،

بالمساواة مع العنصر الحاكم . وإذا ما لجأنا الى التسؤل عن سبب انهيار الامويين ؟ فعلينا البحث بشكل خاص في اسباب تدمير هؤلاء المظطهدين واستيائهم الدائم . ولعلنا سنكون اكثر اهتماماً بصحة هذه الملاحظة عندما نتقل الى دراسة هذه الحالة في خراسان .

-5-

لم يكن قد بقي من خراسان عند وصول العرب اليها ، سوى مجموعة من الولايات الصغيرة ، مقطوعة الاتصال تقريباً عن اية سلطة مركزية حاكمة ⁽¹⁾ ، لا سيما في اعقاب المتغيرات التي تعرضت لها هذه المنطقة والاقاليم الاخرى في آسيا الوسطى ، وذلك عبر مراحل المتعاقبة مع سلالات البكتريان Bactriennes وسيطرة الهندوسكيت Indo- scythe واجتياح الحثيين والهون البيض ، واخيراً الامبراطورية الساسانية .

ومن المؤكد ان السواد الاعظم من سكانها ، كان آري الاصل شديد البنية عريض الصدر كثيف الشعر ، مما يمثل نموذجاً للقوة والحيلاية ، حيث لفت ذلك اعجاب الجغرافيين العرب . ولم يختلف هذا الشعب من حيث الجوهر عن ذلك الجنس المحلي الذي يطلق عليه الرحالة الحديثون (تاجيك) Tadjik . وهذا الاسم كان يقصد به في الاصل العرب Tadjik- tazi («Arabe») . ولكن علماء الاجناس متعصبون لرأهم بأن (التاجيك) بعيدون عن السامية ، وهم يمثلون عنصراً آرياً امتزج بدم طوراني ⁽²⁾ . وهؤلاء

(1) انظر مقالتي Persia, Oxus في دائرة المعارف البريطانية ، وما كتبه Specht في للجلة الاسوية (1883)

(م) ج 2 ص 317 وما بعدها . وكذلك Noldeke في كتابه : Geschichete der perser und :

Arber. P. 17 (N. 5) P. 115 (N. 2).

(2) Khanikoff: Ethnographie de la perse p. 87 suiv. Quatrefages et Hamy: Crania

Ethnica p. 503.

(التاجيك) كانوا يشكلون الفئة الأصلية السفلى من السكان ، بينما كان لطبقة الدهاقين (وهم ملاكو الارض وزرّاعها من الفرس) نفوذ كبير ، لا سيما في بلاد ما وراء النهر ، حيث كانت لهم الممتلكات الواسعة ، اما البخارا خوده Bokharakhodeh ، أو امراء البخاري ، فقد كانوا من اصل « دهقاني » ايضاً ^(١) . وفي (هراة) كان يحكم « دهقان » الى جانب امير غريب ^(٢) ، كما كان مركز هؤلاء الاشراف من ملاكي الارض ، ينحصر لتقلب الظروف والاحوال المحيطة بهم . ولكن هذا لا يمنع ان يكون الدهقان احياناً كما لاحظته نولدكة Noldeke ^(٣) ، فلاحاً بسيطاً وفي احيان أخرى من الاشراف ، الذين يملكون مقاطعات (رساتيق) بكاملها .

ولقد حكم هذا الشعب امراء من قدامى الاقطاعيين في الامبراطوريات الواسعة ، حيث تشير اسماؤهم غالباً الى اصولهم التركية او المغولية ^(٤) . وفي اثناء الاجتياح العربي كان امراء من سجستان (رتبيل) ^(٥) ، ومن سمنجان وروب Simindjan et Roubkhan (الروبخان) ^(٦) ومن جوزجان (al- Djouzedjan) ^(٧) ومن الخزر Khozar (سبقرى ؟) ^(٨) ومن الختل

(1) Nerchakhi: Description de Bokhara (ed. Schefer) P. 6.

(2) الطبري : 2 / 1636 .

(3) Geschichte der perser und Arber. P. 440 .

(4) ان الاسماء الواردة هنا مأخوذة عن تاريخ الطبري . ويمكن استخدامها في استكمال اللامعة التي ذكرها ابن خرداذبة (طبعة دي غويه ص 28) .

(5) الطبري : 2 / 1036 . ابن خرداذبة ص 29 .

(6) نفسه : 2 / 1219 .

(7) نفسه : 2 / 1206 .

(8) مكتوبة بهذا الشكل بالعربية . الطبري 2 / 1448 .

Khottal (السبل al- Sabal)^(١) ومن بدغيس Badhghis وطخارستان
Tokharstan (جيغويه Djighoyeh ، الشذ al- Chadh ، نيزك^(٢))
(Nizak) . ومن مروروز Marwaroudh (بذا م Bodhàm)^(٣) ومن
الطالقان Talquan (سهر ك Sahrak)^(٤) ومن الفرياب (Faryab Tousik)
(توسك)^(٥) ومن بلاد ما وراء النهر Transaxione السغد ومن سمرقند
(ترخون Tarkhoun)^(٦) وغوزك (Ghozak)^(٧) . ومن فرغانه (اخشيد
والتار Al- tar Ikhchidh)^(٨) ومن كي Qi (ترك خان Torkkhakan)^(٩)
ومن كش (ويك Wik)^(١٠) ومن شومان (فيلسنشيب باذق ؟ أو
غيسلستان ؟)^(١١) وفي كابول كان يقيم كابول شاه^(١٢) واحتفظ مرازمة
الامبراطورية الساسانية باستقلاليتهم في مرو و مروروز وسرخس وطوس
وهراة وقوهستان ، كما كان يحكم بلخ الاصبهيد Ispehbedh^(١٣) . وقد

-
- (1) نفسه 1040/2 و 1224 . وهو من القاب الشرف عند الصينيين .
 - (2) كان جيغويه ملكاً يقيم بالقرب منه احد اشراف الصين الذي يتخذ لقب شذ (Chè- tsz) بالصينية ،
واما نيزك ترخان فهو من اتباع ملك طخارستان ويقيم في بدغيس . الطبري 2/ 1184- 1206- 1221
 - (3) الطبري 2/ 1206 .
 - (4) نفسه .
 - (5) نفسه .
 - (6) نفسه 1146 .
 - (7) نفسه .
 - (8) نفسه 1242- 1440 .
 - (9) نفسه 1422 .
 - (10) نفسه 1146 .
 - (11) نفسه 1226 .
 - (12) نفسه 1206 .
 - (13) نفسه .

خضع معظم هؤلاء الأمراء المحليين للسيطرة العربية دون مقاومة تذكر ،
وبادروا الى اعتناق الاسلام (على غرار دهاقين العراق) وتعايشوا بسلام مع
أسيادهم الجدد ، ومن ثم أصبحوا (باستثناء حالات خاصة لا بد منها)
موضع ثقة الأمراء العرب وأصدقاءهم المقربين . كما كانوا يقاتلون إلى
جانبهم ضد أتراك ما وراء النهر ، ويخصّون الزعماء العرب بأفضل الاحتراف
والتكريم ، فيستقبلونهم في قصورهم ويتزلفون اليهم بالهدايا الثمينة ، التي
تقدم في يوم رأس السنة وعيد المهرجان (1) .

وليس من العسير ان ندرك في هذه الاثناء ، بأن ذلك التكريم كان له
وجهه الآخر ، ولا ندهش ابداً بعد ان وقفنا على طبيعة الادارة العربية - هنا
أم في اماكن اخرى - اذا ما رأينا استغلال اشراف البلاد للفتوحات ، من
خلال هذه العلاقة بعمال الخراج ، ومن ثم الاغتناء على حساب رعاياهم .
وما وصل اليها عن اعتقال العديد منهم بتهمة الاختلاس ، لا يرقى الى ما
ذكره الترشيخي في كتابه « وصف بخاري » واعلانه بياناً محمداً في هذا
المجال ، تتضح قيمته في كونه استكمالاً لغير عادي لما اورده الطبري من
احداث العام 121 للهجرة . ومن ذلك ما رواه هذا الاخير عن اثنين من
الدهاقين ، وصف ما قاما به بأنه خيانة غريبة ، لاقدامهما على قتل
« تغشادة » امير بخارى وعامل الخراج العربي ، في نفس الاقليم ، وذلك في
حضور نصر بن سيار ، - الوالي الاموي في خراسان - دون ان يطلعنا على اية
خلفية لهذه المبادرة الجريئة . وستوقف الآن عند رواية المؤرخ البخاري ،
مترجمة عن كتاب Schefer شيفر . (1, 44; cf. Chrestomathie Persane
P. 95 suiv.) : كان نصر بن سيار على تقدير رفيع لتغشادة ، حيث اقطعه

(1) نفسه 1195، 1228، 1444-1448 .

ضبيعة له وزوجه احدى بناته . وقد حدث ان زار هذا الاخير نصراً في فسطاطه ، في وقت طلب الى اثنين من الدهاقين يتميان الى اسرته ، المثل لدى الامير الاموي ، وكان كلاهما على جانب عظيم من الجاه والنفوذ في تلك المنطقة ، فضلاً عن ايمان بالاسلام ، تفاخرا به حين اصبحا بين يدي الامير . ولقد احتج كل منهما بشدة على استبداد تغشادة واستيلائه على ممتلكاتها بالقوة . وكان عامل بخارى واصل بن عمرو حاضراً هذا الحديث ، فطلب الدهقانان من ابن سيار ان ينصف ما بينهما وبينه . فقد زعما ان تغشاده وواصل ، مشترك في الاستيلاء على املاك الآخرين . تلك هي الدوافع التي دفعت هذين الرجلين الى الانتقام بهذه القسوة ، وفي الوقت نفسه كانت سبباً في اقتضاب رواية الطبري والتباسها حول هذه الحادثة .

وقد نتساءل اذا كان هنالك ما يحول دون اعتقادنا بأن احداثاً كذلك لم تقتصر على اقليم بخارى فقط ، واذا ما كان في حوزتنا المزيد من هذه المجموعات الاخبارية شأن مجموعة الترشيحي التي امدتنا بأكثر مما اشار اليه الطبري وغيره ؟ ومهما كان الامر فقد شاءت الصدفة ان يكون اقليم ما وراء النهر مصدر الضوء الذي كشف لنا الغموض عن نتائج الفتح العربي . ذلك الاقليم الذي ارتبطت بمصادرنا عنه معطيات ليس علينا سوى الاخذ بالطريق الذي خطته لنا .

ومن الجائز الافتراض ونحن نرى ممثلين لدين محمد وقد اعفوا من كل عبء وتقاسموا الغنائم المأخوذة من الكفار ، لم نجد ما يشير الى تخلص الخراسانيين من حمل تلك الضرائب رغم اعتناقهم الاسلام كما حدث للعراق من قبل . وكانت الضريبة التي تجبى من الخراسانيين تُسمى حيناً بالجزية وحيناً آخر بالخراج (١) : ولكن بمقدورنا الاستنتاج بأنه لم يكن في تلك

(١) استخدم هذان المصطلحان متداخلين مع بعضهما البعض . الطبري 2/ 1508 (6-8 و 13 و 14) .

الولاية سوى ضريبة موحدة كانت تدفع نقداً . وهذا ما يؤكد قول الطبري (1507/2) : « خراج خراسان على رؤوس الرجال » وكذلك اليعقوبي « وخراجهم على رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ الجزية » (طبعة هوتسما Hotsma ص 207)⁽¹⁾ .

ولا بد من الإشارة الى ان امراء الاقاليم (الكور) المختلف في تلك الولاية ، قد عقدوا مفاوضات سلام مع الفاتحين العرب ، على ان يدفعوا لهم ضريبة سنوية محددة . وكانت قيمتها موزعة بين السكان ويشرف على دفعها كما يبدو عامل الخراج ، بمساعدة « دهقان » او غيره من الامراء الحاكمين⁽²⁾ . وقد استخدمت عائدات هذه الضرائب بصورة عامة في الاتفاق على جيوش الاحتلال . فكان ثمة تعارض بين اتجاهين متناقضين المصالح اثارته قضية اعفاء المسلمين الجدد :

1 - مصلحة الدولة ممثلة بالوالي ، التي لا تستطيع الامتناع عن دفع رواتب الجند .

2 - مصلحة سيد الاقليم الذي اختص نفسه من دون ريب بالفائض من هذه الضريبة .

وكان من نتائج ذلك ظهور مشكلة مماثلة لتلك التي رأيناها في العراق . ومن أجل ارضاء العرب المرابطين ، المتزايدة نسبتهم العددية باستمرار ،

(1) تعود هذه الطريقة في جباية الضرائب الى العهد الكسروي ، الطبري (1/ 2371) . « واطر السواد فمة ، واخلوهم بخراج كسرى . وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في ايديهم من الحصاة والاموال » (باللغة العربية) .

(2) Von Berchen: La Propriété territoriale et l'impôt foncier p. 54 suiv.

حول (مرو) انظر الملحق رقم (1) .

رأت السلطة نفسها مجبرة على تحصيل الجزية من السكان حتى بعد اعتناقهم الاسلام ، حيث كان زعماء البلاد الذين وجدوا مصلحتهم في ارتفاع عائداتهم المالية ، دون ان يخامرهم القلق الشديد على ما أحرزه الاسلام من تأثير على رعاياهم واستهواء له في قلوبهم . وسنلمح في مجال تدعيم هذه الثابتة الى محاولتين ، كان الهدف من ورائهما تحسين اوضاع اولئك المستجدين في الاسلام ، ومن ثم تخصيص الفصل التالي لشرح الدوافع التي كانت وراء ذلك .

لقد كان عمر الثاني (ابن عبد العزيز) اول من امر (الجراح) واليه على خراسان ، ان يرفع عن المسلمين الجدد الجزية التي يدفعها الكفار . وقد اعطى هذا التدبير ما يسهل التنبؤ به من النتائج .

وكان ارتفاع عدد الذين اعتنقوا الاسلام بفضل هذه السياسة ، قد ادى الى نقص محسوس في واردات بيت المال (١) . ومن اجل تطويق هذه الكارثة لجأ البعض الى اشتراط الختان والالمام بالقرآن . غير ان ذلك لم يحقق اية فائدة تذكر ، وكان لابد من العودة الى الجزية او افتقاد ثمرات الفتح . ولكن الخليفة الذي يبدو انه قلّر سلفاً نتائج هذه السياسة ، لم يتراجع عن قراره الذي التزم به ، ولم يعد ثمة اختيار سوى الاقتراح على العرب بالجلاء عن بلاد ما وراء النهر (٢) . الا ان اقتراحه هذا لم يؤخذ بصورة جدية ، وما لبث خلفاؤه بعد موته المفاجيء ، ان بادروا بفرض ضرائب ثقيلة ، في سبيل تعويض النقص القائم في عهده . وهذا ما تشير اليه رواية الطبري عن تلك الهجرة الجماعية ، التي شهدتها منطقة « السغد » في عهد واليها الذي جاء

(١) الطبري : 1354/2 .

(٢) نضه : 1365 .

بعد (الخراج) (١) . وكان ذلك ايذاناً باندلاع الحرب في بلاد ما وراء النهر ، حيث طلب أهل السغد مساندة الأتراك في الوقت الذي اقتضت فيه سيادة العرب على المراكز الحصينة فقط .

وجرت المحاولة الثانية بعد ذلك بسبعة أعوام ، . وذلك في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك . وكان رائدها والي خراسان آنذاك ، الأشرس بن عبد الله الملقب بالكامل ، الذي وضع خطة لإنهاء الحرب في تلك البلاد الجميلة ، الواقعة على الضفة المقابلة لنهر (سيحون) . ونحن مدينون للطبري بسرده المفصل عن سياسة ذلك الأمير وانطلاقته الإصلاحية المتميزة : « ابغوني رجلاً له ورع وفضل أوجهه أو إلى ما وراء النهر فيدعوهم إلى الإسلام » فأشاروا عليه بأبي الصيذاء صالح بن طريف مولى بني ضبه . ولما كان هذا لا يعرف الفارسية الحق به الربيع بن عمران التميمي مترجماً له . وقد شخص أبو الصيذاء إلى سمرقند حين أذن له الأشرس برفع الجزية عن أسلم ، ثم طلب من أصحابه أن يعينوه إذا ما أبى جباة الخراج العمل وفق سياسة الوالي الجديد ، (الطبري 2/1507 وما بعدها) وكان غوزك أمير السغد يقيم في سمرقند ومعه عامل الخراج حسن بن أبي العمرطة . وكان هذا الأخير رجلاً نزيهاً يخالف الكثيرين من مواطنيه في نظرتهم إلى الفتح العربي . ولم يكتف القبول أن هذا الفتح (وهذه هي الحقيقة) ، لم يكن إلا طفيلياً ، ليس للدين من دور فيه سوى القليل جداً (٢) ومن الطبيعي أن تلقى جهود أبي الصيذاء ومعاونه منذ البداية حظها المرجو من النجاح . غير أن هذه النتائج الطيبة من تحول الكثيرين للإسلام

(١) الطبري 2/1418، 1439 وما بعدها .

(٢) هذا ما استنتجته من جوابه عندما تنأى إليه نبأ هجوم قريب لسبعة آلاف من الأتراك حيث قال : « ما أتونا بل أتيناكم وغلبناكم على بلادهم واستعبدناهم » الطبري 2/1485 . وسنرى قريباً بأنه لم يكن الوحيد الذي يفكر من هذه الرؤية .

الى بناء المساجد ، لم تلق موقفاً حسناً من الامير غوزك ، الذي كان يرى من منظوره الواقعي ، ما تسفر عنه من انخفاض في عائداته فضلاً عن السلطة . وقد اسرّ بمخاوفه هذا الى الاشرس الذي كتب بدوره الى عامل الخراج : « ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل السغد واشباههم لم يسلموا رغبة وانما دخلوا في الاسلام تعوزداً من الجزية . فانظر من اختتن واقام الفرائض وحسن اسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه » وهكذا استسلمت نوايا الوالي الحسنة امام حجج الامير ، فعزل ابن ابي العمرطة وعين مكانه هانيء بن هانيء على ان يكون « الاشحيد » مساعده الفارسي .

وكان الهدف من ذلك بدون شك ، هو القضاء على منجزات ابي الصيда . وعبثاً كانت صرخة المسلمين الجدد واحتجاجاتهم القائلة : « نحن تأخذون الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً » . وعبثاً كان احتجاج ابي الصيда من ناحية اخرى ، فاقصر الامر على رسالة اخرى الى الاشرس ومن ثم جواب وحيد منه : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » . وهكذا بدأت روح التمرد تسيطر على اولئك المستجدين في الاسلام بعد ان تلاشت امالهم في المساواة ، وقد وقف معهم في قضيتهم بعض المتتورين من الجند والفقهاء من العرب والموالي على السواء . غير ان السلطة الاموية بادرت فوراً الى ارسال قائد من العاصمة ، لم يلبث ان قبض على زعماء العصيان ، الا ان هذه العملية لم تخل من حركة عكسية شاملة ، رافقها الكثير من القمع والملاحقة ، دون مراعاة احد حتى المستضعفين منهم .

وقبل مناقشة هذه الاحداث بشيء من التفصيل ، ارى من المفيد العودة مرة اخرى الى مؤرخنا البخاري . ولعل في مقدورنا الاستنتاج من ملاحظة الطبري (1. 1. P. 1508 1. 12) ، بأن محاولة الاشرس لم تكن محصورة فقط في (السغد) ، وانما ظهرت نتائجها ايضاً في بخارى . وهذا ما نقف عليه لدى

النرشخي (Schefer, chrestomathie persane 1. P. 42 suiv. O. P. 58
de L'édition):

ثار احد اهالي بخارى في عهد ولاية اسد بن عبد الله على خراسان ٣
وحدث الناس على الدخول في الاسلام . وكان السواد الاعظم من الاهلين لا
يزال على الكفر ، ومن ثم كانوا يدفعون جزية الرؤ وس . وقد احفظ بخارا
خوده تغشاده ، اقتناع الكثيرين منهم بصحة الاسلام واعتناقهم له . ولا
غرو فقد كان لا يزال يبطن الكفر رغم اظهاره الاسلام ، فكتب الى اسد بن
عبد الله ان يبخارى رجلاً يعكر صفو الامن ويلقي بذور الفتنة ويشق عصا
الطاعة ، وان اتباعه يزعمون انهم مسلمون وليسوا بمسلمين . فانهم لم
يسلموا الا بالستهم ، اذ لا تزال عقائدهم القديمة متأصلة في نفوسهم . وانما
اتخذوا هذا ذريعة لاثارة الفتنة في المدينة واقلاق بال الحكومة وانصاب بيت
المال . ونتيجة لذلك كتب اسد بن عبد الله الى مثله (مقاتل شريك بن
الحارث ؟) ، موعزا اليه القبض على هؤلاء القوم وتسليمهم الى تغشاده

(1) هذا الكاتب لا يوافقنا في الرأي ، ذلك ان الحوادث التي عرضنا لها هنا قد وقعت في املرة الاشرس .
فقد تولى اسد بن عبد الله خراسان مرتين : من سنة 106-109 هـ . ومن سنة 117-120 هـ . وقد
استبدل بعدها بالاشرس في سنة 109 هـ . وليس مستبعداً في رأي ان ما نعي اليه قد حدث في ولاية
خلفه . ولم يشر الطبري الى تلك المحاولة التي استهدفت تحويل بلاد ما وراء النهر الى الاسلام في عهد
ولاية اسد ، وكذلك جاءت اخبار النرشخي مقتضبة ويغلب عليها الخطأ والالتباس سواء في الاسماء
او التواريخ . ولدينا مثالين في هذا المجال (ص 16) : فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى في عهد
معلوية (والصحيح في عهد الوليد الاول) ، حيث أقر تغشاده « بخارا خوده » تلك المدينة في مركزه .
ثم قتل على يد ابي مسلم في سمرقند اثناء ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وذلك بعد علمين من وفاة
قتيبة ، وقد امضى في الحكم زهاء اثنتين وثلاثين سنة . وهذا يعني ان وفاة قتيبة قد حدثت سنة 96
هـ ، بينما لم يظهر نفوذ ابي مسلم الا في سنة 129 هـ ، اما وفاة تغشاده فكانت تحديداً سنة 121 هـ .
(ص 43) . وفي سنة مائة وست وخمسين (772 م) توفي أسد بن عبد الله بن مروان . ومات اسد
سنة 121 هـ وكان جده يزيد .

استجابة لرغبته . وقد روى ان المسلمين الجدد احتجوا على ذلك ، بالتجائهم الى المسجد الكبير ورددوا بأصوات عالية « ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله » . . « واحمداه واحمداه » (٣) . ولقد اعدم بخار اخوذه اربعمائة من هؤلاء وعلق رؤوسهم دون ان يشفع لهم احد وامسرق الآخريين منهم بأسم سيده اسد بن عبد الله وأرسلهم اليه في خراسان ، على ان هؤلاء الذين نجوا من الموت ، لم يرتد احد منهم عن الاسلام ، ولكنهم

ظلوا جميعاً على ايمانهم به ، يمارسونه تحت حماية اسد بن عبد الله (٤) ، وما لبثوا ان عادوا الى بخارى بعد موت تغشاده .

ولعل ما اورده الترشيحي من التفاصيل جاء في الوقت المناسب وهو من القيمة على قدر كبير ، خاصة في تحقيق رواية الطبري . وليس ثمة شك ان ما نقله الينا الترشيحي ، لم يكن مصدره سوى تلك المعلومات المقتضبة التي رواها المؤرخ العربي . ولذا فان مؤرخ بخارى قد نقل الينا الاحداث من وجهة نظر الادارة الاموية ، لان التقليد المحلي الذي اعتمده هو ان يستقيها من اولئك المسلمين القدامى وان يحفظها عنهم . ومع هذا فان اكثر ما اثار دهشتي في رواية هذا الاخير ، من تأكيد لافتراضنا الذي ذهبنا اليه من ان تدابير كل من عمر الثاني والاشرس ، اضررت بمصلحة اشراف البلاد بالقدر الذي اضررت فيه مصلحة بيت المال . ومن الجائز القول ان الفشل الذي احاق بها ، انما يعود اساساً الى تلك العقوبات التي وضعها هؤلاء الاشراف .

(1) انظر الانساب للبلاذري (طبعة Ahlwardt) ص 336 وما بعدها . وكذلك حمزة الاصفهاني في (طبعة Gottwaldt) ص 208 .

(2) كل ما في الامر ان اسداً متحهم الحرية (انظر الطبري 2/ 1161) حيث نقرأ (سنة 119) « فبعث اسد بجواري الترك الى دهاقين خراسان واستقل من كان في ايديهم من المسلمين » . وهذه العبارة قد تظل غامضة اذا لم نعرف من الترشيحي ما كان يجري آنذاك في بخارى .

ومهما كان رأي مؤرخنا في ذلك فان الكراهية الدينية لم تكن بالتأكيد الدافع الذي حرض بخارا خودة للوقوف في وجه هؤلاء المسلمين الجدد . فكل ما لدينا من مؤشرات انما تدل على طغيان ذلك الامير ، الذي كان رغم انتمائه الى الاسلام ، يجد في تحول جماعته الى هذا الدين ، ما يحرمه من وسيلة فريدة لاستغلالهم . ولعل ما هو اشد سوءاً من ذلك ، هنا أم في الرواية المذكورة آنفاً ، رؤية الموظف العربي منضماً الى ذلك الامير المستغل وذلك على حساب تقدم الاسلام وانتشاره .

وهكذا فانه من البديهي ان ترتفع في خراسان كما في العراق ، الحواجز والعقبات وذلك على المدى البعيد في وجه النظام الذي أقره عمر . وهنا ارى وجوب اعادة طرح السؤال عن سبب استمرار هذه المخالفات المؤسفة ؟ فقد يكون الهدف منها تثبيت احتلال لم يعد من مسوغ له بعد تحول سكان البلاد المحتلة الى الاسلام . ولم يكن هذا بالتأكيد رأي الغالبية من العرب في القرن الاول الهجري . فهوؤلاء (كما نعلم) كانوا يعيشون في الاعتقاد ، بأن خيرات الشعوب الخاضعة لهم ، انما هي ثمرة مشروعة لارتباطهم بالاسلام وإخلاصهم له ، دون ان يعوا التناقض القائم بين هذه الرؤية وبين الاتجاهات العالمية لهذا الدين . ولكن هل يبقى ثمة مجال للاستغراب عندما نرى في الولايات الشرقية من دولة الاسلام ، ظهور حركة تأويلية اقل التزاماً بقوانين الاسلام ، وهي حركة مناوئة للعرب والامويين معاً ، حيث لم يشأ الفاتحون ولا الحكومة بعد ذلك الاستجابة لمطالبها المحقة .

- 6 -

ثمة رواية موثوقة لكاتب كبير ، ان موالي البصرة والمناطق المجاورة لها الذين طردوا بأمر من الحجاج (انظر ما سبق ص 17) تجمعوا في احد

المعسكرات معبرين عن مأساتهم بترديد : وإعمداه ، حيث لم يعرفوا آنذاك اي طريق يفضون اليه . « ومن ثم نرى اهل البصرة يتحللون الاعذار ليلحقوا بهؤلاء الموالي ويشتركوا معهم في نعي ما نزل بهم من حيف وظلم » (١) وثمة مصدر آخر « يشير الى ان هؤلاء البصريين كانوا من القراء ، المشتغلين بالدراسات الدينية . وقد شاركوا في وقت لاحق بدور عظيم الالهية في ثورة عبد الرحمن بن الاشعث ، لا سيما في خطاباتهم الملتهية ، المحرّضة على المقاومة ضد جيوش السلطة . فكان من اقوالهم (٢) : « فوالله ما اعلم قوماً على بسيط الارض اعمل بظلم ولا اجور منهم في الحكم . فليكن لهم البدار . قاتلوهم ولا تأثموا من قتلهم بنية ويقين ، وعلى آثامهم قاتلوهم وعلى جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين » هذه العبارات التحريضية تبين لنا حقيقة واضحة ، هي ان هؤلاء القراء كانوا اصلاً من المسلمين الجدد ، ولكن المهنة التي شغلوها ، اعفتهم من مشاركة مواطنهم في المصير . ومهما كان الامر فلم يدخر المضطهدون وسعاً في الاعتماد على تعاطف هذه الطائفة التي حظيت بكثير من احترام الطبقة الحاكمة نفسها ..

ولم يكن اولئك القراء وحدهم في الكراهية للادارة الاموية . فما يميز جيداً تلك الحقبة ، ان نرى في الوقت نفسه انفجار شمالي العراق بحركة يقودها شريف قرشي (٣) هو مطرف بن المغيرة بن شعبة ، الذي كان يدعو الى العدالة والمساواة في الحكم (٤) . ويجد القارئ تفصيلاً لثورته في كتاب :

Weill (Gesch. d. Khalifen 1, 422)

(١) البلاذري : أنسب ص 336 وما بعدها .

(٢) الطبري : 1123/2 .

(٣) 1086/2 و 1116 .

(٤) الطبري : 980/2 الحكم بالحق والعدل في السيرة (باللغة العربية) .

(٥) المطرف بن المغيرة ، ينتمي الى ثقيف وليس الى قریش (المترجم) .

والحقيقة أن الوقت لقيام مثل هذه المحاولة وقطف ثمارها لم يكن قد حان بعد ، فسرعان ما دفع مطرّف حياته ثمناً لذلك . وعلى الرغم من فشل هذه المحاولة الاصلاحية ، إلا أن الرغبة في العدل وهو ما كانت تصبو اليه في الاساس ، لم تفتقد جذوتها ، ولم يلبث اتجاه مطرّف الاصلاحى أن ظهر مجدداً لدى قرشي آخر لا يقل شهرة ، هو الخليفة عمر بن عبد العزيز .

لقد كان تقويم الكتاب الغربيين سلبياً الى حد كبير لاصلاحات هذا الخليفة ، الهادفة الى ازالة العقبات التي اعترضت انتشار الاسلام ، وذلك بمنح الموالى الحقوق نفسها التي نعم بها المسلمون العرب ، ومن ثم اعفائهم من جزية الكفار والاستفادة من الاعطيات السنوية (1) .

الحقيقة ان الظروف كانت تضغط آنذاك في اتجاه العودة الى تفاصيل النظام الذي اقره عمر الاول ، ولكن تدابير الخليفة الاموي لم تضيف شيئاً سوى ايقاظ آمال ، كان الحكم عاجزاً عن ارضائها . ففي العراق استنفدت الاعطيات الجديدة بيت المال الذي عانى (كما رأينا) من نقصان كبير في موارده بعد إلغاء الجزية في خراسان ، وقد ادى هذا الاضطراب المالى الى سياسة ضريبية اكثر ظلماً من اى وقت مضى ، بعد وفاة الخليفة .

وعلى الرغم من ذلك فينبغي تجنب الحكم بقسوة على اصلاحات عمر بن عبد العزيز . واعتقد انه من الانصاف ان نتقدم لهؤلاء الذين قد يجذبهم التحزب للحجاج بن يوسف ضد هذا الخليفة بالسؤالين التاليين : 1 - ألم تكن في مصلحة الامويين محاولة المساواة بين الاجناس التي كانت من خلال اوضاعها غير المتكافئة معهم ، السبب الرئيسي في خراب امبراطوريتهم ؟

Von Kremer, culturgeschichete I, 174 suiv. Müller, Der Islam in morgenud (1) abendland I, 438 suiv. Warner

2 - واذا لم يكن في ذلك مصلحة الاسرة الاموية ، فهل كان في مصلحة الاسلام فرض معادلة كهذه ؟ ان احداً لا يستطيع حسب اعتقادي مناقشة هذه الملاحظات لا سيما الاخيرة . فالتنظيم الحربي الذي وضعه عمر الاول قد استكمل مهمته قبل مجيء عمر الثاني الى الخلافة . وفي عهد الوليد بلغ الفتح العربي الى حدود لم يستطع ان يتخطاها بعد ذلك ، فعلى جبهة البرينية في المغرب أو الهضبة الكبرى في آسيا الوسطى في الشرق ، كانت الحواجز الطبيعية تتصدى لاسلحة الاسلام . لقد بدا حينذاك ان زمن الاصلاح الداخلي قد آن اوانه . فكان عمر على أتم الاقتناع بذلك ومعارضاً لاية فتوحات جديدة « . ولكن خطأ هذا الخليفة كان في سلفيته ومخافته الدينية ، ومن ثم تقديره العظيم لنهج الخليفة الثاني (سميّه عمر بن الخطاب) ، حيث لم يشأ أي تعديل في النظام الذي وضع اسسه هذا الاخير . ذلك ان الظروف المستجدة فرضت وضع حد نهائي لهذا النظام ، حيث كان على الدولة توفير اعمال اخرى للجيش العربية المربطة في الولايات ، بدل استمرارها عبثاً شديداً عليها . فقد حالت قوانين عمر دون اعطاء الاراضي لجند الحاميات ، في وقت كانت الحاجة تقضي بمنحهم اياها لاستغلالها ، وتقضي كذلك بالغاء الاعطيات السنوية التي منحت بشيء من السخاء حتى للموالي .. وهذا ما كان له أسوأ الاثر على خزانة الدولة واستفادها ، وحال دون اتخاذ اي تدبير نافع في هذا السبيل : اعفاء المسلمين الجدد من الجزية . ومن هذا المنظور فإن عهد عمر الثاني وجّه للاسرة الاموية ضربة اكثر عنفاً من ادارة الحجاج بن يوسف نفسه . اما الآمال التي انتعشت في النفوس ، فلم تحب جذوتها مطلقاً ، حيث اصبحت الشعوب غير العربية تنتظر خلاصها بفارغ الصبر ، تحت تأثير ما عكسته السيامة الضرائبية التي

(1) انظر ما سبق (ص 22) الاجل .

تجاوزت بنظرهم حدود الاحتمال ، خاصة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (1) .

- 7 -

من الاهمية تتبع الحركة الاصلاحية التي حرضت عليها الادارة الاموية في خراسان . فمن هناك (كما نعلم) جاءت الضربة التي ستطيح بامبراطوريتهم بعد حين . ولعله من محاسن الصدف أن يكون في حوزتنا من المعلومات ، ما يتيح لنا البحث في تطور حزب المعارضة في هذه الولاية ربما بدقة تتجاوز اي مكان اخر .

ولقد أشرنا سابقاً (انظر ص 23) الى ان خضوع (السغد) لنظام الضرائب الجديد الذي فرض عليهم ، لم يردون معارضة بعض الرجال ذوي السلطة والامتيازات . وفي طليعتهم اثنان من زعماء الموالي (ابو الصيداء الذي سبقت الاشارة اليه وثابت قطنه) (2) . وكان هذا الاخير معروفاً في خراسان ويتمتع بشعبية واسعة ، كما كان شاعراً متميزاً ، حفظ لنا كتاب الاغاني بعض قصائده (ج 13 ص 49-64) . وقد عرفته حروب الترك وراء النهر فارساً ومقاتلاً شديد المراس ضد الكفار ، حيث لقي حتفه بعد حين في ساحة الحرب (3) .

ولقد شغل قبل ذلك دوراً كبيراً في ادارة الوالي الشهير يزيد بن المهلب ، حيث كان من حلفائه المقربين (4) . ونتيجة لذلك فقد اعتبره العرب متساوياً

(1) حول العراق ، انظر اليعقوبي 376/2 .

(2) الطبري 1509/2 .

(3) نفسه 1514/2 وما بعدها .

(4) الاغاني 49/13 .

معهم . وانه لجدير بالاهمية التعرف الى موقع هذا الرجل من تلك الاحداث . ذلك ان والي خراسان وضعه في السجن مع ابي الصيداء بغية التفرغ لقتال السغد والقضاء على ثورتهم ، حيث لقي كما يبدو النجاح المطلوب . على ان غزو الاتراك في بلاد ما وراء النهر (١) الذي شغل وقتاً هاماً السلطة ، وحدث مرة اخرى موقف الناقمين عليها الذين تكتلوا لمجابهة الخطر المشترك .

وكان ثمة تميمي يدعى الحارث بن سريج بن ورد بن سفيان بن مجاشي (٢) قد برز في هذا الحرب ، أخذاً على نفسه متابعة الموقف الذي بدأه كل من ثابت وأبي الصيداء . وقد عرف عنه انه كان مسلماً ورعاً متقشفاً ومصلحاً ، حيث شارك حيناً العرب في قتال الترك وحيناً إلى جانب هؤلاء ضد العرب أو بالأحرى ضد السلطة الحاكمة ، ومن ثم كان متعاطفاً مع أولئك المضطهدين ومحرراً لهم من الظلم ، حالماً بدور « المهدي المخلص » . وهكذا تظهر لنا شخصية الحارث بن سريج غامضة وغريبة من دون ريب ، ولكن أعماله تلقي الكثير من الضوء على خفايا تلك الحركة الخراسانية وتبدد ما قد يحيطها من الألغاز . . . فقد كان للحارث (٣) دور فعال في محاربة الترك ابان ولاية الأشرس كما سبق أن أشرنا ، ولكنه عدل هذا الدور بعد ست سنوات لاحقة عندما حلّ الجنيد ومن ثم عاصم بن عبد الله مكان الأشرس في ولاية خراسان . وكانت انطلاقته من مدينة صغيرة (النخذ) في طخارستان ، مستهدفاً العاصمة . وكان مناصروه آنذاك من العرب

(1) الطبري : 1510/2 . ارتدت كل من السغد ويخارى عن الاسلام واستجدوا بالترك .

(2) نفسه : 1513/2 . لم يورد الطبري سوى هذين الاسمين : الحارث بن سريج . وقد ورد هذا الاسم في مخطوطة 332 من 390 .

(3) راجع هذه الاحداث في كتابي : Opkomst der Abbasiden P. 51 suiv.

(المتهمين الى الحزبين المتنافرين المضري واليمنى) ومن الفرس (الدهاقين) . اما الطرح الذي جاء به ، فهو العودة الى القرآن وسنة الرسول وانتخاب حكومة تمثل الأغلبية (١) . وما لبث الحارث أن سيطر على المدن المنتشرة على ضفاف نهر سيحون ، ولكنه فشل في الوصول الى العاصمة التي تصدت لهجماته . وجاء تعيين أسد بن عبد الله مع قوات جديدة ، يقضي على مفاوضات مع الأمير عاصم ، كادت تنتهي الى اتفاق وشيك . فلم يجد الحارث بداً من التخلي عن البلاد التي استولى عليها والانكفاء الى طخارستان ومن ثم إلى بلاد ما وراء النهر (118 هـ) ، ليضم جهوده منذ ذلك الحين الى الأتراك في مقاومة العرب . وفي سنة 120 هـ عين الخليفة هشام ، نصر بن سيار والياً على خراسان ، وهو أحد أكثر مشايعي البيت الأموي كفاءة ، فنجح في توطيد السلام في تلك الولاية (123 هـ) . وسعى في الوقت نفسه لدى الخليفة للعفو عن الحارث بن سريج (126 هـ) . ولكن حرب القبائل التي ذرت قرنها في سورية ، بعد موت الوليد الثاني ، اجتاحت آنذاك بقية الولايات ، ومنها خراسان ، خاصة العاصمة مرو حيث تمرد اليمينيون على نصر وبفضل هؤلاء استطاع الحارث الذي كان لا يزال ساخطاً على الادارة الأموية ، طرد نصر من العاصمة ، ولكن النزاع ما لبث أن مزق تحالف الحزبين ، المتناقضة لمصالحهما أشد التناقض . ولذلك يعلن اليمينيون حرباً مكشوفة على جماعة الحارث ، تلك الحرب التي لم تتوقف إلا

(1) اعتقد بأن هذه العبارة يجب ان تستكمل بتقدير هذه الكلمة (الرضى من النبي) (بالعربية) . وتكون الانتخاب من بيت النبي انظر ما كتبه Quatremère في مجلة الجمعية الآسيوية الفرنسية نشرين اول 1835 ص 327 . Quatremère, journal asiatique oct 1835 P. 327 . والمقارنة مع العبارة « من رضي الناس (المسلمون) بتوليته » (بالعربية) والعبارة « من يرضون لانفسهم عل مثل الحال التي هم فيها » الطبري 2/ 499 .

بعد موت هذا الأخير (128 هـ) (١) .

ومن السير علينا الاستنتاج ، بأن هذه الانتفاضة ، لم تكن الا تنمة لحركة سابقة ، خاصة وان اثنين من معاوني الحارث (بشر بن جرمز وقاسم الشيباني) قد قاما بدور كبير اثناء تمرد السغد (٢) . كذلك فإن الدهاقين جمعتهم القضية المشتركة الى هؤلاء المتمردين من صغار ملاكي الريف ، الذين يضطهدهم اشراف البلاد وعمال الحكومة . (انظر ما سبق ص 20) . يضاف الى ذلك ان قسماً كبيراً من مناصري الحارث كان يتألف من سكان القرى الذين وفدوا الى ترمذ وضجوا بالبكاء امام ابوابها ، شاكين ظلم بني مروان (من الامويين) (٣) ، وكانت احدى ابرز مطالبهم ، تعيين موظفين من ذوي النزاهة . ويبدو لنا خلال رواية الطبري (ج 2 ص 1918 وما بعدها) ان السلطة وجدت نفسها مضطرة الى تقديم تنازلات في هذا الموضوع . فتم تعيين مفوضين من الطرفين ، وقع عليهما عبء اختيار الموظفين والبحث في تسوية مرضية لاورشاع الفتنة التي تؤدي الجزية . على ان هذه التنازلات لم تصب المهدف المطلوب ، ولم توقف التدمير الذي تسرب حتى الى حاشية الامير ، فكان الكثيرون منهم موضع ارتياب واتهام بالتعاطف مع هؤلاء المنشقين (٤) .

ولعل ما يكشف لنا بصورة افضل اتجاهات الحارث ومناصريه ، ان

(1) اطلق الكتاب الصينيون على الحارث اسم Hu-Lo-chan de mu-Lu اي حارث المروي (نسبة الى مرو عاصمة خراسان) . انظر كتاب Bretschneider ص 9 . وقد اعتمدت فيما ورد هنا على دي غويه .

(2) الطبري : 2/ 18681 و 1508/2 .

(3) نفسه : 2/ 1583 .

(4) الطبري : 2/ 1920 .

يلقبوا بالمرجئة ، ذلك الاسم الذي اطلق غالباً عليهم ^(١) .

وكانت « المرجئة » تعارض الخوارج تكفيرهم للخلفاء الثلاثة (علي ، عثمان ومعوية) وأنصارهم ، حيث رأت ان كل من يعتقد بوحداية الله ليس كافراً ، فذلك يعود الى الله يوم الحساب ، بصرف النظر عن خطاياهم (في هذه الحالة الاراء السياسية) التي تجعل منه مذنباً ، أي « ارجاء » الحكم على ايمان اخوانهم في الدين لله وحده (انظر القرآن 9 ، 10 ، ١١) .

وما لبثت الامامة ان اصبحت فيما بعد على هامش القضية الاساسية وهي المتعلقة بوضع المستجدين في الاسلام ، وكان من الاهمية ان تلعب المرجئة ذلك الدور التوفيقي في المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين . فليس من حق السلطة حسب رأيها ، ان تعامل هؤلاء بعد اسلامهم ، كما لو انهم كافرون ، ومن هذا المنطلق لم يكن هنالك ما يحول دون مقاومة اية سلطة جائرة تقرر مثل هذا الظلم ^(٢) . ومن خلال تلك الصور المأساوية التي كان مسرحها بلاد ما وراء النهر ، لا يبقى ثمة ما يدعو الى الاستغراب بأن يستنكر هؤلاء « سفك الدماء البريئة » ، ويعلنون بجرأة : « ان كل المسلمين اخوة في الدين » ^(٣) . فكان ما يطمحون اليه في نهاية الامر ان لا يكون في الاسلام اية تفرقة عنصرية .

كان ذلك بدون ريب شعور الاغلبية من مناصري الحارث ، على ان

(1) الطبري : 1575/2 ..

(2) انظر مقالتي في الارجاء في :

«Zeitschrift der Dentshen Morgenlandischen Gesellschaft» XLV. P. 161 suiv.

(3) الاغاني : ج 13 ص 53 ، 55 . للقريري ، الخططج 2 ص 349 (انظر جهم بن صفوان) . وفي العراق نرى بعض المرجئة يقتلون الثائر يزيد بن المهلب . الطبري : 1349/2 وما بعدها .

(4) الطبري : 1931/2 وما بعدها . الاغاني : 52/13 (ص 1) .

بعضهم ذهب بعيداً ، ليضمن عقيدة التوحيد معنى اخلاقياً ودينياً عميقاً ، اذ يجب ان تكون حسب زعمهم اقتناعاً خاصاً واعتراضاً من القلب . وقد غي الى جهنم بن صفوان أحد هؤلاء المرجئة وأوثق المتصلين بالحارث بن سريج ⁽¹⁾ الكلمات التالية : ان الإيمان عقد بالقلب وان أعلن الكفر بلسانه بلا تقيه وعبد الأوثان أولزم اليهودية أو النصرانية ⁽²⁾ . وهكذا يذهب جهنم كما نرى الى أن الاسلام الحقيقي والايان الحقيقي شيء واحد . ومن البديهي أن يدفع مذهب كهذا أصحابه الى الاستخفاف « بالممارسات الشكلية للاسلام » ⁽³⁾ ، والى سيادة واجبات الانسان إزاء أقرانه من الناس على تأدية الفروض التي جاء بها القرآن . ومن هذا المنطلق تبدو المرجئة الخراسانية وكأنها انعكاس أخلاقي إزاء الاسلام الشكلي للسلطة العربية ، التي ظلت تحت تأثير الجزية ، راغبة عن المساواة بين جميع رعاياها واعتبارهم « أخوة في الدين » .

ولعل الخطأ الذي يمكن ان يؤخذ به الحارث هو انه بمخالفته الاثراك ، كان عرضة حسب اعتقادي لاعتبارات مختلفة من موقع رجل مهزوم . ذلك ان المسلمين الجدد رغم انفصالحم عن قضية العرب (الأمويين) في بخارى وسمرقند ، فلم يفكروا بالارتداد عن الاسلام . وفي هذا المجال يشار الى احد القضايا بين اولئك الذين عادوا من المنفى مع الحارث ⁽⁴⁾ ، الامر الذي يؤكد التفسير الذي ذهبنا اليه بوجود آخرين الى جانب الترك ممن كانوا على الاسلام ، وهم بدون ريب من المسلمين الجدد في بلاد ما وراء النهر . الذين

(1) الطبري : 1918/2 وما بعدها و 1924 .

(2) ابن حزم ، مخطوطة ليدن ج 2 ورقة 1 .

(3) Zeitschrift d. D. M. 11. P. 170 .

(4) الطبري : 1868/2 .

تطلعوا الى مساعدة الحارث بن سريج في استرداد حقوقهم السياسية .
ولعله من الضروري قبل المضي في هذا البحث ، القاء نظرة الى الوراء ،
كي لا نفتقد خط الدلالة في مناهة الاحداث التي اسلفنا التعرض لها .

لقد حاولنا ، حسب المعطيات التي غملكها ، الوقوف على الوضع
السياسي والاجتماعي للشعوب المخضعة ، آخذين في الاعتبار النظام التعسفي
الذي كان لا بد ان يصل بهم اخيراً الى الوقوع تحت الاحتلال العربي ،
ورأينا الامويين رغم تلك الاضطرابات العنيفة ، تطفئ عليهم الحماصة في
الدفاع عن هذا النظام الذي سيلحق الضرر جدياً بمصالح الاسلام .

كما اتاحت لنا هذه الدراسة ، الوقوف على مضمون تلك الحركة الدينية
المعارضة التي ظهرت في الولايات الشرقية من الخلافة للدفاع عن حقوق
المضطهدين ، تحت شعار الدعوة الى ارساء دعائم شمولية او عالمية
للاسلام ، تتخطى النطاق الضيق الذي مثله الحكم الاموي . ولعلنا نستطيع
التعبير عن هذه النزعة العالمية من خلال الصيغة القائلة « ان الاسلام لا يقر
اية تفرقة عنصرية » .

ولم يكن موت الحارث بن سريج في سنة 128 هـ ، سوى نهاية في
الظواهر لهذه الحركة ، التي ما لبثت ان عادت الى الانفجار في السنة التالية
مع باثر اخر هو ابو مسلم ، الذي اطاح بالاسرة الاموية ومعها الامبراطورية
في القسم الشرقي من الخلافة .

على ان انتصار الحزب الذي قاده ابو مسلم ، لم يكن سوى مقلعة
لدخول عنصر جديد في تطلعات المسلمين من غير العرب . . ذلك العنصر
هو التشيع .

ولم يبق علينا اذاً سوى الاهتمام بتطور هذه الافكار الشيعية .

التشيع

— 1 —

لا بد للمؤرخ المحقق في طريقة انتشار المذاهب الاسلامية أن يمحصر ذلك في نطاق مرحلة زمنية خاصة .

وتجدر الملاحظة أن هذه المذاهب التي نشأت في مناطق الفتح العربي ، كان لها في بادئ الأمر هدف سياسي بحث ، رغم ظهورها بمظهر ديني .

ولقد كانت الإمامة ، القيادة الروحية العليا ، هي المسألة الأولى التي أدت إلى تمزق وحدة المسلمين . فحزب بني أمية النافذ في بلاد الشام ، كان يدافع عن حق الاسرة الأموية في الخلافة ويعتبر نفسه الوريث الحقيقي لها بعد الخلفاء الراشدين (أبو بكر ، عمر ، عثمان) ، خاصة الحق في الانتقام لهذا الأخير ، الذي مات اليهم بصلة من القربى . وكان يناوئ هذا الحزب كل من :

1 - حزب أهل المدينة أو أنصار النبي ، الذين كان لارتباطهم بالعرب اليمنيين ، ما جعلهم يعتبرون وصول بني أمية الى الحكم ، انتصاراً

لأعدائهم القدامى من الوثنيين والمشركين من أهل مكة .

2 - الحزب الشيعي ، ويمثله المدافعون عن شرعية أهل البيت وحقه بالخلافة ، لا سيما علي وأبنائه من بعده .

3 - حزب الخوارج ، وهم الجمهوريون الذين نادوا باختيار الخلفاء . أصحاب الكفاءة ، بصرف النظر عن الطبقة التي ينتمون إليها . وكان يرون وجوب عزل الخليفة إذا فقد ثقة الأغلبية .

وكان الخوارج الأكثر تعصباً بين هذه الأحزاب الأربعة . أما الثلاث الأخرى ، فعلى الرغم من أنها كانت غالباً في حالة حرب ، فقد جمعها قاسم مشترك وهو اختيار الخليفة من قبيلة قريش . وهؤلاء وإن كانوا يرمون خصومهم بالكفر ، فإن ذلك لم يمنعهم من التعايش معهم ، طالما كان مقدور الخلافة المركزية بسط نفوذها إما بالجد أو بالمال . أما الخوارج فكانوا خلافاً لذلك لا يمارسون ، أية تنازلات في هذا المجال ، وينعتون أعداءهم السياسيين بالكفر ويتعاملون معهم من هذا الموقع . وكما شعارهم - « لا حكم إلا الله » - ، لا يعني عندهم إلا « حكم السيف » .

وثمة ملاحظة في كتابة التاريخ الاسلامي انها ظهرت متأثرة بأهوال الخلفاء العباسيين ، بحيث لا تعطي أية أهمية لبني أمية ، تلك التي عرض لها في فصل سابق . فقد صورت هذه الكتابات معارضة الأحزاب وكأنها

(1) الطبري : 2 / 340 (س 19 وما يليه) ، 506 (س 16 وما يليه) ، 810 . وكان يقال في الكوفة « أعطانا الدراهم قاتلنا معه » . الطبري 2 / 683 (س 13) . ويدل على ذلك الهجاء التالي (الطبري : 2 / 810) :

ولا في سبيل الله لاقى حملة أبوكم ولكن في سبيل الدراهم

جهاد ديني ضد الخلفاء الأمويين وأتباعهم ، حيث قاموا بالدور نفسه الذي قام به الكفار من أهل مكة ضد النبي ، حين قام بالدعوة إلى الاسلام . فكانت تشدد على السلوك السيئ لكل من يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين . كما تظهر استباحة المدينة المنورة في عهد يزيد الأول ومعها الحرم المقدس ، بعد استيلاء جيوش عبد الملك على مكة . هذا بالإضافة إلى اتهام الأمويين باتخاذ المقصورات التي تحجب الخليفة عن الناس ⁽¹⁾ ، وجعل خطبة الجمعة قبل الصلاة ، حتى لا تتفرق بعدها جموع المصلين من دون الاستماع إليها ، مخالفين بذلك سنة الرسول وخلفائه الأوائل (أبو بكر ، عمر ، عثمان) .

ولعل الكتابات المعاصرة للأمويين ، تظهر لنا مدى الأخطاء التي وقعت فيها هذه الدراسات في إظهار الحقائق . فمن المتعارف عليه الآن أن الخلفاء الأمويين كانوا يمثلون الاسلام والنظام بالنسبة للأغلبية من العرب ⁽²⁾ ، وإن عدداً كبيراً من المسلمين لم ير في الاستيلاء على المدينتين المقدستين سوى تدبير ضروري دعا إليه الموقف العدائي لأهل الحجاز ، دون أن تراوده في ذلك أية فكرة في انتهاك الحرمات المقدسة لكل منها ⁽³⁾ .

لقد كان أنصار بني أمية يعتقدون أنهم المسلمون الوحيدون الذين لم

(1) ابن رسته (طبعة دي غويه) ص 192 (س 25 ، المقرئ ، الخططج 1 ص 60 .

V. Giet, l'Art Arabe P. 34

Goldziher, Islamische Studien, P. 41-49 (2)

(3) أنظر ما نقلناه في ملحق رقم 2 من الكتاب .

(4) أنظر الأبيات رقم 17 و 20 من قصيدة أبي صخر الهذلي . ديوان هذيل . Wellhausen P. 92 .

يبتعدوا عن الطريق القويم . لذلك عاملوا خصومهم بالقسوة نفسها التي عاملوا بها الكفار^(١) . فكان معاوية بالنسبة اليهم خليفة الله ويزيد إمام المسلمين وعبد الملك « إمام الاسلام » و« أمين الله » إلى آخر ذلك^(٢) . و سبهم لعلي رابع الخلفاء الراشدين جهراً ، فلأنه أنبكر الحق لمعا بالخلافة . وخلاصة القول اذا كان لعلي من يناصره بدون تحفظ ، الذي أطلقوا عليه « أبا تراب » ، فالأسرة الأموية كان لها أيضاً أنصارها المتحمسين لها من « العثمانية »^(٣) و« الروانية »^(٤) .

وكانت حرب الأحزاب قد توقفت في عهد الخليفة عبد الملك (65-86 هـ) فالشيعة هزموا في موقعة حروراء (67 هـ) ، التي جرت في أعقاب هز سابقة في معركة عين الوردية (65 هـ) . وكذلك انتهت المقاومة في الحجة

(1) الطبري : 2 / 412 (س 11 وما بعده) و415 و425 (س 5 وما بعده) وخاصة 469 و471 (س وما بعده) .

(2) وردت هذه الألقاب التي مر ذكرها في البلاذري (طبعة Ahlwardt ص 12 و 303 . العقد الفريد 122 (س 16 وما بعده) . الطبري 2 / 810, 743, 78 (س 5 ، 6 ، 1176 (س 9) . ديوان الفراء (طبعة Boucher) ص 219 والنص العربي ص 11 وما يتبعها .

(3) الطبري : 2 / 350, 324, 340 . Goldziher 11 P. 118 .

أطلق هذا الأخير العثمانية على المتطرفين من مشايخ البيت الأموي . بينما كان يطلق هذا الاسم أ على بعض الأحزاب المحايدة . أنظر ابن الفقيه (طبعة دي غويه) ص 315 . « أما أهل اليه فعثمانية يدينون بالكف ويقولون كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل » . وفي الشام كان لا يشايخ الأمويين ، ومع ذلك لم يرضهم قتل عثمان لا لشيء سوى انه كان مع أبي بكر وعمر ، كان أحد الصحابة الذين اشتهروا بالاخلاص لمحمد . ومن بين هؤلاء العثمانية البصرية (الذين قاتلوا في جانب طلحة والزبير) ، كما كانوا أيضاً من الأنصار من أهل المدينة . الأغاني 15 / 27 (3) .

(4) ظهرت هذه التسمية بعد تولي مروان بن الحكم الخلافة في دمشق . الطبري 2 / 804 (س البلاذري (طبعة Ahlwardt) ص 221 .

بعد استيلاء الأمويين على مكة وقتل عبد الله بن الزبير ، آخر ممثل لحزب الأنصار^(*). وأما ثورة الخوارج فقد امتدت حتى سنة 77 هـ ، حيث أخذت بموت قطري بن الفجاءة في طبرستان .

أما عهد الوليد الأول وسليمان بن عبد الملك ، فكان عهد انتقال وفتوح ولا يكاد يمدنا بشيء عن تلك الأحزاب . ولم يستطع الأمويون القضاء على هذه الأخيرة بصورة نهائية ، باستثناء الأنصار . فالخوارج والشيعة تبعثرت قواتهم تحت ضربات القادة الأمويين ، ولم يعد لديهم من القوة ما يؤهلهم لمواجهة الحكم المركزي بصورة علنية ، ولكن مبادئهم ما برحت تنمو وتثبت بعد تكيفها مع تلك الأوضاع الجديدة التي نشأت في مشرق الدولة العربية . وهكذا تطور النضال السياسي للأحزاب ليتخذ في تلك الحقبة إبطاره الاجتماعي والديني .

ولم تكن الأسرة الأموية - كما رأينا - تعير اهتماماً لأية حركة إصلاحية . أما محاولة عمر بن عبد العزيز بما رافقها من تحفّظ وسلفية ، فقد زادت الأمور تعقيداً وأدت إلى إفراغ بيت المال ، ومن ثم دفعت بالدولة إلى الرجوع أكثر من أي وقت مضى إلى نظام الضرائب الذي وضعه الحجاج بن يوسف . ومنذ ذلك الحين انفصلت دعوة الاسلام عن سياسة الأمويين ، ولعل في الثورة التي قام بها أنصار الحارث بن سريج ، الدليل على صحة هذا الطرح . فقد أخذ المسلمون من غير العرب يشاركون هذه الأحزاب في نضالها ، دون أن يتوقف الصراع على الأمامة بما انضم إليه من دعاة الحق والعدالة بشكل جازم ومتأجج .

(*) هذا التعبير غير دقيق ، حيث كان الأنصار قد شاركوا بثقلهم في موقعة الحرة ، دون أن ينضم سوى القليل منهم إلى حركة ابن الزبير التي كانت أكثر تمثيلاً للمهاجرين أو الباقيا منهم (المترجم) .

ففي العراق والجزيرة تحول الخوارج منذ عهد عمر الثاني الى حماة للفقراء والمضطهدين في وجه الطغاة^(١) . وفي افريقيا كانوا يغذون بالسلاح شعوب البربر المتدمرة لمقاومة الولاة الأمويين^(٢) . وفي اليمن ثار الخارجي عبد الله بن يحيى الملقب بـ « طالب الحق » احتجاجاً على الاستبداد العلني والممارسات القمعية التي استهدفت أهل تلك البلاد^(٣) . ومن الواضح أن هؤلاء الخوارج ، ليسوا هم أنفسهم الذين حاربهم من قبل السلطة المركزية وانتصرت عليهم باسم الاسلام . فلم تعد القضية هنا شرعية هذا الخليفة أو ذاك ، ولكن مدى تحمل تجاوزات هذه السلطة . وقد وضع الخوارج قاعدة أن من يقترب الخطأ الجسيم أو (مرتكب الكبيرة) إنما هو كافر . غير أن القاعدة القديمة ، وهي تكفير المؤمن العاصي ، ظلت على حالها ، وتغيرت الأرضية التي تنطبق عليها فقط .

ومثل الخوارج هنا - شأن المرجئة - يكشف مدى تأثير تلك التطورات الجديدة في غموحركة هذه الطوائف وانتشارها . وهذا ما سيؤدي إلى خلق مشاكل للبيت الأموي لم يكن يفكر فيها سابقاً .

فقد حارب قبلاً خصومه السياسيين بأسلحة تكاد تكون متكافئة . فإذا بهم يعودون مجدداً إلى الظهور بسلاح أقوى مما لدى الأمويين ، في الوقت الذي اعتقد هؤلاء أنهم قضوا عليهم بصورة نهائية . ولم يجدوا بداً آنذاك ، وقد افتقدوا القوة المعنوية الضرورية ، من مجابهة تلك المعارضة النفسية .

(١) الطبري : ٢ / ١٦٣٤ .

Fragmenta, P. 41 suiv. et Ibied Paenult

(٢) نفسه : ١ / ٢٨١٥ . لقد ترجمت هذه العبارة في الملحق رقم ٣

(٣) الأغاني : ٢٠ / ٧٩ (ص ١٥ ، ٨ ، ٧) . انظر للملحق رقم ٤ .

فكان جواب السلطة هو إعلان الحرب جهراً على الخوارج . فاندحر هؤلاء المتطرفون في بلاد العرب والعراق والجزيرة ، بفضل الموقف الحازم الذي أظهره مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين في التصدي لهم . ولكن انتصار البيت الأموي هذه المرة كانت له نتائج السلبية أيضاً . حيث استفد ما تبقى لديه من القوة . فكان على الحزب الشيعي أن يستعيد نشاطه ويعاود الظهور بقوة لا تقهر . ومن ذلك الحزب السياسي الذي قضى عليه الأمويين في حروراء ^(*) ، انبثق التشيع الذي أخذ في النمو والانتشار عبر تنظيم سياسي - إجتماعي - ديني ، مستقطباً جميع العناصر الكعادية للعرب والأمويين معاً . هكذا كانت نشأة تلك الحركة المنظمة التي سنعالجها الآن .

— 2 —

لقد قاوم الشيعة من عرب الكوفة الأمويين أول الأمر ، دفاعاً عن حق علي بالخلافة ، ثم انتقاماً لابنه الحسين الذي قتل أمامهم دون أن يجرؤ أحد على إغاثنه .

ولم يكن هذا الاخلاص لبيت النبي خالياً من نقاط كثيرة ، فالضغط الذي مارسه السلطة المركزية على الكوفيين ، جعلهم يتناسون العهد الذي قطعوه مراراً على أنفسهم بالولاء للعلويين ، كلما دعاهم هؤلاء إلى تأييدهم ونصرتهم . حدث ذلك أيضاً مع المختار في الوقت الذي أعطى فيه للموالي الحقوق نفسها التي تمتع بها العرب الكوفيون (أنظر ص 16 من الكتاب) . ولكي نفهم تعاطف أنصار أهل البيت ، فعلياً أن نأخذ بالاعتبار نزعة

(*) لم تكن معركة حروراء بين الأمويين والشيعة ولكن بين مصعب بن الزبير والمختار الثقفي (للترجم) .

التقلب لدى الحضر من أهل هذه البلاد وما فطروا عليه من الشقاق والنفاق ، ومن ثم خوفهم من الخوارج الذين يتربصون بهم ، وكراهيتهم رؤية الأمويين يستغلون « سوادهم » الذي أطلقوا عليه « بستان قریش » .

على أن أفكاراً جديدة أخذت في الظهور منذ عهد المختار ، كان لها تأثيرها في نفوس الكثيرين من الشيعة . هذه الأفكار التي توالدت أصلاً في بيئات غير عربية ، يبدو أنها جاءت بتأثير من تقاليد عبادة الملوك المعروفة لدى قلعاء الفرس ، ومعها بعض الأفكار ذات المضمون الاشراقي ، الذي قد تعود جذورها إلى الديانة البابلية القديمة .

وكان من البديهيات بأن (الحكمة الالهية) ، التي تميز بها محمد واستلهم منها القدرة على الفصل في الأمور وفق الارادة الالهية ، لم تكن لتنتهي بوفاة الرسول . حيث انتقلت بعده إلى أهل بيته . وهؤلاء بدورهم تميزوا بنوع من العلم لم يكتسبوه كما تكتسب العلوم البشرية ، وإنما كان مستمداً من مصدر هذه الحكمة الالهية مباشرة . ولقد كتب الخليفة الأموي هشام في هذا المعنى إلى واليه يوسف بن عمر : « أما بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة وفي حبهم أهل هذا البيت ووضعهم إياهم في غير مواضعهم لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ما هو كائن » (1) .

وكان الناس يؤمنون بكل حديث يجري على لسان الامام (العلوي) ، حتى لو تضمن ما هو متعارض في الظاهر مع مبادئ القرآن . ففي الكوفة كان يستباح شرب النبيذ الذي يحمل اسم (نهر طالوت) من ماء نهر ساوول

(1) الطبري : 2 / 1682 .

(أول ملك عبري) . وكان قد أفتى الامام زيد بن علي ^(٣) بشرب القليل من هذا النبيذ استناداً الى حديث عن جده الرسول ، على نحو ما فعل بنو اسرائيل حين سمح لهم (ساوول) بأن يغرفوا بأيديهم من ماء هذا النهر ، دون أن يأخذوا الكثير كما الكلاب ^(١) .

ومن البديهي ، في ظل الايمان بعصمة الامام ، المتأصل في قلوب الناس أن يُنظر إلى هذا الأخير على أنه المرجع الوحيد في التفسير . وثمة عبارة تنسب لعللي حيث يقول « أحلم الناس صغاراً وأعلم الناس كباراً . الا وأنا أهل البيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا ومن قول صادق سمعنا . فإن تتبعوا آثارنا تهتلوا ببصائرنا . معنا راية الحق ومن يتبعها الحق ومن تأخر عنها غرق » ^(٢) .

ولعل هذا الاعتقاد نفسه نجده في اللقب الشريف الذي حمله الكثيرون من أئمة أهل البيت ومعناه « الهادي الى الطريق القويم » ^(٣) ، وهذا ينطبق

(١) لا نستطيع مجازة (فلوتن) في صحة هذه الرواية التي نقلها عن العقد الفريد ، حيث يدلوانها متحلة وغير واقعية وذلك لما عرف عن زيد تدينه وشدة التزامه ، اعتقاداً على رواية المصدر نفسه (أنظر ج 3 ص 169 وج 4 ص 101) ، إلا إذا كان النبيذ الولود ذكره لا يحتوي على ملحة كحولية ، وهو مشروب لا يزال شائعاً في بعض البلدان الاسلامية حتى اليوم (المترجم) .

(1) العقد الفريد 3 / 417 . يبدو أن فلوتن يريد الاستشهاد بالآية 249 من سورة البقرة وليس الآية 250 كما ورد خطأ : فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة يده فشربوا منه إلا قليلاً منهم . (المترجم) .
(2) العقد الفريد 2 / 162 .

فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .
(3) الطبري : 2 / 546 (ص 2) . 350 ، 608 (ص 14) ، 353 (ص 20) المبرد ، الكامل (طبعة Wright) ص 710 .

Snouck Hurgronje der Mahdi P. 6 (N. 7)

على الامام الأخير من آل علي بما يرتبط فيه من مفهوم « العصمة » .

وهذه الأفكار التي نشأت في الكوفة تحت تأثير معتقدات سابقة على الاسلام ، لم تقتصر على العراق أو على فئة معينة من المسلمين الجدد ، ولكنها امتدت على مساحة كبيرة من البلاد الاسلامية ، متوازية مع ارتفاع التذمر من الدولة الاموية وازدياد ضعفها وانحلالها . . . وقد راج الاعتقاد في ذلك الوقت بأنه ليس ثمة أمل في الاصلاح إلا إذا تولى الأمر واحد من آل البيت ، خاصة وأن المسلمين باتوا على يقين من أن بني أمية لم يعد ما يعينهم سوى الاهتمام بمصالحهم الشخصية دون العقيدة التي أخذوا على عاتقهم نشرها .

وفي مثل هذه الظروف من البؤس والتذمر ، وفي وقت ضلت العقول واختمرت الأفكار ، كان من الطبيعي أن لا يفقد هذا المجتمع رجالات السياسة الممثلين بالحماصة ، لركوب الموجة وتوجيه العواطف الشعبية واستثمارها . فظهرت آنذاك تلك البعثات المنظمة (الدعوة) التي انبثت في جميع الولايات الاسلامية ، محرّضة شعوبها على اعتناق العقائد الشيعية . ولكي نفهم جيداً مدى تأثير هذه الدعوة ، يجب علينا أولاً التعرض لأولئك المتطرفين في التشيع الذين اطلق عليهم العرب اسم « الغلاة » .

— 3 —

يتبادر إلى استناداً إلى رأي الفقهاء العرب ، أنه بالامكان تصنيف هؤلاء الغلاة أو المتطرفين الى طائفتين : السبئية والكيسانية فكلهما كان يشارك الآخر في تقديس أهل البيت واعتباره جزءاً من معتقداته .

فالسبئية (أنصار عبد الله بن سبأ الذي نادى بخلافة علي في عهد

عثمان) كانت على اعتقاد بأن ثمة جزءاً إلهياً تجسد في علي وخلفائه من الأئمة . وليس ضرورياً برأيهما أن يظهر ذلك الجزء الإلهي (الروح) في هذا العالم بصورة دائمة ؛ إذ أن بمقدوره الاختفاء في مقره الساوي حتى ظهوره من جديد عبر تجسد آخر . وهذه الفترة من الاختفاء تسمى عندهم بـ « الغيبة » ، ومن الرجوع الى الأرض بـ « الرجعة » وانتظار ظهور الامام بـ « التوقف » . والذين آمنوا بتوقف علي يعتقدون بظهور سوطه في البرق وصوته في الرعد . وبعضهم يسلم بانتقال الروح الالهية إلى أبنائه ويتنظر رجوع إمام منهم . ولأنهم غير مسلمين بفناء الجزء الإلهي المتجسد في شخص علي ، فقد كانوا على يقين بأن الخارجي ابن ملجم لم يقتله وإنما قتل الشيطان المتلبس فيه (1) .

ويبدو أن العقيدة السبئية نشأت على أنقاض الفكرة القديمة التي تعتقد بتجسد الالهية ، خلافاً لما ذهب اليه الفئة الأخرى المتطرفة أيضاً من الشيعة وهي الكيسانية التي ظهرت في عهد المختار (نائر الكوفة) (2) . تلك

(1) الشهرستاني (طبعة Cureton) ص 132 وما بعدها . (ترجمة Haarbrücker 11, 411) لا يفتق قول الشهرستاني عن السبئية مع الذي ورد في الطبري (Weill 1, 173) عن عبد الله بن سبأ : ان لكل نبي وصي أو وزير ، وأن الوصاية كانت لعلي باعتباره وزير عمه ، وأن عمداً سيعود إلى الأرض . بيد أنني لا أتردد في الاعتماد على ما جاء في الشهرستاني ، ذلك أن الاعتقاد بتجسد الالهية في شخص علي كان مفهوماً شائعاً سواء نسب إلى ابن سبأ أو لم ينسب . أنظر الأصفهاني لدى :

Weill, 1, 254, Haarbrücker 11, 41

Z. d. D. M. g xxxviii P. 391

والبلاذري والشهرستاني ص 132 وابن رسته (طبعة دي غوييه) ص 218 (ص 6 وما بعده) وكتاب المعروف لابن قتيبة ص 300 . (السبائية ينسبون إلى عبد الله بن سبأ وكان أول من كفر من السبائية وقال علي رب العالمي) « باللغة العربية » .

Van Gelder, Mokhtar, P. 82 suiv. (2)

الفئة التي غالت في معتقداتها وعزت الى محمد بن الحنفية (من أولاد علي) الاحاطة بالمعرفة العظمى وبجميع العلوم ، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا اليه بالعلم الحقيقي في التأويل والباطن ، وذلك من منطلق اعتقادهم بتفوق الامام في تفسير الشريعة الالهية ، (وهذا ما كان يميزهم عن الشيعة المعتدلين) . وتعتقد الكيسانية كافة كما يقول الشهرستاني « بأن الدين طاعة رجل ، وأن طاعتهم لذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الاسلام كالصلاة والصوم والحج الخ . . . » (1) .

وهنا تتضح المسافة التي تفصل ما بين العقيدتين السبئية والكيسانية ، فإذا كانت الأولى تمجد الروح الالهية في الإمام وتجعل له نصيباً منها ، فإن الثانية اعتبرته رمزاً للمعرفة الالهية . وخلاصة القول ، فالسبئية ترى في الإمام كائناً إلهياً بطبيعته ، بينما الكيسانية تقدم له الطاعة ، كرجل خارق يمتلك علوم ما وراء الطبيعة . بيد أن كلاهما يؤمن بـ « الرجعة » أو عودة الامام ، وإن كانت السبئية ترى بأنها عودة من مقره السماوي في حين أن الثانية تقول ، بأن الامام يبقى مختبئاً على الأرض حتى يحين ظهوره . وهذه النقطة الأخيرة خارج نطاق الشك ، بفضل تلك الآليات المعاصرة لكثير والسيد الحميري (وكلاهما من شعراء الكيسانية) (2) . ومن ذلك قول لكثير في محمد بن الحنفية :

وسبطلا يسلوق الموت حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا برضوى (3) عنده غسل وماء (4)

(1) الشهرستاني ص 109 وما بعدها .

(2) انظر ما كتبه Barbier de Meynard عن « السيد » Journ, Asiat 1874, 11 P. 159 suiv.

(3) جبل بالقرب من « ينبع » حيث ممتلكات أسرة النخعي .

(4) الشهرستاني ص 111 . الأغني 8 / 32 . للسعودي ، مروج الذهب 5 / 182

هذا وقد ضعف نفوذ السبئية مع تعاقب الزمن والحوادث ، ولكن مذهبهم في التجسد رغم الظروف الصعبة ظلّ يتطور ويتشعّب . وسنرى أن هذا المذهب سيظهر بعد وقت في إطار جديد ، وذلك عندما نبحث في مذهب الراوندية .

أما الكيسانية ، فقد وجدناها كعقيدة في الهاشمية أو أنصار أبي هاشم (ابن محمد بن الحنفية) وهي القائلة : « أن لكل ظاهر باطناً ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلاً ولكل مقال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم ، والمتشعّب في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الانساني ، وهو العلم الذي استأثر عليّ عليه السلام به ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي هاشم . وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقاً » (١) .

ونظرية الهاشمية لها أهمية كبيرة في تاريخ الشيعة . فمن خلالها ، خاصة ما ذهب اليه في التأويل أو معنى الباطن ، تسرب إلى التشيع الكثير من الأفكار غير الاسلامية ، المقتبسة عن المجوسية والمناوية والبوذية وغيرها من المعتقدات التي كانت سائدة في آسيا قبل مجيء العرب .

ولقد جاءت هزيمة هذه العقائد القديمة في أعقاب الفوز الساحق الذي

(١) اشتركوا أيضاً في حركة المختار (الطبري ٢ / ٧٠٤) وكذلك ابن الأشعث (ديوان الفرزدق Boucher ص ٦٣٢) وفي النص العربي ٢١٠ . وليس ثمة شك أن هذا الاسم كان خاصاً بالمذهب الذي يجمله . حيث جرى العرف اطلاق السبئية على جميع الغلاة من الشيعة .

(٢) الشهرستاني ص ١١٢ .

حققه سلاح المتصرين في ظل الاسلام ، تهية النفوس لاعتناق هذا الدين . ولكن ذلك أدى في الوقت نفسه إلى ظهور تيار مضاد لهذا النجاح ، حين هبت عواصف البغضاء مع ازدياد تدمير الموالي ، الذين ألحنا إلى قضيتهم سابقاً . ولما كان الاسلام يعاقب المرتدين عنه بالموت ، لم يتجرأ أحدهم على الارتداد بصورة علنية ، ولكنهم أخذوا يبحثون عن السعادة الروحية خارج نطاق الاسلام ، والعودة خاصة إلى الأفكار والمعتقدات الدينية كالبابلية والایرانية القديمة الخ . . . وهذا الامتزاج بين هذه العقائد بما فيه من مؤثرات اسلامية ، سيؤدي إلى اختفاء الحقائق الأصلية في الاسلام في متاهات من الخرافات والبدع . ولقد أتاح ذلك كله لذوي النفوس المتفوقة ، الوصول إلى الراحة المعنوية من خلال التوافق مع مظاهر الحياة المختلفة ، على الرغم من كل المحن والأزمات الفكرية التي تعرضوا لها . أما أولئك أصحاب النفوس المتواضعة ، فقد كان مصيرهم التوقف في منتصف الطريق ، وهو ما حدث في القرون الأولى للهجرة ، حيث الناس تنقصهم القوة المعنوية للتخلص من وطأة الاسلام وتأثيره ، فلجأوا إلى تفسيره حسب أهوائهم واستباطهم الأفكار التي كانوا بحاجة إليها ، متخليين عن كل ما تعلق بالفرائض الدينية التي استخفوا بها . وكانت وسيلتهم إلى ذلك « التأويل » (البحث في الباطن) الذي ارتكز أساسه على منزلة أهل البيت . وقد دفع ذلك الساخطين والمتذمرين إلى تأييد قضية الشيعة في الدعوة لآل النبي .

- 4 -

قد نتساءل هنا : ما هو موقف الأئمة من هذه النظريات الغريبة والمتطرفة ، التي كانوا معرضين عليها بشكل أو بآخر ؟ . . ولعل التاريخ

يحمل لنا الجواب على هذا السؤال . فقد انكر هؤلاء الائمة في بادىء الامر تلك الصفات المبالغ بها والمنسوبة اليهم . فعلي رمى المغالين في النار ، لا سيما الذين ألقوه ، ونفى عبد الله بن سبأ الى المدائن (١) . وجاء بعد ذلك ابنه محمد ، يشاركه آراءه الدينية هذه واستنكف عن استئثار النجاح الذي حققه اتباعه ، منكرأ ما نسبوه اليه من احاطة بالعلوم الالهية (٢) .

غير أن هذا الموقف السلمي للأئمة ، ما لبث أن تغير مع انحطاط الدولة الاموية . فالعلويون بدأوا يتحسسون آنذاك نتائج ما يمكن استئماره من هؤلاء المقدسين لهم والمفتونين بهم . وكان عمر الثاني ينكر على بعض الهاشميين جهم لكثير وهو من الغلاة وصديق لأبي هاشم الذي مر ذكره (٣) . وهناك رواية في كتاب الاغاني تتحدث عن حفيد علي هذا ونزعتة : « كان ابو هاشم يرسل العيون لينقلوا اليه اخبار كثير . فاذا ما قابله ابو هاشم قال له : فعلت كذا وكنت بمكان كذا . وقد اخبره ذات يوم ما دار بينه وبين رجل آخر من الحديث كلمة كلمة ، فصاح كثير : « انت رسول الله » (٤) .

ولقد رأينا سابقاً أن ثمة حزباً يدعى « الهاشمية » ، كان يرى في أبي هاشم مخلوقاً يحيط بالعلوم الالهية وأنه الاحق بالامامة ، ونستطيع أن نبين مما رواه بعض المؤرخين ان أبا هاشم كان اول منظم لما عرف بـ « الدعوة »

(١) الشهرستاني ص 132 .

(٢) ابن سعد ، الطبقات (مخطوطة Gotha) 1748 . انظر عن محمد بن الحنفية : (فيلغ محمد بنهم يقولون ان عندهم شيئاً أي من العلم قال فقام فينا . فقال انا والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين . ثم قال اللهم خلا هذه الصحيفة في ذؤابة سيفي » بالعربية .

(٣) الاغاني : ج 8 ص 34 .

(٤) نفسه .

واجتذب الانصار الى هذا الحزب (١) .

ومن الواضح ان هذه الدعوة ، وان كانت دينية الطابع في الاصل ، فانها لم تتوجه نحو متطرفي الشيعة فقط ، بل اجتهدت في التأثير على عدد كبير من المعتدلين وضمهم الى صفوفها ، خاصة في اوساط الذين لم يؤد بهم اضطهاد الامويين الى كراهية الاسلام . ولهذا كانت مجبرة على التوافق مع المبادئ غير الاسلامية ، تلك التي لم يكشف عن اسرارها الا لمن اعتنق هذه الدعوة . بيد أن ذلك لم يمنع وجود نوع من التدرج في تنظيم الحزب وضعه كبار الدعاة ، ما لبث أن تبلور في وقت لاحق ليصبح جزءاً أساسياً من نظام الدولة الفاطمية . ولكن الثغرة الوحيدة التي عاناها هذا التنظيم ، هي اشتراط الاخلاص التام للامام والطاعة العمياء لارادته ، ومن ثم الخوف من الدعاة ان يسيثوا استخدام مهامهم وتوجيه ما تلقوه من الاسرار والمعارف لمصلحتهم والدعوة لانفسهم .

وكان العراق - كما نعلم - مهد الدعوة الهاشمية ، حيث اتخذ كبير الدعاة مركزه في الكوفة ، ومنها انبث دعاته في البلدان المجاورة . وقد تفرد كتاب العيون (٢) بتأكيد أن خراسان دون غيرها كانت مركز عدد كبير من الدعاة . بيد أنه من السهولة الحكم على خطأ هذا الاستنتاج ، اذ ان ما رواه لم يكن سوى مقدمة لما جرى من الحوادث فيما بعد . فهناك من القرائن ما يشير الى ان الدعوة الخراسانية ، انما بدأت مع ورثة ابي هاشم في الدعوة وهم ابناء العباس (عم النبي) (٣) .

(١) الطبري : 3/ 3500 ، اليعقوبي 2/ 356 وما بعدها ، ابن خلكان (طبعة Wilstenfeld) رقم 579 ص 100 .

(٢) كتاب العيون : ص 1- 17 . 180 . Fragmenta Historie. Arabie. P.

(٣) ابن الفقيه (طبعة دي غويه) ص 315 . للقلسي ، ص 290 وما بعدها .

وتاريخ ذلك الاستخلاف ليس مجهولاً : فقد مات الامام أبو هاشم عام 98 هـ في الحميمة ، وهي إحدى قرى فلسطين على حدود الصحراء في شمال شبه الجزيرة ، حيث كان يعيش حفيد العباس واولاده بعد نفي عبد الملك بن مروان لهم من بلاط دمشق . ويروى أن أبا هاشم اوصى لهم بحقه في الامامة قبيل موته وأمدهم باسماء كبير دعائه في الكوفة ومن يليه من الدعاة وسبل الاتصال بهم . وهذا ما سيتحول الى امر واقع عندما يتولى محمد بن علي (العباسي) أعباء الدعوة بعد أبي هاشم كما سبق ان اشرنا (١) .

وليس من الصعب علينا ادراك الاسباب التي لفتت انتباه الامام الجديد الى خراسان . فقد كان اهلها يمتازون عن غيرهم من سكان البلاد المختلطة الاخرى (العراق مثلاً) . بالقوة والشجاعة ، كما ظلوا بعيدين عن اجواء الاحزاب السياسية في مراكز السلطة . فهي بالنسبة للدعاة العباسيين « بلد عناء لم تتل منها الاهواء ولم تنقسمها الاختلافات الدينية » . وهذا ما يشير اليه الامام (محمد بن علي عبد الله بن العباس) في خطبته التي نقلها الجغرافي ابن الفقيه : « اما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القتال » . وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في اخلاق النصارى . وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الاهواء ولم

(1) المقد الفريد 2/352 P. 181. Fragn. Hist. Arab. ابن تية (طبعة Wüstenfeld) ص 111 .

والمبارات للدولة سابقاً ص 44 حاشية رقم (3) .

(2) انظر ما سبق ص 30 حاشية رقم (3) .

يتوزعها الدغل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهلمت ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من اجواف منكرة . وبعد فاني اتفائل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » (١) .

على ان ما جعل اختيار هذه الولاية قراراً موقفاً - وان لم تشر الى ذلك خطبة الامام - هو ان هذا الشعب القوي والمهاب ، كان قد عانى من الامويين اشد انواع الاستبداد ، وهو ما ألمحنا اليه في فصل سابق . بيد أنه ينبغي تذكير القاريء بحالة التذمر والكراهية التي اجتاحت الاهالي ازاء الادارة المتعسفة التي كان يرئسها العمال الامويون بسلوكهم المعروف ، ومن ناحية ثانية ، الرغبة القوية لديهم في المساواة والعدل ، تلك التي تجسدت في حركة الحارث بن سريج حيث امدتنا بالكثير من الادلة عن هذا الواقع . فخراسان اذن كانت الارضية الخصبة التي لا يتقصها سوى بذور الدعوة لآل البيت (٢) . وفي الوقت نفسه كان دعاة العباسيين يظهرون حماسة خاصة ، يزيدنها توهجاً ما حل بهم من اضطهاد الامويين وسومهم العذاب قتلاً وصلباً . فكانوا يجوبون البلاد الخراسانية تحت ستار التجارة او الالتقاء بالانصار في مكة اثناء مواسم الحج . وكان هؤلاء سواء البائية من احفاد قحطان أو المضرية من عرب الشمال يتنقلون من قرية الى مدينة ، يصورون استبداد الامويين بأبشع صورة ويصفونهم بالكفر رغم التظاهر بالاسلام . ولم يدعوا آنذاك لشخص ما ، ولكنهم كانوا يرددون دائماً امام الناس بأنه لا خلاص لهم الا بحكم آل البيت . وسرعان ما تكللت جهودهم بالنجاح ، بعد ان عرفوا كيف يستميلون العدد الاكبر من المؤيدين الى صفوفهم من ذوي الرأي والجاه ، الذين كان لهم الدور الكبير في قيام الدولة العباسية .

(١) يبدو ان ذلك له علاقة بالمضمون الفارسي لكلمة خراسان الذي يعني شروق الشمس (المترجم) .

(٢) الطبري : 2 / 1501 ، 1431 ، 1950 . الدهنوري (طبعة Girgass) ص 337 .

وفي طليعة هؤلاء سليمان بن كثير الخزاعي الذي بايع جده الرسول تحت شجرة الحديبية (١) . وليس بعيداً أن يكون أبوه قد أقام في خراسان مع الجيوش العربية المربطة فيها ، حيث كان مقره في (سفيدنج) (٢) ، وهي قرية تقع في واحة مرو . كذلك قحطبة بن شبيب الطائي من (شرنخشير) ، وكان من انصار علي (٣) ، وربما ارتبط بعلاقة وثيقة مع ابن سريج ، لما كان بينه وبين زعيم المرجئة من صلة جوار . وقد انشأ كل الرجلين مع عشرة اخرين نوعاً من مجلس الشورى يتبع مباشرة داعي الدعاة ، واتخذ كل منهم لقب « النقيب » ، وذلك على غرار ما فعله الاسرائيليون حيث كان لهم مجلسهم المؤلف من اثني عشر حوارياً ، (القرآن اية 4 س 15) فضلاً عن نقباء اهل الشورى في المدينة الذين انتخبهم الرسول (٤) . وهذا المجلس نفسه تألف من سبعين شخصاً كان يطلق عليهم الدعاة (٥) .

وهكذا سار ما دبره العباسيون بشكل منظم ، الى ان طرأ حادث غير متظر وادى الى اضطراب سياستهم كلها .

- 5 -

كانت الكوفة ، حيث انطلق الدعاة العباسيون ، في مطلع القرن الثاني الهجري مركزاً لتشيع متطرف غير اسلامي . وهذا يعود الى ما شهده العراق ، من المؤثرات الدينية التي حملتها العقائد المختلفة (كالفارسية

(١) الانساب للسمعاتي (مخطوطة لندن) ، وتحت Siqadendji انظر ايضاً :

Sprengr, Das Leben und die Lehre des Muhammad 111, 245.

(٢) الطبري : 1595/2 .

(٣) انظر هذه الكلمة في كتاب السمعاتي .

(٤) Sprengr, vol. 11 P. 532 .

(٥) الطبري : 1988-1586/2 .

القديمة والمأنوية والصائبة وغيرها) ، ومن المحاولات التوفيقية بين هذه العقائد بالذات كما سبق ان اشرنا . (انظر صفحة 43) وقد تعرض الاسلام نتيجة ذلك لغزو هذه الافكار ، رغم الحماسة التي ما انفك الدعاة يقومون بها في سبيل انتشاره . فما بين عهدي الخلفيتين علي والمنصور (مع تحول العاصمة الى بغداد) ، حكم بالاعدام على عدد غير قليل من الغلاة والمتجربين في « الاعتداء » على الاسلام وابتداع مذاهب جديدة . ففي الكوفة ظهرت الكيسانية التي ربطت بين طاعة الامام واوامر القرآن والهاشمية التي فتحت مع التأويل ، الباب الواسع على افكار مضطربة ومتناقضة لا حصر لها .

وكان على دعاة أبي هاشم ومن ثم العباسيين الذين نشأوا في هذا الجو بالذات ، ان يتشبعوا بهذه الروح غير الاسلامية ، وهنا لا أتردد في أن انسب الى الفئة الاولى التشيع للعقيدة الهاشمية التي - اذا لم اكن مخطئاً - كانت بمثابة القاعدة الاولى لانتشار هذه الدعوة .

اما الدعاة العباسيون فلا نعرف بالتحديد كيفية وصولهم الى اتمام المهمة التي اضطلعوا بها ، وهذا يعود الى شلة تكتهمهم والى الاوامر بعدم فضح اسمائهم (1) ، ومن ثم ابقاء شخصية الامام غامضة حتى تحين ساعة الخلاص ، دون ان يفصحوا بشيء لانصارهم المعتدلين عن مضمون عقيدتهم التي بقيت سرّاً لا يعرفه الا القليلون جداً . على ان ثمة شيئاً لا مجال لانكاره ، هو ان هؤلاء الدعاة كانوا في الحقيقة متناهين في الدفاع عن قضيتهم ويواجهون مصيرهم بكل شجاعة من أجلها ، مما يذكرني بالموت البطولي لشهداء البابية Babisme ، الذي لا يمكن ارجاعه الا لقناعة دينية متأصلة (2) .

(1) الطبري : 1988/2 (س 3) .

(2) نفسه : 1501/2 وما بعدها .

وعن هذه القناعات نذكر ما رواه الطبري عن المدائني (المؤرخ المتوفي سنة 215 هـ) ، فهي خير مثال على ذلك : « ان رجلاً من الراوندية كان يقال له الابلق وكان أبرص ، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية ، فزعم ان الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب ثم الائمة في واحد بعد واحد الى ابراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبي) ، وأنهم استحلوا الحرمات . فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم الى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيع لهم « الحرمات » . فبلغ ذلك اسد بن عبد الله فقتلهم وصلبهم . فلم يزل ذلك فيهم الى اليوم ، فعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا الى قصره (الخضر) فألقوا انفسهم كأنهم يطرون⁽¹⁾ . وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر : أنت أنت (يريدون ان يقولوا انت الله) .

وحول عقيدة الروانديين يمكن العودة الى كتابات :

Herbelot, Bibliotheca Orientalis i. V

Weil Gesch. D. Khalifen 11. 37 suiv.

. Müller, der Islam in Morgen- und Abendland 1. 494

فهي تستحق الدراسة ، خاصة أنها تجعل معلومات المصادر التي اعتمدنا عليها فيما يتعلق بهؤلاء اكثر وضوحاً ، ولكن ما يعنينا المماثلة لعقائدهم . ولا يشك في نفس الوقت بأن الذين صلبهم في هذا المجال ، ما نسب المدائني الى

(1) Selecta Historiae Haledi, ed. Freytag. P. 15, Theophilus ed Boor P. 430

ينسب الى طائفة النصرية من الفرس حتى اليوم مقدرة الطيران في الهواء

De Gobineau, trois ans en Asie, P. 367 suiv. Zeitschr, de M. G. XLV, 590, N. 2

وينسب الى بعض البوذيين .

دعاة العباسيين من الافكار أسد بن عبد الله والي خراسان ، انهم كانوا من الراوندية (1) .

ولعل الدليل الذي غمطه على ذلك ، هو ما تذكره مصادرنا عن ثالث الدعاة المعروف بـ « خدش » (من خدش ومزق بأظافره تدليلاً على تمزيقه الدين) ، الذي كان يعمل بصناعة الفخار في الحيرة بجوار الكوفة . وكان ايضاً مسيحياً قبل ان يعتنق الاسلام ويقوم بتدريس القرآن . ثم تحول الى الدعوة العباسية ، حيث ارسله كبير الدعاة في الكوفة الى خراسان لاستقطاب المؤيدين لحق محمد بن علي . غير انه سرعان ما تراجع عن دوره هذا لينقلب على الامام العباسي ، ويروج عنه عقائد متحولة ويشر جهراً بالافكار الخرمية ، الداعية الى اباحة النساء (تحت ستار الاشتراكية المطلقة) . ولقد اسهم ذلك في فتور العلاقة بين الامام وشيعة خراسان ، امتد الى ما بعد سنة 118 هـ حين قتل خدش وقطعت أطرافه بأمر من الوالي أسد بن عبد الله (2) .

وهذه المعلومات - رغم اقتضاها - قد تسمح لنا باعتبار - خدش أحد هؤلاء الراونديين الذين اتى على ذكرهم المدائني . على ان هذه المعلومات بما فيها رواية هذا الاخير ، ليست كافية لاعطاء رأي محدد عن الطابع الحقيقي لعقيدة هذا الداعي العباسي ، لذلك سنقتصر على ابداء بعض الملاحظات العامة عنها .

لقد كان المسلمون السنة لا يعرفون شيئاً عن هذه الطوائف الغامضة التي كانت تمقت الديانات السماوية المثقلة ، حسب رأيها ، بالفرائض ، وتحلم

(1) أمر أسد بقتل دعاة من العباسيين في السنوات 107-108-117-118 .

(2) الطبري : 1588/2 .

بشيء أكثر سموً وارتفاعاً يهدف الى ارساء نواة روحية لجميع الاديان .

ومن الامثلة على ذلك ، اعلان العديد من هذه الطوائف أن اوامر القرآن ليست لها قيمة بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين الذين استوعبوا اسرار العقيدة . ولم يكن ذلك سوى محاولة لتسوية تلك النظرية التي تبيح جميع انواع الملذات المحرمة . وقد اعتقد بعضهم ان هناك علاقة بين اسماء هذه الطوائف . فالخرمية مشتقة في الغالب من خرم . (مدينة في بلاد ميديا)^(١) وهي تعني بالفارسية « اللذة » . وعندما نتكلم عن « خرم دينيا » لا يراد بذلك سوى الاشارة بأن هذه الطوائف لا تعرف « ديناً » سوى اللذة . يضاف الى ذلك التطور الذي اصاب منزلة المرأة في مفاهيمها ، فأصبحت أرقى مما كانت عليه بصورة عامة في البلدان الشرقية ، واتيحت لها المشاركة مثلاً في الاجتماعات الدينية^(٢) . الا ان ذلك لم يكن على - ما يقال - الا تسويةً لتغطية امور غير اخلاقية .

ولا بد لنا من الاعتراف بأن موقف بعض المتطرفين ، كان له اثره العميق في كراهية المسلمين السنة لهؤلاء الخرميين^(٣) . بيد أن ما ذهبوا اليه من الاستمتاع باللذة لم يكن العامل الوحيد الذي جلب اليه هذا الكره . فقد جاءت الاتجاهات الحديثة التي قام بها براون Browne عن البابية^(٤) تؤكد وجهة نظرنا في هذا الموضوع . ولم توفر المصادر الرسمية لمؤرخي الفرس ،

(1) Müller, der Islam in Morgen- und Abendland 1, 505 .

(2) De Gobineau, 1. 1. P. 361 de sacy, Exposition de la Religion des Druses, 11. 397
suiv. Browne, a year amongst the persian P. 216 Browne, 11 P. 523.

(3) . Browne, 11 P. 523.

V. «The Babis of Persia» . Journal of the Royal Asiatic Society XXI. P 881 suiv . et (4)

«A traveller, Snarrative Written to illustrate the episode of the Bab» .

البابيين من اتهامهم بالشدّة نفسها التي كان المسلمون في القرون الهجرية الأولى يقذفون بها الحرّمية . وقد زعم هؤلاء عن البابيين قولهم : حتى تبسط مملكة « باب » سلطانها على العالم قاطبة ، وحتى تسنّ قوانين جديدة تنظم الحياة الروحية والدينيّة ، فإنّ جميع البابيين في حلّ (باسم باب) من إطاعة الشريعة الاسلاميّة ، وأنّ كلّ شيء مشترك بينهم سواء في ذلك النساء أو الممتلكات (1) . هذا وقد نشرت مجلة طهران اليوميّة مقالات في تكفير البابيين وميول عقيدتهم إلى الاشتراكية ، تلك التي لم تكن سوى نموذج آخر لشيوعية مزدك (2) .

ولكن براون رغم المسح الدقيق الذي أجراه على كتب البابية لم يجد فيها شيئاً من الغلو الذي نحن بصدده في هذه الدراسة . فعلى العكس من ذلك فإنّ جميع هذه الكتابات ينجيم عليها جو من الاخلاقيات والاحاسيس الانسانية . وإذا كان التخلي عن الاشتراكية في بعض مجتمعاتهم ما يعتبر من المآخذ عليها ، فإنّه من المستبعد جداً أن يتخذها زعماء الطائفة قاعدة ثابتة ، خاصة فيما يتعلق بأشتراكية الاملاك والنساء التي لم يرد لها ذكر في هذه الكتب .

ولذلك ينبغي علينا أن نأخذ بتحفظ كل ما أمّدنا به المؤرخون العرب عن هذه الطوائف الحرّمية . فما كانوا يسمونه « استحلال الحرمات » ، إلّا ما هو صادر في الحقيقة عن حالة نفسية مشابهة لتلك التي تجلّت عند بعض الناس مثل جهّم بن صفوان (انظر ما سبق ص 31 وما بعدها) ، الذي لم يسلم من قذفه بنفس التهمة (3) . ولم يكن ذلك سوى احتقاراً مبرحاً أو تغطية

(1) Mirza Qasim beg dan le journ. Asiat, 1866 1. 482 .

(2) حول مزدك والمزدكية انظر : Naldcke, Geschichete Der perser und Arber, P. 455 suiv. .

(3) الطبري : 1585/2 (ص 8 ، 9) .

لاضطهاد هذه القوميات ، ومن ثم تسويقاً لجمع الثروات على نحو من الابتذال . اما فكرة التجسد التي ضمنها الراونديون معتقداتهم غير الاسلامية ، فإنها تبدلنا محاولة لصهر العقيدة السبئية مع الافكار الكيسانية التي تقول باستمرارية النبوة . واستناداً على ذلك فإنه من الجائز أن يكون (خدّاش الخرمي) أول من دعا الى هذا المذهب الذي بشر به المصلحون الباطنيون من الفرس ، وهو يؤمن بتجسد الحكمة الالهية ودورها في تثقيف وقيادة الانسانية جمعاء . اما النبوة فلم تكن بالنسبة اليهم مجرد فترة زمنية من الوحي ، وانما هي حكمة الالهية دائمة الاشعاع بنورها على الارض ، سواء اتخذت شكلاً ظاهراً او بقيت مستترة في مقرها السماوي .

- 6 -

ليس من المستبعد ان يكون « الداعي » خدّاش قد تجاوز حدود مهمته وزعم لنفسه - كغيره من الدعاة - احاطتها بالحكمة الالهية ، ومن ثم التصرف كصاحب دعوة (1) ، بعد أن كان يأتمر بأوامر رئيسه كداعية عادي . وبهذا يكون قد تحقق ما كان يخشى الوقوع فيه ، وهو تمادي الدعاة بما لديهم من الاسرار ، فيذهبون بعيداً في استغلال الدعوة لانفسهم . ولقد استطاع خدّاش استئالة بعض النقباء ومنهم احد اولاد سليمان بن كثير نفسه (2) . وهكذا انقطعت الصلة بين الخراسانيين وكبير الدعاة في العراق ، حيث بقيت على ذلك حتى موت خدّاش .

ولكن قضية العباسيين لم تحتف تماماً ، رغم الخطر الذي احلق بها على كافة الجبهات . ففي الحركة الشيعية عامة لا ينبغي اعطاء الفرق المتطرفة

(1). انظر سيرة اتباعه في الملحق رقم 6 .

(2) . Opkomst der Abbasiden P. 40 N. 4 .

اهمية كبيرة (حركة خدائش مثلاً) ، اذ ان هذه العقائد وإن استطاعت ان تستميل بعض النخبة وتوقظ العواطف في النفوس ، وان تبهر الناس بوعود براقة في السعادة الابدية ، فإنها فشلت مع الوقت في اقناع الجماهير بأفكارها الباطنية ، وارتدت على اعقابها لتعيش في الظل . على ان الخراسانيين اختلفوا كثيراً في ذلك عن اهل فارس الغربية (ميديا والعراق وبلاد الفرس نفسها) ، حيث كانوا اقل ميلاً الى التأمل والجدل ، ولا يزال عدد كبير منهم على حماسة شديدة لمذهب السنة حتى هذا اليوم . ولم تكن كراهيتهم للامويين باعثها سوى النقمة على حكمهم الجائر ونيرهم الذي لا يحتمل ، وأما تعاطفهم مع اهل البيت ، فكان توقفاً الى العدالة التي انتظروها على ايديهم ، بحيث لم يفضلوا إماماً على آخر منهم . ومن هذا المنطلق لم يجدوا ما يجمعهم على التردد في الترحيب بالعباسيين ، عندما آلت اليهم الخلافة فتقبلوها من دون تدمير وخلعها بكل اخلاص . وكان الدعاة الذين اوفدهم العباسيون من الكوفة ، يشكلون اداة خطرة على دعوتهم ، وذلك في معرض استئثارهم لهؤلاء الخراسانيين ، الا ان استخدامهم كان امراً لا بد منه في تلك الفترة ، حتى اذا نجحوا في تثبيت دعائم الدعوة ، أخذوا يبحثون عن بديل اكثر جدارة واخلاصاً .

ولقد وجد العباسيون ضالتهم في « النقباء » ممثلي الحزب الخراساني وعلى رأسهم سليمان بن كثير . ولعلنا نعلم هنا بالحديث عن هذا الحزب ، للدلالة على التباين الكبير بين اوضاع هؤلاء النقباء وبين الدعاة العراقيين . ذلك ان الاوائل الذين نشأوا في خراسان وأقاموا على مقربة من مرو ، لم تختلف معتقداتهم حسب رأيي ، عن تلك التي كانت لدى الاكثرية الساحقة من مواطنيهم ، ولم ينجح الدعاة في اجتذابهم الا لانهم لامسوا الحس السياسي عندهم ، دون التعرض مطلقاً لعقائدهم الخاصة .

ويروى في هذا المجال ان يميناً في ثورة الحارث بن سريج قال للاخير : انه لا يريد العمل الا بكتاب الله . فصاح احد النقباء (قحطبة بن شبيب) « لو كان صادقاً لآمدته الف عنان » (١) . وليس ثمة مغالاة او تطرف في هذه الاقوال ، فهي تابعة عن مسلم تقى يرى العدالة والحق في كتاب الله . وهذا ما تميز به رجال الحارث بن سريج واتباعه ، لانهم عرفوا كيف ينتظرون اللحظة المناسبة ، ويدركون الحاجة الى جيش قوي ، منتهيء بعناصره الملتزمة للانقضاض على الامويين وطردهم . وهؤلاء لم يترددوا في الاندفاع نحو الدعاة والانضمام الى صفوف الحركة العباسية .

وكان بعض النقباء قد تعاطف مع خداهش في دعوته الخرية ، الا أن الاكثية منهم عبروا عن سخطهم الشديد على هذه الدعوة ، غير انهم تفهموا ايضاً في ذلك الوقت سياسة الدعاة ، وأدركوا انهم خدعوا بدعوة لم تحتو في الجوهر سوى على النظريات المبتدعة وعلى كل ما هو بعيد عن الدين . وعندما ارسل اليهم كبير الدعاة ، مبعوث الامام الذي تبرأ من خداهش ودعوته ، رفضوا في بادئ الامر الاستجابة له او الاطمئنان اليه . ولم ينجح الامام (محمد بن علي) في اجتذابهم الى صفوفه ، الا بعد ان « بعث اليهم بعضي مضيبة بعضها بالحديد وبعضها بالشبه . فقدم بها بكير وجميع النقباء الشيعة ، ودفع الى كل رجل منهم عصا ، فعلموا انهم مخالفون لسيرته فرجعوا وتابوا » (٢) .

وتذكر هنا بعض المصادر الزيارة التي قام بها سليمان بن كثير للامام عام 120 هـ (٣) ، اي بعد سنتين من وفاة خداهش ، على أن أحداً لا يشير الى

(١) الطبري : 2/ 1930 .

(٢) الطبري : 2/ 1640 .

(٣) Fragmenta His, Arabe P. 182 .

ما أسفرت عنه هذه الزيارة ، باستثناء بعض الملاحظات العامة ، الخالية من اية قيمة تذكر . بيد أنه ليس من العسير التكهن والاستنتاج ، بأن محصل هذه الزيارة هو الاتفاق الذي ساد العلاقة بين الخراسانيين والزعيم العباسي .

وفي الحقيقة لم نسمع بعد ذلك ذكراً عن الدعاة المرسلين من العراق ، حيث اضطلع سليمان بن كثير⁽¹⁾ بمقاليد الدعوة في خراسان .

وهكذا توصل الشيعة دون غيرهم من الاحزاب التي تصدت للامويين ، الى تشكيل حركة منظمة تتمتع بكل مقومات النجاح . على ان الكوفة لم تعد تلك المدينة صاحبة الدور الرئيسي في تلك الحركة ، حيث كان اهلها خليطاً من مختلف العناصر ، وعاجزين رغم حماسهم عن الالتزام بموقف يتطلب الصمود والنفس الطويل .

وخلافاً لذلك كانت خراسان تستقطب موالين ، أقل غلوا ولكنهم اكثر التزاماً بقضية اهل البيت . وفي الوقت الذي شهد صراعاً من دون جدوى بين متطري الشيعة وبين الخوارج في العراق وميديا ، كان بنو العباس يحققون بفضل قادتهم الدعاة ، النجاح الكبير في ضم الشعب الخراساني المحارب الى جانب قضيتهم .

ولم يبق امامنا سوى البحث عن الدافع الرئيسي لثورة هذا الشعب ضد الخلفاء الامويين ، في الوقت نفسه الذي كان هؤلاء على اقتناع بانتصارهم على جميع خصومهم ، وذلك الدافع لم يكن في الحقيقة سوى العقيدة « المهدية » .

(1) القريري ، القفى . المكتبة الوطنية في باريس . ورقة 65 . انظر ايضاً :

336 Quatremère dans le journal Asiatique 1835, 11 وكذلك الملحق رقم 6 .

المعتقدات المهدوية

- 1 -

يجب ان لا يفوتنا في دراسة تاريخ الاسلام والشرق عامة ، مدى الدور الذي يحتله عامل التنبؤ ، وتأثير الروح الشرقية بكل ما له علاقة باستكشاف الغيب واحداث المستقبل .

وقد خصص ابن خلدون في « مقدمته » فصلين من أهم فصولها للدراسة هذا الموضوع⁽¹⁾ . فكان المؤرخ الشرقي الوحيد الذي أدرك أهمية هذا النوع من التنبؤ ، وأول من حمل عليه واثبت بطلانه . اما عندنا نحن الغربيين ، فالمهدية - أو المهدي المنتظر تحليداً - استأثرت باهتمام المستشرقين منا ، لما لها من تأثير على سياسة الشرق حتى اليوم . والدراسات التي قام بها كل من ج . درامستيتير J. Dramsteter وسنوك هرغرونج Snouck Hurgronje ، عن المهدي لا تخرج عن طابعها الكلاسيكي⁽²⁾ اما المؤرخون من امثال دي غويه De Goeje في اطروحته عن القرامطة ، فقد عرض مطولاً لتأثير هذه

(1) Notices et Extraits, Tom. XVII P. 142- 201, traduction P. 158- 237

Le Mahdi depuis les Origines de L'Islam jusqu'à nos jours, par james Dramesteter. (2)

Paris 1885. Snouck Hurgronje, der Mahdi, Separatabdruck Von der Revue

. Coloniale Internationale 1886

التنبؤات (خاصة تلك التي تركز على بعض قواعد التنجيم) ، على مسار احداث القرن العاشر الهجري^(١) . على ان الآخرين أهملوا غالباً هذا الموضوع ، دون ان يحضرنى في هذا المجال سوى معلومات عامة تركها لنا دي ساسي De Sacy وكاترمير Quatremère وويل Weil ودوزي Dozy وبالنسبة لي فقد خصصت في كتابي ، عن استيلاء العباسيين على الخلافة ، فصلاً خاصاً بالتنبؤات التي كان يؤمن بها الناس في عهد الامويين^(٢) . وما ظهر من الابحاث بعد ذلك يتيح لي اعطاء مزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع .

ان المعلومات التي قمت بتدوينها ، كان لها علاقة بدون شك بتلك الطريقتين المختلفتين اللتين عولجت بهما الامور المستقبلية . فهي اولا عبارة عن تنبؤات متاثرة ، ذات مصدر مجهول في الغالب ، يتعلق بموت بعض الشخصيات الشهيرة او بحدث كبير الاهمية . ولدينا بضعة امثلة على ذلك :

كان المختار الزعيم الشيعي المعروف يعتقد انه « ذلك الرجل من ثقيف الذي يفتح عليه بالمدار (مكان بين واسط والبصرة) فتح عظيم » ، على أن نبؤة المختار تحققت بعد ذلك في ثقيف آخر هو الحجاج بن يوسف ، الذي انتصر على الئائر عبد الرحمن بن الاشعث^(٣) . والحسين بن علي رفض اعلان الثورة في الحجاز بعدما أخبره أبوه « أن بها كيشاً يستحل حرمتها »^(٤) . وعندما قتل حفيده زيد ، تذكر هشام بن عبد الملك تلك النبؤة « ان شاء

(1) De Goeje, Mémoire sur les Garmathes du Babrain et les Fatimides, P. 115 suiv.

(2) Opkomst der Abbasiden, P. 132 suiv.

(3) الطبري : 748/2 .

(4) نزه : 276 / 2 .

سنتلج في العراق» (١) . وثمة نبؤة ثالثة تتحدث في هذا الموضوع « والله انك الازيرق المذبوح فيها كما تلبح الشاة» (٢) . وكان احد المنتبئين قد كشف للحارث بن سريج موته تحت شجرة زيتون او غيراء (٣) ، حيث تحققت هذه النبؤة بكل تفاصيلها . وينسب ايضاً الى الاصبع بن عبد العزيز البراعة في علم الغيب (٤) ، وكذلك ابنته دحية ، وأنه حين رأى آثار جرح على جبهة اخيه عمر صالح قائلاً : « هذا أشج بني مروان الذي يملك » .

وتجدر الملاحظة أن هذه التنبؤات كانت سرية في الغالب . واذا ما حدا الامر الى اكتشاف اصحابها ، فمعظمهم كان في الاصل على اليهودية او المسيحية قبل اعتناق الاسلام (٥) .

وكذلك تنبأ يهودي (رأس الجالوت) بموت الحسين حفيد الرسول على مقربة من كربلاء (٦) . كما تنبأ بموت عمرو بن سعيد ، يهودي آخر وهو ابن كعب الاحبار (٧) .

والى جانب هذه التنبؤات المختلفة ، وجدت كتب في كشف الغيب . وهي لم تكن معروفة للعرب في بادئ الامر ، ولكنهم اقتبسوها عن اليهود والمسيحيين ، حيث كان لهم انبياء هم الذين حفظوها منذ زمن بعيد .

(1) نفسه : 846/2 .

(2) الطبري : 164/3 .

(3) نفسه : 1934/2 .

(4) كان علماً بخبر ما يكون (بالمرية) . ابن قتيبة ، المعارف ص 184

Wüstenfeld (Rgeister, Geneal, Tabel)

(5) الطبري : 2403/1 (ص 15) و 2410 (ص 2 وما بعده) .

(6) نفسه : 287/2 .

(7) نفسه : 786/2 .

وكانت بينها كتب في التفسير والالغاز والرموز المبهمة ، الى اخر ما وصل العرب في هذا المجال ، وذلك عبر القسس والرهبان والقبط واليهود وغيرهم .

وكان الحجاج قد بحث طويلاً عن موقع ملائم حول نهر دجلة لبناء مدينته (واسط) ، حين التقى براهب يرمي التراب في النهر في ذلك المكان . فقرأ هذا الاخير في كتبه ، بأنه سيقام ، حيث تبول دابته ، مسجد يعبد فيه الله وتقام به الشعائر حتى تحين الساعة (١) . وفي هذه الكتب وغيرها نجد اوصافاً لاشخاص دون اسمائها أو بالعكس (٢) . وكان الخلفاء يهودون اليها لاستكشاف الوقت الذي سيقضونه في الحكم ، كيزيد بن عبد الملك الذي اخبره يهودي بأنه سيتولى الخلافة اربعين عاما ، فتصدى لهذه النبوة يهودي اخر وقال : « كذب لعنه الله ! انما رأى انه يملك اربعين قصبة ، والقصبة شهر فجعل الشهر سنة » (٣) .

وقد سميت هذه المؤلفات بالكتب او الكتب القديمة Kotob Qadimat (٤) . وثمة كتاب منها يعود تاريخه الى القرن الاول الهجري ، هو كتاب دانيال الذي يحتوي على بعض التنبؤات ، ذكر فيها عمر بن عبد العزيز حاملاً اسم « الدردوق الاشج » (٥) (الولد الجريح) . وقد انتشرت كتب دانيال وتنبؤاته فيما بعد انتشاراً واسعاً ، وعمت نسخ منها مكاتب المتحف البريطاني وفيينا وغوتا والاسكوريال ، بيد أن واحدة منها لا تمت

(١) الطبري : 1126/2 .

(٢) نفسه : 1138/2 .

(٣) نفسه : 1464/2 .

(٤) المعقد الفريد 2/447 . الطبري : 25/3 .

(٥) ابن قتيبة ص 184 . دردوق ، كلمة ارمنية الاصل .

الى القرن الاول الهجري .

ولقد نافست كتب دانيال في شعبيتها كتب الجفر Djafir ، المشتق اسمها من كتاب للتنبؤات مخطوط على جلد بعير (جفر) . وهو منسوب الى بيت الرسول ، خاصة علي وحفيده جعفر بن محمد الصادق (1) .

اما كتب الملاحم Malahim وهي عبارة عن اشعار تتضمن تكهنات عن احداث المستقبل ، فيعود تاريخها كذلك الى القرن الاول الهجري . وبعد موت زيد بن علي (في عهد هشام) ، تعرض الخراسانيون لاضطرابات شديدة حين «ظهر الدعاة ورؤيت المنامات وتدورست كتب الملاحم» (2) . وكلمة ملحمة تعني أصلاً معركة أو موقعة (3) وملخمة (بالعبرية) . ولقد استخدمت في بعض العبارات التي مر ذكرها بالمعنى المجازي للدلالة على حادثة خطيرة لا مفر من وقوعها (4) ، ومن ثم بالمعنى المستقبلي للحوادث ودخلت في الشعر التنبيء بعالم الغيب . ومن الوسائل الاكثر شيوعاً في الملاحم ، الرمز الى الاشخاص بحرف واحد كأن يقال مثلاً : « ق » سيقتل « م » بمساعدة « ج » ، ثم يأتي « ش » ويحقق انتصاراً حاسماً الخ . . وفي عهد آخر الخلفاء الامويين كانت تتردد النبوة : « ع » بن « ع » بن « ع » سيقتل « م » بن « م » بن « م » . وقد أول الناس هذه الرموز باسم الخليفة

(1) مقدمة ابن خلدون . ترجمة De Slane ص 214 وما بعدها . من المشكوك فيه ان يطلق اسم حيوان على جلده . ولا يستبعد أن تكون كلمة (جفر) من أصل أجنبي (قبلي أو يوناني على الأرجح) .

(2) اليعقوبي : 2 / 392 .

(3) الطبري : 1 / 2651 (س 4) 2132/3 .

(4) ملحمة كتب علي (بالعربية) الطبري 2 / 607 (س 8) . ابن هشام . طبعة (Wüstenfeld) 816

(س 15) . اليعقوبي 2 / 215 . 561 . Fragn. Hist. Arab.

الاموي مروان بن محمد بن مروان وعبد الله بن علي بن عبد الله
العباسي (1) .

- 2 -

تحدثنا في الفصل الاول عن التنبؤات المرتبطة بأشخاص او بحوادث
معينة ، ويبقى ان نتحدث عن نوع آخر من التنبؤ ، لا يقل تأثيراً وأهمية عما
سبق ، وهو التنبؤ بنهاية الوجود (مصير العالم) .

هذه التنبؤات تعود كذلك الى اصل يهودي او مسيحي ، قبل أن تكتسب
طابعها العربي في القرن الاول الهجري . وقد وصلت الى المسلمين على
شكل تنبؤات مجهولة المصدر ولما تحت ستار من الاحاديث الموضوعة ، التي
نقلها غالباً اليهود او النصارى عن اعتنقوا الاسلام . ويفضل هذا النوع من
التنبؤ ، اكتسب شهرة واسعة كل من وهب بن منبه وتميم الداري وكعب
الاحبار . ولقد روى المقرئزي طريقة عن هذا الاخير ، ربما تكشف المصدر
الذي كان هؤلاء يستمدون منه معلوماتهم ، وتظهر لنا في نفس الوقت
سخرية الناس من هذه الادعاءات الكهنية . فقد التقى كعب مع محمد بن
حذيفة (ابن أبي حذيفة) على متن سفينة ، فسأله هذا الاخير متهمكياً « هل
هذا السفر مذكور عندكم في التوراة ؟ » . فأردف كعب قائلاً : « اني أجد
عندنا في التوراة شاباً أشعر يضرب حتى يموت كما يموت الجمار وأخاف ان لا
يكون أنت » (2) .

De Sacy, Chrestomthie Arabe (2e ed) tome II, P. 298 suiv. journ. Asiat. 1860. P. (1)

134.

. Dozy, supplément, s, v.

الطبري : 2/ 1903 (م 3) . السعدي : 108/6 .

(2) انظر محمد بن حنيفة في اللقى للمقرئزي (مخطوطة لين) .

والحديث عن الآخرة معروف في القرآن وهو من مبادئه الأساسية ، أو ما يعبر عنه باقتراب الساعة (يوم الحساب) الذي كان معروفاً لدى المسيحية من قبل . بيد انه لا يوجد ما يشير الى تحديد تلك الساعة وما يسبقها من الاضطرابات ، ومن ثم عودة المسيح وظهور « المهدي » و (الدجال) . ولكن ذلك ورد في « الاحاديث » ، حيث اصبحت جزءاً من المعتقدات الاسلامية في عهد الامويين . وهي لم تقف عند هذا الحد ، بل شغلت الافكار بحماسة لا تقل اندفاعاً عن مسألة قيام « الساعة » في عهد الرسول .

اما عصر الاضطراب ، الذي يرمز اليه اللاهوت الرباني بكلمات Kheble Ham- Machiakh (آلام طفولة المسيح) . وهي ذات مدلول يشير عادة الى الضجة والاضطرابات . ومن المثير ان يأخذ في « الحديث » المعنى نفسه الذي ورد في العبرية اي القتل (هرج) Hereg . وقد اشار الرسول في « حديثه » الى ان هذه الاخيرة لها مفهوم القتل عند الاثيوبيين (١) (الاحباش) . ومن الواضح ان اصل هذه الكلمة « هرج » مأخوذ عن العبرية وليس عن الاثيوبية التي ليس فيها مصدر « ه . ر . ج » H. R. Dj.

ومن الممكن جداً ملاحظة التكهن بـ « المهرج » في عبارة الزبير (عندما رفض اهل البصرة الانضمام اليه ضد علي) : « انها هذه الفتنة التي كنا نتحدث عنها » (٢) . على ان هنالك من الادلة ما هو اوضح من ذلك ، خاصة ما ورد في الاحاديث التي جمعها البخاري وأبو داود وغيرهما . وما يهمني في هذا الموضوع قول الرسول (٣) لاولئك الذين سيلتزمون بالجهاد في

(1) البخاري : (طبعة القاهرة) 4/ 159 .

(2) ابن الاثير : 3/ 178 .

(3) البخاري : 2/ 160 .

الحروب الاهلية التي ستندُرُ قرنهما بين العرب : ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي . من تشرف لها تستشرفه . فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فليعذ به » . وهناك حديث آخر من هذا النوع « : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » . ومن هذا الحديث الأخير هنالك روايات مختلفة تميز بها كتاب الطبقات لابن سعد « الذي يقول : « قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة ، فهرب منه وجوه أهل الكوفة » . فقدموا علينا من البصرة وفيهم موسى بن طلحة بن عبيد الله (أحد أصحاب الرسول) . وكان الناس يرونه في زمانه هو المهدي . قال (خالد بن سمير) فغشيتهم ناس من الناس وغشيتهم فيمن غشيه ، فإذا شيخ طويل السكوت قليل الكلام طويل الحزن والكآبة ، إلى أن قال يوماً : « والله لأن أكون أعلم أنها فتنة لها انقضاء أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا وأعظم الخطر » . فقال رجل من القوم : « يا أبا محمد ! ما الذي ترهب وأشد أن تكون فتنة قال : اهرب « الهرج » . قال « وما الهرج » ؟ قال الذي كان أصحاب رسول الله (ص) يحدثون عنه ، القتل بين يدي الساعة لا يستقر الناس على إمام حتى تقوم الساعة عليهم . وهو كذلك وأيم الله لئن كان هذا لوددت أني على رأس جبل لا أسمع لكم صوتاً ولا أرى لكم داعياً حتى يأتيني داعي أبي » .

أما المسيح الدجال Antechrist ، كما يسميه العرب ، فهو من اصل ارامسي . Daggolai Mechikhe Hexpal. Dan. XIV; 20 Mechikhe- daggolé Mat xxiv 24

(1) أبو دلوود (طبعة القاهرة 1280/2 133 (ص 23) . البخاري 161/4 ، 199/2 .

(2) غطولة Gotha رقم 1748 . ورقة 108 وما بعدها . وقد لوردت النص في الملحق رقم 5 .

ولم يرد له ذكر في القرآن ، غير ان « الاحاديث » اشارت الى يهودي من المدينة هو صاف بن صائد أو ابن الصياد ، الذي أعلن الرسول أنه هو الدجال . ومنذ ذلك الحين استكشف الجميع عن معاشرته أو التحدث اليه^(١) . هذا وقد سمي المتوكل الليثي^(٢) أحد الشعراء المعاصرين للمختار هذا الاخير في قصيدة له بالدجال . كما أخبر يهودي من سورية عمر بن الخطاب ، بأن الدجال سيخرج من قبيلة بنيامين والعرب على باب لد^(٣) Lydda .

وعندما بلغ هؤلاء مدينة نهاوند صاح الرهبان والقسس من اعالي الاسوار « يا معشر العرب لا تعنوا فإنه لا يفتحها الا الدجال او قوم معهم الدجال » . ولقد دخل العرب المدينة بفضل مساعدة صاف بن صائد الذي كان يقاتل في صفوف المسلمين^(٤) . وعندما اختفى هذا الاخير بصورة غامضة اثناء معركة الحرة (63 هـ) ، اخذ العرب يبحثون عن بديل يقوم بالدور نفسه . ولان الدجال هذا كان أعور العين اليمنى - حسب ما وصف آنذاك - أصبح للعوور حظ كبير في هذا المجال^(٥) . وكان ابراهيم بن عبد الله بن مطيع أعور العين ، فأراد يوماً ممازحة امير الكوفة في حضرة الخليفة هشام بقوله : « مولاي ! لولا ما اخاف من غضبه عليك وعلى المسلمين لاجبته .

(1) Sprenger, Das Leben und die Lehre des Muhammad, III. 92, N. 31 تاج العروس

402/2 ، أبو داود 140/2 ، الترمذي 93/2 وما بعدها ، صحيح مسلم (طبعة القاهرة 1290 هـ)

377/2 وما بعدها . البخاري 2565/4 ، 2566 . الاغانى 25/19 . ونستخلص (من الطبري

1/2565 ، 2566 ، والاغانى 25/19) انه كان شخصية تاريخية .

(2) الطبري : 2/686 . أبو داود 140/2 .

(3) نفسه : 1/2403 .

(4) نفسه : 1/2565 .

(5) الاغانى : 8/35 ، زهر الادب : 1/320 .

قال : وما تخاف من غضبه ؟ قال : بلغني ان الدجال يخرج من غضبة يغضبها ⁽¹⁾ .

ولم اشأ التعرض لكافة القصص والوسائل المرتبطة بالدجال في القرن الاول الهجري ، فلعل ما ذكرته يكفي للدلالة على مدى الانتشار الذي وصل اليه في ذلك الوقت . ولكن ثمة ما يستوجب اضافته في هذا الموضوع عندما التقى محمد بن اسحاق (+ 151 هـ) انس بن مالك وعلى رأسه عمامة سوداء ومن ورائه صبية يهتفون « هذا رجل من أصحاب رسول الله (ص) لا يموت حتى يلقى الدجال » ⁽²⁾ .

- 3 -

فمن المحتمل جداً ان التكهن بعودة عيسى بن مريم (المسيح) ، قد شاع بين المسلمين في الفترة المتزامنة مع انتظار الدجال ، رغم انه ليس لدي ما استند اليه سوى ما اورده الحديث النبوي ⁽³⁾ . ولو جاز الاعتماد على القصص والطرائف التاريخية ، وهي كثيرة ، لامكننا الاستنتاج ان التكهن بعودة المسيح ، كان اقل تأثيراً في النفوس من عودة الدجال .

واذا ما صحت هذه الرؤية ، فان ذلك يعود حسب اعتقادي الى ما تميزت به الذهنية العربية وقدرتها على تدجين المسيح واسناد دوره « الانقاذي » الى اناس منهم . ولعل في هذه الحادثة ما يؤكد الذي ذهب اليه ، حين توجه موفد لأمير خراسان الى زعيم العرب اليميني بقوله : « أيها

(1) المعقد الفريد : 149/2 . انظر صحيح مسلم 347/2 وما بعدها .

(2) ابن خلكان : (طبعة Wüstenfeld رقم 623 ص 8) .

(3) أبو داود : 138/2 وما بعدها . الترمذي : 36/2 .

الاعور ، لعلك انت ذلك الاعور الذي ستهلك على يديه مضر » . وهنا يبدو الامر لنا مرتبطاً بنبؤة تشير الى هلاك مضر على يد رجل اعور ، وهي ليست الا نموذجاً لأسطورة الاعور الدجال ، متأقلاً مع متطلبات الظروف السياسية العربية .

وكان ذلك نفسه مختصاً بالمسيح عيسى بن مريم . فقد تنبأ الناس بأن « السفيناني » هو المسيح المخلص الذي ينتظره انصار الامويين . وعن حديث ورد في كتاب الاغانى (١) ، أن خالداً بن الخليفة يزيد الاول هو مبتدع اسطورة السفيناني ، للحد من هيمنة الفرع المرواني الحاكم (من سلالة حرب)^(٢) قريب ابي سفينان) . وثمة سفيناني آخر (من سلالة خالد هذا) قام ايضاً على رأس مجموعة من انصاره في اواخر الحكم الاموي . ولقد وقفنا على اخبار هذه المحاولات العقيمة التي قام بها السفينانيون من حين لآخر (٣) .

ووضع اليانيون بدورهم كل الامل في « القحطاني » ، ذلك الامير المثالي المتختر من سلالة قحطان (٤) . وكان عبد الرحمن بن الاشعث قد زعم انه « القحطاني المنتظر »^(٥) حسب رواية السعدي . ففي قصيدة لبنت سهم سُمي ابن الاشعث (الذي ثار في سنة 81 هـ) بالمنصور عبد الرحمن (٦) .

(1) الاغانى : 88/16 .

(٢) الصحيح هو العاص وليس حرب كما ورد خطأ (المترجم) .

(2) أبو الحسن : 246/2 . الطبري : 53/3 (س 14) و 830 .

Snouck Hurgronje 11. P. 11. Freytag, Selecta Historiae Halebi P. 12 suiv.

(3) صحيح البخاري : 167/4 .

(4) التتبيه والاشراف ص 314 (طبعة De Goeje) خلع عبد الملك وذلك باصطخر وفارس وخلعه الناس جميعاً وسمى بنفسه ناصر المؤمنين وذكر أنه القحطاني الذي ينتظرونه الهانية وأنه يعيد الملك فيها . فقيل انما القحطاني على ثلاثة احرف ، فقال اسمي عيد ولما الرحمان فليس من اسمي (بالعربية) .

(5) البلاذري ، الانساب (طبعة Abtwardt) ص 334 .

ولم يكن « المنصور » الا المسيح الذي كان ينتظره عرب الجنوب ليعيد اليهم الملك (1).

ويقابل القحطاني عند اليمنيين التميمي عند المضريين ، وان كنا لا نعرف عنه سوى اسمه . وكذلك اعتقد بنو كلب اليمنيين بطلهم المنقذ « الكلبى » .

أما المسيح المخلص عند الشيعة فمعروف جداً وهو « المهدي المنتظر » . والمهدي كان من ألقاب الشرف في بادئ الأمر ، قبل أن يصبح الرمز لذلك المخلص الذي يظهر من أهل البيت « ليملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً » .

ومن الواضح ان فكرة انتظار المهدي لم ترتبط في الاصل بأسرة النبي وحدها (2) ، ولكنها اخذت تنتشر مع ازدياد نفوذ الشيعة .

وكانت فكرة المهدي معروفة في الحقيقة لدى السنة ، الى درجة انها طغت على منافسيه من « المهديين » كالسفياني والقحطاني وغيرهما . بيد ان ذكر هؤلاء لم يتلاش تماماً ، فصاروا ملتصقين بالدور نفسه الذي لعبه الدجال بالنسبة الى عيسى بن مريم . وسيقوم المهدي في النهاية ليحقق عليهم النصر في معركة حاسمة .

D. H. Müller, Die Burgen und Schlosser Süd-Arabiens 1, 75 suiv. (1)

هذا وقد وضع المؤرخ أبو مخنف كتاباً في « الحديث » عنوانه : يا حميرا او موت عبد الرحمن بن الاشعث ، تضمن الكثير من المعلومات عن هذا الموضوع (راجع القهرست) . (طبعة Flügel

ص 93

(2) كان يلقب كل موسى بن طلحة وعمر بن عبد العزيز بالمهدي حسب ما ذكره بعض المؤرخين . انظر للمحقق رقم 5

كانت السعادة المنشودة مع عودة المهدي المنتظر ، تبدو شديدة البعد عن واقع تحيط به الكآبة وسيطر عليه المظلم ، حيث كانت الحرب الاهلية التي تغذيها احقاد القبائل بين مضر وقحطان ، ويذكي نارها الانقسام الذي استفحل بين اواخر الخلفاء من الامويين ، تلك الحرب التي اکتوت بلظاها بلاد الشام وبقية الولايات الاسلامية من بعدها .

ولم تلبث الفوضى ان عمت ارجاء الخلافة واستولت على العرب همى الحرب ، فرفع الخوارج والشيعه رؤوسهم من جهيد . ووحدها ظلت الحاميات السورية على ولائها الاموي ، بينما تحالف العرب المربطون في بقية الولايات مع اعداء الحكم المركزي ، الامر الذي اصبح معه تراث النبي وما انجزه كل من ابي بكر وعمر مهتداً بالزوال . فقد كانت هذه الفترة من التاريخ بائسة الى الحد الذي ملأ قلوب المسلمين الاتقياء بالتشؤم والجزع . . وليست هذه الايات للحارث بن عبد الله الجعدي الا شهادة على ذلك بصدق ومرارة .

اذا استقلت تجري اوائلها	أبيت أرعى النجوم مرتفقا
قد عم أهل الصلاة شاملها	من فتنه أصبحت محللة
بالشام كل شجاء شاغلها	من بخراسان والعراق من
دهاء ملتجة غياطلها	فالناس منهم في لون مظلمة
جهل سواء فيها وعائلها	يمسي السفیه الذي يعنف بالـ
تنبذ اولادها حواملها	والناس في كربة يكاد لها
عمياء تمنى لهم غوائلها	يغدون منها في كل مبهمة
الا التي لا يبين قائلها	لا ينظر الناس في عواقبها

كرغو البكر او كصيحة جد لي طرقت حولها قوايلها
فجاء فينا أزرى بوجهتها فيها خطوب حمر زلازلها (1)

وكذلك ابيات الامير عباس بن الوليد ، فهي صورة صادقة لحالة اليأس
التي استولت على الخلافة :

إنني اعيذكُم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئباب الناس انفسكم ان الذئباب اذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم فشم لا حسرة تعني ولا جزع (2)

وهنا نلاحظ مدى تغير الرأي العام ازاء الامويين ، حيث صح فيهم قول
الامير عباس « ان البرية قد ملت سياستكم » . فقد بدأ الناس بصورة عامة
يدركون انهم افقدوا الامل بأي اصلاح في هذا النظام الفاسد الذي أقامه
خلفاء دمشق ، وأن بقاءه لا يعني سوى ضياع الاسلام .

ونتساءل هنا اذا كان الناس في تلك الحالة يعتقدون باقتراب ظهور
المهدي « المخلص » ؟ . قد يكون ذلك ممكناً ، فيصبح هذا الامل هو العزاء
النفسي الوحيد للاتقياء المسلمين . وسوف لا تأخذنا الدهشة اذا رأينا املاً
آخر يحيي النفوس في ذلك الوقت . فمن اجل بناء صرح للسعادة قوي ،
وجب اولاً هدم الاطلال ورفع انقاضها من الارض . ومن هنا كانت الحاجة
ماسة الى ظهور رجل ، يقضي على تلك الاطلال ويهيئ السبيل لذلك

(1) الطبري : 2/ 1857 .

(2) نفسه : 2/ 1788 .

المهدي المنتظر . وحينذاك انطلقت نبؤة جديدة ، لتُضاف الى رصيد النبؤات القديمة ، مبشرة بالرجل ذي الاعلام السود الذي يخرج من المشرق ليزيل حكم بني امية . (الكامل للمبرد ص 585 ، الطبري 2/ 1929 وما بعدها) .

وقد نتساءل ايضاً : عن تلك الاعلام السوداء ودلالاتها ؟ .

لقد اتخذ الامويون حتى ذلك الحين البياض شعارهم ولون رايتهم ، بخلافاً للعباسيين الذين اعتمدوا السواد شعاراً لهم ، وذلك من واقع الحزن على شهداء اهل البيت الذين سقطوا ضحية استبداد الحكم الاموي وظلمه (1) . ولكن من المحتمل ان يكون انصار الامويين ، قد اتخذوا هذا الشعار الابيض بعد جلوس العباسيين على عرش الخلافة واتخاذهم السواد لونهم المفضل (2) ، أما ان يكون الاخير علامة الحداد ، فقد يكون ذلك وارداً فقط بالنسبة للملابس السوداء (اللباس الرسمي للعباسيين) ، خاصة وان الروايات التاريخية تؤيد ذلك (3) .

(1) Sur ces couleurs politiques V. Mamaker, Réflexions critiques pour servir de réponse aux éclaircissements de M. de Hammer, Leide 1829. P. 8 suiv. De Sacy, Chrestomathie Arabe (2e ed. 1, 48 suiv. 11, 263 suiv. Weil, Geschichte der Khalifen 11, 216 N. 3, Opkomst der Abbasiden P. 137 suiv.

(2) مقدمة ابن خلدون 2/ 44 (النسخة العربية) 51 (الترجمة) . وقد اقتبس فون كيرير عن الاغانى (141/ 6) عبارة مؤداها ان الخليفة الوليد كان يصلي في « ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة » (بالعربية) وان الامويين كان شعارهم البياض . وعلى الرغم من أن هذا اللون هو رمز النظافة ، فلدينا من النصوص التاريخية ما يشير الى عدم اقتصار الامويين على الثياب البيض ، حيث كانت العمة السوداء شعارهم الرسمي . الطبري : 258/ 2 (ص 16) ، العقد الفريد : 42/ 1 ، الاغانى : 60/ 19 ، الطبري : 2148/ 1 .

(3) دي ساسي De Sacy 51/ 1 رواية الدينوري (طبعة Girgass ص 310 . الطبري : 2 / 3 ، 1972 ، البلاذري ، أنساب . Z. D. M. G. xxxviii, 394 .

ولكن هذا لا ينطبق على الاعلام السوداء ، التي لم يكن لها مدلول الحداد . ولم نجد ذلك في ثورات : الحارث بن سريج (116 هـ) و بهلول الخارجي (119 هـ) وأبو حمزة الخارجي (128 هـ) (1) . الذين اتخذوا الرايات السود شعاراً لهم ، دون ان يدعي احدهم الحداد على اهل البيت . ولعل المعنى الحقيقي للسواد نجده في قصيدة للشاعر الكميث ، بعث بها للحارث بن سريج سنة 117 هـ وفيها يقول :

والا فارفعوا الرايات سودا

على اهل الضلالة والتعدي (الطبري 1574/2)

ومن المؤكد ان ثمة علاقة بين الاعلام السود ومحاربة الضلالة (في معناها الوارد في القرآن) والتعدي (بمعنى الخروج على الحكم الالهي) . وهذا الافتراض يقودنا الى نتيجة وحيدة ، سبق ان تحدث عنها هماكر Hamaker ، وهي ان الاعلام المذكورة تمثل راية الرسول ، التي اجمعت كافة المصادر بأنها ذات لون اسود (2) .

ولهذا السبب كان الخوارج في حروبهم على غرار الحارث بن سريج ، يرفعون الراية السوداء لان حريمهم كانت على الضلالة والجور . وهذه الراية تذكرهم بعهد الرسول الذي اعتبروه (صوابا ام خطأ) المثل الاعلى للكمال .

(1) الطبري : 1570/2 ، 1624 ، 1981 . ابن الاثير : 285/5 .

(2) Movradia d'Ohsson, Tableau de l'Empire Ottoman 1, 260 suiv. كتاب الخراج لابن

يوسف ص 119 . فتح البلدان للبلاذري ص 112 ، اليعقوبي (طبعة Houtsman) 151/ 2 .

الدينوري (طبعة Girgass) ص 186 ، كتاب الوفا (Cod. Leid) ورقة 144 وما بعدها . هذا اللواء

الاسود الذي كان يحمل « هذين » Hodhaine لعل في موقعة صفين . الكامل للمبرد ص 436 . العقد

الغريد : 287 ، 123/3 .

وكان من البديهي اتخاذ الاعلام السود شعاراً لمن يطمح الى زوال حكم الامويين في دمشق ، ذلك المبشر بقوم صاحب الحق « المهدي المنتظر » .
 واذا كان الحارث بن سريج قد اعتقد بأنه مهياً للقيام بهذا الدور (١) ، فإنه كما نعلم ، لم يصادف النجاح الذي طمح اليه : بيد ان الامل الذي ايقظه الحارث لم يخب ، فبقى نبراساً للذين يشاطرونه الرأي والموقف ، حيث اجتذبتهم فيما بعد الحركة العباسية . ولعل الحارث اعتمد في دعوته على الحديث الشهير ، الذي رواه ابو داود والذي دخل فيما بعد فلك التنبؤات الشائعة (٢) : « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث ، على مقدمته رجل يقال له منصور ، يوطيء او يمكّن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله (ص) . وجب على كل نصره » .

- 5 -

بعد وفاة رائد الدعوة العباسية في خراسان سليمان بن كثير ، رفع ابو مسلم الخراساني الراية السوداء (في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة 129 هـ) في سفيدنج ، وهي قرية صغيرة بالقرب من مرو . وقد كتب عليها آية معبرة من القرآن (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) .

والى جانب اللقب الذي عرف به « صاحب الالوية السود » ، اتخذ ابو مسلم لنفسه صفة اخرى لا تقل اهمية ، وهي شرف الانتساب بالتبني الى بيت الرسول ، وليس بالولادة كما حاول الايهام بذلك .

(١) الطبري : 1919/2 .

(٢) كتاب السنن لابي داود/2/135 . مقدمة ابن خلدون ترجمة 2/167 . الدرر للتنظيم (Cod. Leid.

1252 ورقة 32 .

ومن الخطأ التصور ان الاحوال في خراسان كانت مهيأة لانتفاضة ثورية عامة . صحيح ان سكان القرى من الموالي ، كانوا يفدون من كل صوب على الدعاة العباسيين . وصحيح ايضاً أنه في اماكن أخرى من هذه الولاية (نسا وبلخ وهراة ومروروذ) قد ثار « المسودة » حملة الاعلام السوداء . ولكن بُعد المسافة التي تفصل هذه المناطق عن بعضها البعض ، حال دون اتحاد جبهة للثوار . وكان ما هو اسوأ من ذلك ، هو ان العرب انفسهم ، حتى المنشقين منهم على الحكم المركزي ، رفضوا باديء الامر الاشتراك مع الموالي « ممن لا نسب لهم » واعتبارهم اعداء للاسلام ، خاصة ما غمي اليهم عن طريق الامير نصر (بن سيار) ، بأن كلمة السر التي تجمعهم هي « الموت للعرب » .

ولا تلبث قوة « المسودة » ان تعود الى حماسها واخلصها الشديد في الدعوة لآل البيت ، رمز حقوقهم السياسية . وكانت النخبة من جنود أبي مسلم آنذاك عن اطلق عليهم « الكفية » او اهل الكف ، الذين كانوا يتقاضون ارزاقهم من القمح بالكفة (الحفنة) ، أو - حسب تفسير افضل - الذين اقساموا اليمين دون اي مقابل ، وان تؤخذ املاكهم اذا اقتضى الامر ، وذلك ابتغاءاً للجنة مقابل هذا التنازل الذي يعني (الكف) (1) . فقد اقسام الجميع بأن لا يطلبوا أجرة فدية او رهينة دون اذن رؤسائهم ، وذهبوا في طاعة هؤلاء ابعد من ذلك ، فكانوا لا يقتلون من يقع في قبضتهم من الاعداء دون اذنتهم (2) .

(1) لقد ساهم الطبري (الكفلية) والصحيح (الكفية) (1957/2) (ص 4) ، 848/3 (ص 15) . وقد كتب المقرئزي ، المفنى الكبير (مخطوطة المكتبة الاهلية في باريس ورقة 180 ب) عبارة مهمة في هذا الموضوع تهمدها في الملحق رقم 6 .
(2) الطبري : 1989/2 .

اما لدى العرب فكان الامر مختلفاً ، حيث ينقصهم الشعور بالوطنية . وباءت محاولاتهم المتكررة بالفشل مهزومة امام دسائس أبي مسلم ، من أجل إقامة جبهة موحدة ضد عدوهم المشترك . ذلك ان أيّاً منهم لم تشغله سوى مصالحه الخاصة او بالاجدى مصالح قبيلته . اما الاخلاص لبني امية فلم يراود احداً انذاك ، حتى ان يمنية مرو - حسب رواية اليعقوبي - انضمت تماماً الى الشيعة وتبنّت مبادئها (١) . والرجل الوحيد الذي بقي مخلصاً للامويين في زمن الخيانة والانانية ، هو الامير نصر بن سيار ، الذي كان يلتمس دون طائل مساعدة الخليفة مروان الثاني . وكان هذا الاخير بدوره في أمس الحاجة الى جنده ، فأجابه بقوله : « احفظ ناحيتك بجهدك » . وكان نصر اكثر الناس دهشة بذلك وهو يتساءل « أيقاظ أمية ام نيام » ؟ .

ولم يدخر ابو مسلم ، بما عُرف عنه من البراعة ، اية فرصة للاستفادة من هذا الواقع . فأخذ يحرّض على الانقسام بين جنود الحكم المركزي ، متفادياً ما استطاع تعريض جيشه الصغير لاي خطر في ذلك الحين . وكان قد أقام معسكره في ضواحي مرو ، حيث نجح خلال سبعة أشهر في اجتذاب اليمانيين والاستيلاء اخيراً على العاصمة الخراسانية . وكانت الخطوة التالية بعدما أصبح سيد الموقف في هذه الولاية ، هي التخلص من شيوخ القبائل الذين يشكلون خطراً على نفوذه ، فقطع اعناقهم بكل بساطة .

وهكذا اندلعت الثورة التي انتهت بسقوط الخلافة الاموية . ولعل وصف أبي حنيفة الدينوري ، ان صدقت روايته ، ينطبق على تلك الفترة التي تحدثنا عنها ، حيث يقول (٢) : « وانجفل الناس على ابي مسلم من

(١) اليعقوبي : (طبعة Houtsman) 399/2 (ص 16 وما بعدها) ، 408 .

(٢) الدينوري : ص 360 .

هراة وبوشنج ومروروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وختلان وكش ونسف ، فتوافوا جميعاً مسودى الثياب . وقد سودوا انصاف الخشب التي كانت معهم وسموها كافر كوبات (١) . وأقبلوا فرساناً وحماراً يسوقون حيرهم ويزجرونها هر مروان ، يسمونها لمروان بن محمد . وكانوا زهاء مائة الف رجل .

ولن نسهب هنا في وصف الرعشات الاخيرة لأمبراطورية بني امية ، او الانتصارات العظيمة المتعاقبة التي حققتها الجيوش الخراسانية . وقد ندش فعلاً امام هذه المنجزات العسكرية ضد أمهر القادة الامويين ، لو لم نعرف ان في مقاومة تلك الامة المحتضرة ، لم يكن ثمة وجود لاية فكرة معنوية دافعة او اية عاطفة تركز على الشعور بوجود نظام ثابت ، اذ ان الشجاعة في اوقات اليأس تكاد تزول امام النصر الذي حققته جيوش بني العباس ، حتى ليخيل ان هذا النصر كان مشيئة الله التي نزلت على الامويين (٢) .

وعلى العكس من ذلك كان الآخرون من الشعوب الاسلامية ، الذين عانوا ادارة فاسدة وعمالاً يستولي عليهم الجشع . هؤلاء قد انبعث الامل في نفوسهم ، مبشراً بالعدالة والسعادة . لقد فتنت هذه الاحلام المستقبلية الفلاحين الفرس ، الذين لم يعرفوا الاسلام الا من خلال الضرائب على اختلافها . وهكذا « في أيام أبي مسلم تلك ، تحلى الدهاقين عن ديانتهم الفارسية واعتنقوا الاسلام » (٣) .

(١) حول معنى كافر ، انظر الاغاني : (١٢٣/٥) . وفي قول أبي مسلم لمستهل بن الكميث : « ابوك الذي كفر بعد اسلامه » ، فقد بدأ الكميث بعض قصائده بمدح الهاشميين وانتقل بعدها الى الانفاضة في ملح الامويين . فكلية كافر كوبات (بالعربية) انما كان يطلقها للمسلمون على انصار بني امية . انظر « كافر كوبات » عند الترك . Biblioth. Yeog. IV. 278 .

(٢) وانتقل دين المجوسية عن الدهاقين واسلموا في وقت أبي مسلم (بالعربية) . انظر ، ما كتبه فون

وهذا الاندفاع كان أكثر وضوحاً في نفوس أولئك المتطرفين ، المتحمسين لتوحيد المذهب ، الذين عرفوا بالخرمية وقد اتينا على ذكرهم في حديثنا عن خدأش الخرمي ، هؤلاء التعساء ، الذين تعقبهم ولاية الأمويين دون رادع ، وجدوا خلاصهم في سقوط هذه الدولة . لذلك لا نعجب من تبنيهم بشدة دعوة أبي مسلم ، ذلك الرجل الغامض الصلب ، الذي لا تشغله مطلقاً ملذات الحياة . فوجدوا فيه الشخصية المؤهلة للتعاطف مع افكارهم ومعتقداتهم ، حتى ان الكثيرين منهم رأوا فيه وحده الامام الحق (1) . وذهب بعضهم في الاعتقاد أكثر من ذلك فاعتبره احد احفاد زرادشت Zoroastre ، الذي يحمل اسم اوشيدر بامي Ochederbami أو اوشيدرما Ochederma ، الرجل الذي ينتظر المجوس ظهوره ، كما المهدي بالنسبة للمسلمين (2) . وقد بلغ الامر بهذه المذاهب انها رفضت الاعتقاد بموت أبي مسلم ، حيث بقي اصحابها ينتظرون عودته ليملا الأرض عدلاً ، ومنهم من حوّل الامامة من بعده الى ابنته فاطمة (3) . وكان ثمة رجل يدعى اسحاق الترك قد فر بعد موت أبي مسلم الى بلاد ما وراء النهر ، واعلن نفسه « داعياً » لهذا الاخير ، وزاعماً ان سيده قد اختفى في مدينة الري . ثم ادعى فيما بعد انه نبي ارسله زرادشت ، الذي لا يزال حياً كذلك ، حيث ينتظر رجوعه للاحتفال بانتصار دينه (4) .

= روزن Von Rosen عن ابن أبي طاهر في :

Mémoires de la Société Russe d'Archéologie III. 1. P: 146- 162

(1) الشهرستاني : ص 114 .

(2) نفسه : ص 188 .

(3) السعدي : 186/6 .

(4) القهرست : ص 314 .

بعد سقوط مرو (13 ربيع الاول 132 هـ) دشّن ابو العباس عبد الله المهدي⁽¹⁾ اول خلفاء العباسيين عهده بالخطبة التقليدية من مسجد الكوفة . وقد ألح فيها الى الآمال المعقودة على هذه الاسرة الجديدة التي ارتقت عرش الخلافة . وسنحاول تبيان ما تحقّق من هذه الامنيات في الفصل الاخير من هذا الكتاب .

وتجدر الملاحظة سلفاً ان العدالة المثالية والمساواة التامة ، ظلتا مجرد وهم من الاوهام . فالحاجة الى « مهدي » يملا الارض عدلاً ، ما زالت في الشرق حتى اليوم ، اشدّ مما كانت عليه في العهد الاموي .

ذلك ان الادارة العباسية كانت من القسوة منذ قيامها ، ما ينافس « الدولة المشؤومة » السابقة . فلدينا من طمع المنصور والرشيد والمأمون وجور اولاد علي بن عيسى وجشعهم ، ما يذكرنا في اكثر من مجال بأيام الحجاج وهشام ويوسف بن عمر ، حيث الدلالات على فجعية الناس وانخداعهم بهذا العهد . ومن ذلك قول شريك الذي ثار في بخارى في عهد أبي العباس⁽²⁾ . « ما على هذا اتبعنا آل محمد : على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق » . وكذلك الثورات المستمرة في الجزء الشرقي من الخلافة (ثورة المقتنع) وانتفاضات الخوارج المتعاقبة ، فضلاً عن حركتي : يوسف البرم الذي لم يكن من هدف له سوى « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، ورافع بن الليث الذي ثار على استبداد علي بن عيسى . كل هذه الوقائع تظهر لنا مدى استمرار التجاوزات القديمة في هذا العهد . ولعل الشاعر أبي

(1) للمعري ، التيه ص 338 .

(2) الطبري : 74/2 .

العطاء لم يكن وحده يردد :

يا ليت جور بني مروان عاد لنا يا ليت عدل بني العباس في النار (1)

وهكذا فإن الذين راهنوا على استلام العلويين من آل البيت ، الحكم ، كانوا اكثر الناس صدمة بآمالهم التي خابت . ولا عجب فقد لقي احفاد علي من الاضطهاد ، لا سيما في عهود الخلفاء الاوائل من بني العباس ما فاق معاناتهم في العهود السابقة .

ولقد قال الحسن بن الحسن بن علي يوماً لابن اخيه محمد بن عبد الله بن الحسن : « لِمَ تبكي على بني امية وانت تريد ببني العباس ما تريد ؟ » فقال والله يا عم لقد كنا نقمنا على بني امية ما نقمنا . فما بنو العباس الا اقل خوفاً لله منهم ، وان الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر (المنصور) (2) .

بيد أن ذلك لن يؤثر في حكمنا العادل على الدولة العباسية . فعل الرغم من فقدانها لتلك الصفات التي نعاها محمد بن عبد الله العلوي ، فإنها انجبت من الخلفاء ممن أثاروا الاعجاب على مدى القرون ، سواء من انفطر منهم على إقرار النظام كالمصور او من شغف بالعلم والمعرفة ، في عصر طغت عليه الممجية ، كالمأمون .

ولم يكن ذلك كل ما امتاز به العباسيون . واذا كان هؤلاء لم يحققوا العدالة والمساواة بعد اعتلائهم سدة الخلافة ، فلا يعني هذا استمرار الاحوال على ما كانت عليه في ظل العهد الاموي . اجل كانت هنالك

(1) يا ليت جور بني مروان عاد لنا يا ليت عدل بني العباس في النار (بالعربية) الاغاني : 84/ 16 .

(2) الاغاني : 106/ 10 .

تجاوزات ومظالم وهو امر مسلم به . ولكننا لا نجد فيها ذلك التنافر الشديد الذي كان سائداً في العهد السابق . فلم يعد اي مكان لطبقة المحاربين وأصحاب الامتيازات من ناحية ، ولا طبقة الفلاحين المضطهدة من ناحية اخرى . كما فقدت صفة التباين بين العرب والشعوب الحاكمة اهميتها كذلك في هذا العهد ، واصبح الاسلام ، وليس الجنس ، هو الذي يحدد علاقة الحاكم بالرعية ثم بين افراد الشعب . واذا حدث ان الجيوش العربية ترفض التنازل عن امتيازاتها القديمة ، فإن الدولة كانت تعتمد الى القضاء على عناصرها او ابعادهم (١) . وفي أماكن اخرى (كالعراق مثلاً) كان انصهار الشعوب مع بعضها ، مشجعاً على خلق مناخ جديد . فقد استبدل نظام عمر (بن الخطاب) القديم الذي يقضي بدفع الجزية للعرب كونهم حماة الاسلام ، بنظام جديد لا يميز بين العرب والفرس في العلاقة مع الدولة ، التي تفرض عطاء محدداً للجميع . واصبح الخراسانيون الايرانيون او النصف ايرانيين ، اشد الجنود اخلاصاً للأسرة الحاكمة الجديدة ، كذلك الموالي الذين طالما اضطهدهم الامويون ، فقد ارتفعت رؤوسهم في هذا العهد وأسندت اليهم المناصب الهامة ، في قصر الخليفة او في الجيش او الخراج او في ادارة الولايات الاسلامية . وهذا ما حدا بالعرب الى جسدتهم بعد ان غدوا أقل شأنًا وتراجعوا الى الوراء منهم (٢) . اما حروب القبائل ضد بعضها البعض ، التي كانت احدى الامراض المتفشية في النظام العربي ،

(1) اليعقوبي ، كتاب البلدان (طبعة De Goeje) ص 285 (ص 6 وما بعده) .

(2) الاغاني : 176/ 12, 148/ 18 . قصيدة هجائية ترجمها كرمير Kremer في كتابه Streifzüge P. 31

stuv- وقد اورد خطأ كلمة (تباين) « بالعربية » في البيت الاول . والصحيح (تباين) « بالعربية

جمع (تباين) « بالعربية » اللبس الخاص بللوي . الاغاني : 21/ 15 . الجواليقي (طبعة Sachau)

فقد أخذت بدورها تنحصر في الأقاليم العربية الأصلية (سورية وشبه جزيرة العرب) . وهكذا فإن انصهار العنصر الحاكم بالشعوب المحكومة ، لم يعد يلقي أية عوائق ، ذلك الانصهار الذي حال دون تحقيقه الأمويون ، أولئك العرب المجنّدين شخصيةً وهوية .

وهكذا أيضاً تهيات الأرضية المناسبة والجاهزة ، لتلقي النهضة الفكرية التي شملت أنحاء العالم الإسلامي ، حيث لم تقتصر ثمارها على الخلافة الشرقية وحدها ، بل تعدتها إلى الإنسانية جمعاء .

ملحق

- 1 -

الشئون المالية في خراسان وإصلاحات نصر بن سيار

من الصعب جداً أن يقف المؤرخ على رأى صحيح فيما يتعلق بالضرائب بخراسان في عهد العرب . وقد ذكرنا قبل أن الجزية أو خراج الجزية (وهي الضريبة التي كان يدفعها الكفار) كانت جزءاً من تلك الضريبة التي كان يدفعها أهل خراسان للعرب ليكفوا عن قتالهم . من ذلك ما فعله مهويه مرزبان مرو . فقد أبرم مع علي بن أبي طالب معاهدة تعهد فيها بأن يدفع له الدهاقين والأسوار والدهسلار (ثلاث طبقات من أصحاب الضياع) الجزية (البلاخري - فتوح البلدان ص 408 وما يليها) . كذلك لم يكف العرب عن قتال أهل هراة إلا بعد أن تعهد لهم أميرها بأن يدفع إليهم الجزية « وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلاً بينهم » .

على أنه كان هناك في عهد نصر بن سيار (720 - 730 م) خراج آخر غير الجزية وغير ذلك المقدار الذي نص عليه في معاهدة الصلح . يتبين ذلك من الخطبة التي ألقاها نصر بن سيار يوم الجمعة بالمسجد بعد أن عاد من غزواته بنواحي بلخ وبلاد ما وراء النهر والتي نقلها بنصها عن الطبري (1688: 2) : « ألا إن بهرامسيس كان مائح المجوس ، يمنحهم ويدفع عنهم

ويعمل أنقأهم على المسلمين . ألا إن أشبداد بن جرميور كان مانح
النصارى . ألا إن عقبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك . ألا إنني مانح
المسلمين أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أنقأهم على المشركين . ألا إنه لا يقبل
مني إلا توفي الخراج على ما كتب ورفع . وقد استعملت عليكم منصور بن
عمر بن أبي الخرقاء وأمرته بالعدل عليكم . فأيا رجل منكم من المسلمين
كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه في خراجة وخفف مثل ذلك عن
المشركين ، فليرفع ذلك إلى منصور بن عمر ، يحولته عن المسلم إلى
المشرك .

ولم يكذب يميني على ذلك أسبوع واحد حتى وفد على نصر بن سيار
ثلاثون ألف مسلم ممن كانوا يدفعون الجزية وثمانون ألف رجل من الكفار
ممن أعفوا منها ، فضرب نصر الجزية على الكفار وأعفى منها المسلمين . ثم
كتب نصر قائمة للخراج وفق هذا النظام الجديد « ثم وظف الوظيفة التي
جرى عليها الصلح » . وقد بلغ خراج مرو في عهد الأمويين مائة ألف درهم
سوى ما كانت تغله عليهم ضريبة الأرض .

ويتضح لنا من تلك العبارة إنه كان بمرو ضريبة عقارية (الخراج)
بجانب ضريبة الرؤوس (الجزية) ، وهي جزء من تلك الضريبة التي نص
عليها في عهد الصلح . ولا غرو فقد فرق نصر (بكلمة أو) بين المسلمين
الذين ضربت عليهم الجزية وغيرهم ممن فرض عليهم الخراج .

ويمكن تفسير هذا إذا اعتبرنا أن الجزية (ضريبة الرؤوس) التي كان
يدفعها الكفار قد تحولت إلى خراج (ضريبة عقارية) على إثر هؤلاء إلى
الإسلام . على أن هناك أمراً آخر من الغرابة يمكن ، وهو إعفاء ثمانين ألف
من الكفار من الجزية التي كانت الحكومة لا تألو جهداً في جبايتها منهم .

ويمكن تعليل هذا بأن الكثيرين من غير المسلمين قد استطاعوا - بمعاونة أشياعهم في الدين - أن يتحولوا من جزية الرؤوس إلى ضريبة أخرى عقارية (خراج) ، هذه الضريبة التي كانت - بلاريب - أخف احتمالاً من الجزية . على أن هناك فرضاً آخر لتعليل ذلك ، وهو أن الأرض التي تركها بعض الموالى (المسلمون من غير العرب) فراراً من ظلم بني أمية قد منحت إلى غيرهم ممن أثروا البقاء على دفع الخراج عنها .

ويفسر لنا اعتناق الكثيرين للإسلام نقص خراج مرو الذي بلغ 2,200,000 درهم على إثر الصلح الذي أبرمه حاتم بن نعمان (على ما رواه البلاذري ص 405 والطبري 1: 2888) أو 1,000,000 درهم 200,000 جريب من القمح والشعير أو 1,200,000 مثقالاً من الفضة على ما رواه غيرها من المؤرخين) .

- 2 -

الخلفاء الأمويون يمثلون المجتمع الاسلامي

يقول الشهرستاني (ص 103 م 14 وما يليه) : « والذين اعتزلوا إلى جانب فلم يكونوا مع علي رضي الله عنه في حروبه ولا مع خصومه وقالوا لا ندخل في غمار الفتنة من الصحابة : عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قيس بن أبي حازم كنت مع علي في جميع أحواله وحروبه حتى قال يوم صفين : إنفروا إلى بقية الأحزاب انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله وأنتم تقولون صدق الله ورسوله فعرفت إيش كان يعتقد في الجماعة فاعتزلت عنه » .

يقول حمزة الأصفهاني (طبعة Gottwaldt) ص 247 وما يليها :
 وصوروهم (يريد صَوَّرَ الأمويون العلويين) عند أعتام عرب الشام بصورة
 الخوارج على أئمة العدل وقرروا عندهم أنهم شقوا العصا وأخرجوا أيديهم
 من الجماعة وحاولوا انتزاع الإمامة من إمام وليعهد إمام (لعلها ولي عهد)
 طامعين في أن يغصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم حتى
 مال عليهم أولئك الأعتام باللعن والإفراء وقالوا لهم تَبَّأَ لكم من معشر
 مفارقين للسنة والجماعة عاصين لخليفة الله ثم غبروا قريباً من مائة سنة
 يحذرون الناس ناحيتهم ييغضونهم إلى النفوس وينهون عن ملاستهم
 والاختلاط بهم حتى أتاح الله لهم منير الظلمة أبا مسلم صاحب الدولة فظهر
 منهم البلاد ونجى منهم العباد .

ويتبين لنا من مقارنة هذه العبارة بالتي قبلها أن رأى حمزة في الأمويين
 وعواطفه المعتدلة نحوهم واعتباره إياهم ممثلين لجماعة المسلمين ، إنما يرجع
 إلى عاطفة وطنية طبيعية ، وأن الكثيرين من المسلمين في القرن الأول
 الهجري كانوا يشاطرون قيس بن أبي حازم رأيه في هؤلاء الأمويين . أنظر ما
 ذكره صاحب الأغاني (ج 6 ص 141) في أول الذيل الثالث ، ثم الذيل
 الخامس (فيما يتعلق بموسى بن طلحة) .

- 3 -

عن أسباب ثورة أهل إفريقية الطبري 1: 2815

كان أهل إفريقية أكثر الولايات الإسلامية طاعة وخضوعاً لبني أمية حتى
 خلافة هشام (بن عبد الملك) ، حيث اندس بينهم بعض الدعاة⁽¹⁾ الذين

(1) يحتمل أن يكون هؤلاء من الخوارج . أنظر بلحسن (طبعة Juynboll ج 1 ص 319، 326) .

وفدوا عليهم من العراق ودفعوهم إلى الثورة ، فقطعوا أواصر الصلة التي كانت تربطهم بدار الخلافة ، ولا يزالوا على ذلك إلى اليوم^(*) . وإلى القارئ سبب هذا الانفصال :

طلما كان يرد هؤلاء البربر على الداعين إلى الفتنة من دعاة العباسيين بقولهم : « إننا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ولا نحل ذلك عليهم . فقالوا لهم إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم لا نقبل ذلك حتى نبورهم (؟) . فخرج ميسرة في بضعة عشر إنساناً حتى يقدم على هشام فطلبوا الإذن فصعب عليهم . فأتوا الأبرش فقالوا أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به ، فقلنا هو أخلص لجهادنا لأننا لا نأخذ منه شيئاً ، إن كان لنا فهم منه في حل ، وإن لم يكن لنا لم نرده . وقالوا إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده ، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى اخواته ، فوفيناهم بأنفسنا وكفيناكم .

« ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون القراء البيض لأمر المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا ما أيسر هذا لأمر المؤمنين ، فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك .

« ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا هذا ليس في كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون . فأحبينا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا . قال : (الأبرش) نفعل . فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا هذه أسماؤنا وأنسابنا ،

(*) ظهر هذا الكتاب سنة 1894 أي قبل إعلان الجمهورية التركية وزوال الخلافة سنة 1923 .
دوزى : تاريخ للمسلمين في أسبانيا ج 1 ص 34 وما يليها .

فان سالكم امير المؤمنين عنا فاجبروه .

ثم كان وجههم إلى إفريقية ، فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشاماً الخبر وسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم ، فلذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا .

- 4 -

الخوارج في عهد أواخر الخلفاء الأمويين

وإلى القارىء طرفاً من هذه الخطبة التي خطبها في مسجد المدينة ، أبو حمزة الخارجي من بلاد اليمن عليه يتبين منها ميول هؤلاء المنشقين ووجهة نظرهم .

الطبري 2: 2009 ، والأغانى 20 ص 104 ، والعقد الفريد 2 ص 190 .

« أتعلمون ، يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرأ ولا بطراً ، ولا عبثاً ولا لهواً ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثار قديم نيل منا . ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت ، وعنف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، فأجبنا داعي الله . ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ . (القرآن الكريم سورة 26 آية 31) .

« فأقبلنا معه قبائل شتى ، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافاً واحداً ، قليلون مستضعفون في الأرض . فلأنا الله وآبينا بنصره ، وأصبحنا والله بنعمته إخوانا .

« ثم لقينا رجالكم بقديد ، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان . فشتان لعمر الله ما بين الغى والرشد : ثم أقبلوا يهرعون يزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه ، وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق . فدارت رحانا واستدارت رحاهم بصرب يرتاب منه المبطلون . . . »

« يا أهل المدينة ! من زعم أن الله تعالى كلف نفساً فوق طاقتها أو سأل عما لم يؤتها ، فهو الله عدو ولنا حرب . يا أهل المدينة ! أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوى على حبه للضعيف ؛ فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذ جميعها لنفسه مكابراً عارياً لربه . ما تقولون فيمن عاونه على فعله ؟ . »

« يا أهل المدينة ! بلغني أنكم تنتقصون أصحابي : قلتهم هم شباب أحداث وأعراب حفاة . ويلكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحداثاً شباباً ؛ شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضية عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم . قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت . فقد خلطوا كلامهم بكلامهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم . . . ! » .

« ولنأت أيضاً بما نقله صاحب الأغاني (ج 20 ص 106) عن الخلفاء الراشدين ثم الأمويين :

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه ما يأتي ويلز ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم وقد أدى الذي عليه ، لم يدعكم من أمركم في شبهة . ثم قام من بعده

بو بكر ، فأخذ بستته وقاتل أهل الردة ، وشمر في أمر الله حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ومغفرته ! ثم ولى بعده عمر ، فأخذ بسنة صاحبيه وجند الأجناد ومصر الأمصار وجبى الفتيه فقسمه بين أهله ، وشمر عن ساقه وحسر عن ذراعه وضرب في الخمر ثمانين . وقام في شهر رمضان ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضة الله إليه والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ! ثم ولى من بعده عثمان بن عفان ، فعمل في ست سنين بسنة صاحبيه ، ثم أحدث أحداثاً ، أبطل آخرتها أولها ، واضطراب جبل الدين بعدها ، فطلبها كل امرئ لنفسه ، وأسر كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك .

« ثم ولى علي بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ومضى . ثم ولى معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه ، وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، وبغى دينه عوجاً وذغلاً ، وعمل بما يشتهي حتى مضى لسبيله ، فعل الله به وفعل ! ثم ولى بعده ابنه يزيد الخمرور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد الصيور ويزيد القرود ، فمخالف القرآن واتباع الكهان ونادم القرد وعمل بما يشتهي ، حتى مضى على ذلك ، لعنه الله وفعل به وفعل ! ثم ولى مروان بن الحكم طريد لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وابن لعينه ، فالعنوه وألعنوا آباءه .

« ثم تداولها بنو مروان بعده أهل بيت اللعنة ، طردوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من اللقطاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان . فأكلوا مال الله أكلا ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخلوا عباد

الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر . فيا لها أمة ما أضعفها
وأضعفها ، والحمد لله رب العالمين !

« ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد
نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون . وقد ولى منهم
عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يكذب ؛ وعجز عن الذي أظهره حتى مضى
لسيله ، ولم يذكره بخير ولا شر . ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، غلام
ضعيف سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده ولم
يؤانس رُشدَه ، وقد قال الله عز وجل (فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ) (القرآن الكريم سورة 2 آية 5) ، فأمر أمة محمد في أحكامها
ودمائها أعظم من ذلك كله ، وإن كان ذلك عند الله عظيماً يشرب
الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام ، يلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على
أهلها بألف دينار وأكثر وأقل ، قد أخذت من غير حلها وصرفت في غير
وجهها بعد أن ضربت فيها الأبخار وحلقت فيها الأشعار ، واستحل ما لم
يجل بعد صالح ولا لنبي مرسل .

« ثم يجلس حيازة عن يمينه وسلامه عن شماله تغنيانه بمزامر الشيطان ،
ويشرب الخمر الصراح المحرمة نصاً بعينها ، حتى إذا أخذت مأخذها فيه ،
وخالطت روحه ولحمه ودمه ، وغلبت سورتها على عقله ، مزق حليته ثم
التفت إليهما فقال : أتأذن لي أن أطير ؟ نعم ! فطار إلى النار إلى لعنة الله
حيث لا يدرك الله . »

- 5 -

المهديون من غير أهل البيت

روى ابن سعد حديثاً جاء فيه أن موسى بن طلحة هو المهدي المنتظر ،

وقد أشرنا إليه عند كلامنا على المهرج . وإلى القارئ نص هذا الحديث نقلاً
عن ابن سعد (الطبقات 1082 suiv. God. Goth. 1748 f.) :

(عن) « خالد بن سمير قال : قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة ، فهرب
منه وجوه أهل الكوفة . فقدموا علينا هؤلاء البصرة وفيهم موسى بن طلحة
ابن عبيد الله ، وكان الناس يرونه في زمانه هو المهدي . قال فغشيه ناس من
الناس ، وغشيته فيمن غشيه ، فإذا شيخ طويل السكوت قليل الكلام طويل
الحزن والكآبة إلى أن قال يوماً : والله لأن أكون أعلم أنها فتنة لها انقضاء
أحب إلى من أن يكون لي كذا وكذا وأعظم الخطر . فقال رجل من القوم : يا
أبا محمد ! ما الذي ترهب وأشد أن تكون فتنة ؟ قال : أरهب المهرج .

قال وما المهرج ؟ قال : الذي كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم يحدثون : القتل بين يدي الساعة لا يستقر الناس على إمام حتى تقوم
الساعة عليهم : وهو كذلك وأيم الله ، لئن كان هذا لوددت أنني على رأس
جبل لا أسمع لكم صوتاً ولا أرى لكم داعياً حتى يأتيني داعي أبي . قال :
ثم سكت ، ثم قال : يرحم الله عبد الله بن عمر أو أبا عبد الرحمن ، إما سماء
وإما كناه . إني لأحسب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عهد
إليه لم يفتن ولم يتغير . والله ما استقر به قريش في فتنتها الأولى . فقلت في
نفسي إن هذا ليزري على أبيه في مقتله قالوا وتحول موسى بن طلحة إلى الكوفة
ونزلها وهلك بها .

وقد ذكر ابن حجر (ج 3 ص 990-996) أن موسى بن طلحة هو
المهدي . كذلك ورد حديث المهرج في « الفائق » للزخشي .

وقد جاء في تلك الأحاديث التي ننقلها عن ابن سعد أن عمر بن عبد
العزیز هو ذلك الرجل الذي سيملاً الأرض عدلاً .

(عن) « جويرية بن أسماء عن نافع قال عمر بن الخطاب : ليت من ذو الشين من ولدى الذي يملأها عدلاً ؟ . (عن) نافع عن ابن عمر قال : كنت أسمع ابن عمر كثيراً يقول : ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً ؟ قال ابن عمر : إنا كنا نتحدث أن هذا الأمر لا ينقضي حتى يلي هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها بسيرة عمر بوجهه شامة . قال فكنا نقول هو بلال بن عبد الله بن عمر وكانت بوجهه شامة . قال حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز وأمه أم عامر بنت عامر أم عمر بن الخطاب . قال يزيد ضربته دابة من دواب أبيه فشجته . قال : فجعل أبوه يمسح الدم ويقول سعدت إن كنت أشجع بني أمية . وأخبرنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي قال يا عبد الجبار بن أبي معن ! قال : سمعت سعيد بن المسيب وسأله رجل فقال : يا أبا محمد ! من المهدي ؟ فقال له سعيد أدخلت دار مروان ؟ قال : لا . قال فأذن عمر بن عبد العزيز للناس فانطلق الرجل حتى دخل دار مروان فرأى الأمير والناس مجتمعون . ثم رجع إلى سعيد بن المسيب وقال : يا أبا محمد ! دخلت دار مروان فلم أر أحداً أقول هذا المهدي . فقال سعيد بن المسيب وأنا أسمع : هل رأيت الأشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير ؟ قال نعم ! قال فهو المهدي : (عن) مسلمة بن عبد العزيز قال : سمعتُ العرزمي يقول : سمعتُ محمد بن علي يقول النبي ما زال منا والمهدي من بني عبد شمس ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز . قال وهذا في خلافة عمر بن عبد العزيز ، أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال . حدثني أبو بكر بن الفضل بن المؤتمر العكفي قال : حدثني أبو يعقوب مولى هند بنت أسماء قال : قلت لمحمد بن علي إن الناس يزعمون أن فيكم مهدياً ، فقال إن ذاك كذاك ولكنه من بيت عبد شمس ، قال كأنه غنى عمر بن عبد العزيز . »

أنظر الطبري (2: 1362) ص 12 وما يليه واليعقوبي طبعة Houlsma ج 2
ص 369 س 2 .

- 6 -

سليمان بن كثير والكفّية

كتاب المقفى الكبير للمقرئ غطوط ، المكتبة الأهلية بباريس ، ورقة
80 ب .

وكان سليمان بن كثير الخزاعي من النقباء . فلما قدم أبو جعفر أخو أبي
العباس على أبي مسلم قال له : إنا كنا نحب تمام أمركم وقد تم بحمد الله
ونعمته فاذا شتم قلبناها عليه . وكان محمد بن سليمان بن كثير خدasha فكره
تسليم أبيه الأمر إلى أبي مسلم . فلما ظهر أبو مسلم وغلب على الأمر قتل
محمدًا ثم أتى سليمان الكفّية وهم الذين بايعوا على أن لا يأخذوا مالا وأن
تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ، ويدخلون الجنة . ويقال إنهم أعطوا كفًا
من الخنطة فسموا الكفّية . وقال لهم حفرتنا نهرًا بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى
فيه الماء يعني أبا مسلم . فبلغ قوله أبا مسلم ، فاستوحش منه وشهد عليه أبو
تراب الداعية ومحمد بن علوان المروزي وغيرهما في وجهه بأنه أخذ عنقود
عنب وقال اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسق دمه .
وشهدوا أن ابنه كان خدasha وأنه بال على كتاب الإمام . فقال أبو مسلم
لبعضهم : خذ به والحقه بخوارزم . وكذلك كان يقول لمن أراد قتله ، فقتل
سليمان بن كثير .

ولم ترد هذه المعلومات الشائعة المفصلة وتلك النبذ الجزئية الصغيرة في
كتب الكثيرين من مؤرخي العرب . وقد انفرد المقرئ بذكر بعض

شذرات منها في كتابه « النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم »
(طبعة Voss ص 52) . وما يؤسف له أن المقريري لم يشر إلى أي مصدر
من المصادر التي نقل عنها تلك المعلومات . وليس بعيداً أن يكون المؤرخون
المعاصرون للدولة العباسية قد حذفوا من كتبهم كل ما عساه أن يغض من
شأن هذه الدولة ، من تلك النبذ والأخبار التي لم يعد يخشى المؤرخون
المعاصرون للمقريري في ذكرها جانب العباسيين :

1 - الاعلام

أ -

- ابن الاثير 73
 ابن حجر (العسقلاني) 186
 ابن خردادبة 99
 ابن خلدون 151
 ابن خلكان 160
 ابن سعد 73, 158, 185, 186
 ابن عبد ربه الأندلسي 73
 ابن الفقيه (جغرافي) 139
 أبو بكر 123, 125, 139, 163, 184
 أبو جعفر المنصور 10, 54, 55, 142
 143, 172, 173, 188
 أبو حمزة الخارجي 166
 أبو داود (محدث) 157, 167
 أبو سفيان 139, 161
 أبو الصيда (صالح بن طريف) 32
 35, 108, 109, 116, 117
 أبو العباس 172
 أبو عبد الله المهدي (الفاطمي) 56
 أبو العطاء (شاعر) 172, 173
 أبو عتف (إخباري) 162
 أبو مسلم الخراساني 57, 59, 122, 167, 168
 169, 171, 180, 188
 أبو هاشم (عبد الله بن محمد بن الحنفية)
 148, 135, 137, 138, 142
 أبو يوسف (القاضي) 86
 الأبرش 181
 الأخشيد 103
 إبراهيم بن عبد الله بن مطيع 159
 إبراهيم بن محمد (العباسي) 143
 أسامة بن زيد بن حارثة 179
 اسحاق الترك 171
 أسد بن عبد الله القسري 36, 110, 111
 118, 143, 144
 أسما عيل بن جعفر الصادق 50, 55
 الأشحيد لقب فارسي
 الأشرس بن عبد الله السلمي 32, 35

- 117, 111, 109, 108
الأصبغ بن عبد العزيز (عالم بالغيب)
173, 172
الأصبهذ (حاكم مدينة) 103
ألتار (زعيم مقاطعة) 103
ام عامر بنت عامر 187
انس بن مالك 160
أوشيدر بامي (مهدي المجوس) 171, 57
- ب -
البخاري (محدث) 157
بخار خودة (زعيم مقاطعة) 112, 111
بذام (زعيم مقاطعة) 103
براون (مستشرق) 146, 145
بشر بن جرمرز 119
البلافري 73, 81, 85, 88
174, 177, 95
بهلول الخارجي 160
- ت -
ترخون (زعيم مقاطعة) 103
ترك خان (زعيم مقاطعة) 103
الترمذي 160
تغشاده (أمير بخاري) 105, 104, 111, 110
التميمي (المنتظر) 162, 54
تحميم الداري 150
توسك (زعيم مقاطعة) 103
- ث -
ثابت بن قطنه 117, 116
- ج -
الجراح بن عبد الله الحكمي 108, 107
جعفر بن محمد (الصادق) 43, 9
55, 50, 49
الجنيد (ابن عبد الرحمن) 117
جهم بن صفوان 146, 121
جولد تزيهر (مستشرق) 95, 93, 28, 21
جويرة بن اساء 187
جيغوية (زعيم مقاطعة) 103
- ح -
حاتم بن النعمان 179
الحارث بن سريخ 35, 34, 15
118, 117, 59, 53, 38, 37, 36
141, 140, 127, 122, 121, 120, 119
167, 166, 153, 149
الحارث بن عبد الله الجعدي (شاعر) 163
الحجاج بن يوسف الثقفي 53, 29, 28
114, 112, 100, 99, 98, 85, 83
172, 154, 153, 152, 127, 115
الحسن بن أبي العمرطة 109, 108

الحسن بن الحسين (ابن علي) 175
الحسن بن علي 43, 134, 152
الحسين بن علي 9, 16, 43, 129, 134
حمزة الأصفهاني 180

- خ -

خالد بن سمير 158, 186
خالد بن عبد الله القسري 90
خالد بن الوليد 75
خالد بن يزيد 161
الخاقان 36
خدش 144, 147, 148, 149, 171

الربيع بن عمران التميمي 108
رتبيل (زعيم مقاطعة) 84, 102
الرشيد (هارون) 172
الرضا (من آل محمد) 49
الروبخان (زعيم مقاطعة) 102

- ز -

الزبير بن العوام 126, 157
زرادشت 57, 77, 171
الزخشري 186
زياد بن غنم الفهري 86
زيد بن علي 49, 131, 152, 155

- ص -

ساوول (ملك عبري) 130
السبل (زعيم مقاطعة) 103
سعد بن أبي وقاص 179
سعيد بن عثمان 81
سعيد بن المسيب 187
السفياني 54, 161, 162
سليمان بن عبد الملك 48, 99, 127
سليمان بن كثير الخزاعي 141, 147
148, 149, 150, 167, 188
سهرك (زعيم مقاطعة) 103
السيد الجميري (شاعر) 134
- ش -
الشذ (زعيم مقاطعة) 103

- د -

دحية (عالة بالغيب) 153
دراستير (مستشرق) 151
دهاقين 25, 27, 30, 31, 33
102, 92, 89, 104, 105, 170
دهقان 106
دوزي (مستشرق) 28, 152
دي غويه (مستشرق) 73, 87, 151
دي سلمي (مستشرق) 152
الدينوري 166, 169

- ر -

راس الخالوت (يهودي) 153
رافع بن الليث (ثائر) 172

عبد الله بن يحيى (طالب الحق) 128

عبيد الله بن زياد 89

عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي 187

عبد الرحمن بن الأشعث 98, 29, 28

161, 152, 112, 100

عبد الرحمن بن ملجم 133

عبد الملك بن مروان 89, 86, 74

139, 126, 125, 98

عثمان بن عفان 83, 26, 24, 23

184, 133, 125, 123, 120, 115, 85

عدي بن ارطاة 86

علي بن أبي طالب 39, 25, 24, 23

120, 95, 49, 44, 43, 42, 40

134, 133, 132, 131, 129, 126, 124

157, 155, 143, 142, 141, 137, 135

184, 179, 177, 173

علي بن عيسى العباسي 172

عمارة (محمد) 45

عمر بن الخطاب 25, 24, 23, 21

87, 86, 84, 83, 79, 77, 34

125, 123, 113, 112, 96, 95, 88

187, 184, 174, 163, 159, 139

عمر بن عبد العزيز 32, 31, 24, 15

87, 86, 82, 81, 59, 34, 33

185, 154, 137, 127, 115, 111, 107

187, 186

شريك (نائر) 174

الشهرستاني 179, 134, 44

شومان (زعيم مقاطعة) 103

- ص -

صاف بن صائد (متبيء يهودي) 159

- ض -

الضحاك بن عبد الرحمن 86

- ط -

الطبري 104, 99, 87, 73, 52

111, 109, 108, 107, 106, 105

188, 182, 180, 177, 165, 143, 119

طلحة بن عبيد الله 126

- ع -

عاصم بن عبد الله 118, 117, 37, 36

العباس بن عبد المطلب 143, 139, 138

العباس بن الوليد 164

عبد الجبار بن أبي معين 187

عبد الله بن الأفتح 49

عبد الله بن الزبير 127

عبد الله بن سبأ 137, 132, 45, 44, 16

عبد الله بن سعد بن أبي سرح 84

عبد الله بن علي العباسي 156

عبد الله بن عمر 187, 186, 179

عبد الله بن ناووس 49

100, 98, 95, 93, 84
 كتب الأحبار 156, 153
 الكلبي (مهدي بني كلب) 162
 الكميت (شاعر) 166
 كيسان (ابو عمرو) 46
 - ل -
 لويس . ب (مستشرق) 55
 - م -
 المأمون 173, 72
 المبرد 165
 المتوكل الليثي (شاعر) 159
 محمد (النبي) 105, 77, 75, 44,
 185, 130,
 محمد بن أبي جعفر 49
 محمد بن اسحاق 160
 محمد بن الحنفية 135, 134, 48, 46
 137.
 محمد بن سليمان (الخزاعي) 188
 محمد بن عبد الله بن الحسن 173
 محمد بن علي العباسي 145, 139
 187, 149,
 محمد بن مسلمة الأنصاري 179
 المختار بن أبي عبيد الثقفي 43, 29
 133, 130, 129, 98, 97, 53, 46
 186, 159, 158, 152

عمرو بن العاص 85, 84
 عيسى بن مريم 164, 161, 160, 143

- غ -

غوزك (زعيم مقاطعة) 109, 108, 103

- ف -

فاطمة بنت أبي مسلم 171

فاطمة بنت علي 49

فان فلوتن 13, 11, 10, 9, 8

21, 20, 19, 17, 15, 14, 14

37, 32, 28, 27, 25, 24, 22

51, 57, 46, 45, 44, 42, 40

60, 59, 58, 57, 54

- ق -

قاسم الشيباني 119

قتيبة بن مسلم 82, 81

القحطاني (المنتظر) 161, 54

قحطبة بن شبيب الطائي 149, 141

قطري بن الفجاءة 127

قيس بن أبي حازم 180, 179

- ك -

كابول شاه (زعيم مقاطعة) 103

كاترمير (مستشرق) 152

كثير (شاعر) 134

كرمر (مستشرق) 78, 28, 21

178, 177, 169, 118, 105

نولدكه (مستشرق) 102

نيزك (زعيم مقاطعة) 103

- ه -

هانيء بن هانيء 109

هرجنج (مستشرق) 151

هشام بن الحكم 44

هشام بن عبد الملك 74, 108, 116, 118

181, 180, 172, 159, 155, 152, 130

هماكر (مستشرق) 166

- و -

واصل بن عمرو 105

وردان (حاكم مصر) 85

الوليد بن عبد الملك 115, 127

الوليد الثاني (ابن يزيد) 90, 98, 100

125, 118

وهب بن منبه 156

ويل (مستشرق) 152

- ي -

يحيى بن أبي الشمط 49

يزيد بن عبد الملك 154, 185

يزيد بن المهلب 53, 81, 82

116, 99, 83

يزيد بن معاوية 34, 42, 125

184, 126

المدائني 143, 144

مروان الاول (ابن الحكم) 97, 126

184,

مروان الثاني (ابن محمد) 129, 156

170, 169,

المرواني (مهدي المروانيين) 54

المرازبة (حكام الولايات) 103

مزدك 146

المسعودي 73, 83, 161

المطرف بن المغيرة بن شعبه 28, 31, 113

114

معاوية 22, 40, 42, 85, 88

184, 126, 120, 99

المقرئزي 73, 156, 158, 188

منصور بن عمر بن أبي الخرقاء 181

المهدي (المنتظر) 10, 16, 46, 49

162, 157, 117, 54, 53, 51, 50

185, 171, 167, 165, 164

المهلب بن أبي صفرة 82

مهوية (مرزبان) 177

موسى بن خازم 82

موسى بن طلحة 180, 185, 186

ميسرة (الطغري) 181

- ن -

النوشخي (مؤرخ) 104, 105, 110, 111

نصر بن سيار 36, 37, 57, 104

يزيد الثاني (ابن الوليد) 125

اليحقوبي 73, 95, 99, 106

169, 188

يوسف البرم (نائر) 172

يوسف بن عمر (النقفى) 90, 130, 172

2 - الشعوب والقبائل والفرق

- ت -

تاجيك (قبائل) 101, 102

الترك 35, 36, 37, 54

104, 116

تميم 42

التوابون 43

- ث -

ثقيف (قبيلة) 152

الثمانية (فرقة) 49

- ج -

الجارودية (فرقة) 50

الجعفرية 49

- ح -

الحرورية (فرقة) 139

الحيثيون 101

- خ -

الخرمية (فرقة) 145, 146, 149, 171

الاثنا عشرية 10, 49

الاسما عيلية 10, 44

الأحباش 157

اسرائيل (بنو) 131

الامامية 49

امية (بنو) 13, 39, 69, 123

124, 125, 134, 169, 170, 173

الأمويون 24, 33, 54, 80, 82

165, 148, 96

الأنصار 127

- ب -

البابية (مذهب) 142, 145, 140

الباقرية (فرقة) 49

البترية (فرقة) 50

البربر 33, 35, 128

البكتران (سلالة) 101

بنيامين (قبيلة يهودية) 159

البوذية 135

البيزنطيون 21

عبد شمس (بنو) 187

العشائية 139, 126

العلويون 173, 96, 60

- ف -

الفرس 54, 36, 33, 27, 25, 21

القطحية (فرقة) 49

- ق -

القطط 154, 85

قحطان (بنو) 163, 160, 140

القرامطة 151

قريش 167, 124, 42

- ك -

كلب (بنو) 162

الكيسانية (فرقة) 47, 46, 45

134, 133, 132, 48

147, 143, 135

- م -

المانوية 142, 135

المجوسية 135

المرجئة 141, 128, 121, 120, 37

مروان (بنو) 184, 11, 9

المروانية 126

مضر 163, 161

المضرية 140

الخوارج 43, 42, 41, 39, 23

182, 172, 163, 130, 128, 127, 124

- ر -

الراوندية (فرقة) 144, 143, 135

الرومان 21

- ز -

الزيدية (فرقة) 50, 49

- س -

السبئية (فرقة) 132, 45, 44

147, 135, 134, 133

السليمانية (فرقة) 50

- ش -

الشمطية (فرقة) 49

الشيعة 43, 42, 28, 15, 8

134, 130, 127, 60, 55, 54, 53, 47

163, 162, 150, 138, 135

- ص -

الصابئة 142

- ع -

العباس (بنو) 173, 170, 150, 49

العباسية 144, 74, 72

العباسيون 148, 141, 56, 54

173, 165

المعترلة 41

المهدية 56, 52, 47

هتلوسكيت (قبائل) 101

هون (قبيلة يهودية) 52

الهون البيض 101

الموالي 29, 28, 27, 26, 24, 15

60, 59, 58, 57, 47, 32, 30

112, 109, 100, 97, 96, 95, 94

168, 136, 115

- و -

الواقفية (فرقة) 49

- ن -

الناوسية (فرقة) 49

التصارى 156, 75

- ي -

اليمانية 140

اليهود 156, 154, 76, 75, 53

يهودا (قبيلة يهودية) 52

- ه -

هاشم (بنو) 71

3 - الأماكن

- أ -

الاسكوريال 154

آسيا 135

اصطخر 128

افريقية 128

اوروبه 14

- ب -

باريس 73

بخارى 104, 105

109, 110, 172

بذغيس (مقاطعة) 103

البرنيه 115

البصرة 113, 139

152, 157, 158, 186

بغداد 142, 16

بلاد العرب (شبه الجزيرة) 120

بلغ (مدينة) 103

بوشنج (مدينة) 170

بيزنطة 76

- ت -

ترمز 81, 119

- ج -

جرجان 81

الجزيرة 127, 129, 139

جوزجان (مقاطعة) 102

جيحون (نهر) 15, 33, 34, 38, 92

- ح -

الحجاز 24, 125, 152

الحديبية 141

الحرّة (الحجاز) 41, 159

حروراء (العراق) 126, 129

الحميمة (فلسطين) 139

الحيرة (العراق) 144

- خ -

الختل (ما وراء النهر) 102

ختلان 11, 170

- خراسان 31, 30, 29, 25, 22, 19
53, 49, 38, 37, 36, 34, 32
82, 80, 77, 71, 59, 58, 57
112, 111, 108, 107, 106, 104, 101
141, 140, 139, 138, 118, 117, 116, 113
177, 168, 167, 165, 160, 150, 148, 144
خرم (ميديا) 145
الخرز (ما وراء النهر) 102
خوارزم (ما وراء النهر) 188
خوزستان (ما وراء النهر) 88
- د -
دجلة 154
دمشق 100, 98, 81, 39, 35
167, 164, 139
- ر -
رضوى (الحجاز) 134
روب (ما وراء النهر) 102
روما 80
الرّي، (فارس) 171
- س -
سجستان 102, 84
سرخس (ما وراء النهر) 103
السغد (ما وراء النهر) 108, 107, 103
119, 117, 116, 109
سفيلدنچ (خراسان) 167, 141
السقيفة (الحجاز) 39
سمرقند (ما وراء النهر) 81, 35
108, 103, 82
سمنجان (ما وراء النهر) 102
السواد (العراق) 96, 84, 78
سورية 77, 76
175, 159, 118, 96, 80
سيحون (نهر) 118, 108
- ش -
الشام 40, 21
163, 139, 123, 89
شبه الجزيرة (العربية) 175, 139, 75
شرنخشير (ما وراء النهر) 141
شومان (ما وراء النهر) 103
- ص -
صفين 179, 41, 23
- ط -
الطالقان 170, 103
طبرستان 127, 81
طخارستان 117, 103, 81, 36
طهران 146
طوس 103
- ع -
العراق 73, 53, 45, 29, 28, 21

186, 172, 159, 158, 150, 148, 144

كي (ما وراء النهر) 103

- ل -

لَدَّ 159

- م -

المدائن 137

المدينة 40, 41, 76, 88, 123

183, 182, 159, 139, 125

المذار (العراق) 152

مرو 36, 56, 103, 118, 141

172, 169, 167, 148

179, 178, 177

مروروذ (خراسان) 103, 168, 170

مصر 21, 77, 84, 85, 96

المغرب 30, 33, 35, 178, 179

مكة 40, 123

140, 139, 127, 125

ميديا 77, 88

150, 148, 145

- ن -

النخذ (ما وراء النهر) 117

نسا (ما وراء النهر) 168

نسف (ما وراء النهر) 170

نهابوند (فارس) 159

99, 98, 89, 86, 82, 78, 77

127, 113, 112, 106, 105, 104, 100

150, 147, 141, 139, 138, 132, 129

174, 163, 152

عين الوردية (العراق) 126

- غ -

الغدير (غدير خم) 43

غوتا (المانيا) 73, 154

- ف -

فارس 21, 28, 86, 88, 148

فرغانة (ما وراء النهر) 103

فرياب (ما وراء النهر) 103

فلسطين 139

فيينا (النمسا) 154

- ق -

القادسية (العراق) 83

قوهستان (ما وراء النهر) 103

- ك -

كابول (سبجستان) 103

كربلاء 16, 43, 45, 155

كش (ما وراء النهر) 103, 170

الكوفة 29, 30, 43, 46, 48

130, 130, 129, 97, 48, 46

142, 141, 139, 138, 133, 132

- ه -

هراة (ما وراء النهر) 102
177, 170, 168, 103

- و -

واسط (العراق) 154, 152

- ي -

اليرموك 83
اليمن 85, 44

كتب صدرت للمؤلف

- 1 - تاريخ العرب السياسي ،
من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد - دار الفكر 1974 بالاشتراك مع د .
سهيل زكار .
- 2 - التوابون .
الطبعة الاولى ، دار التراث الاسلامي 1974 .
الطبعة الثانية ، دار التعارف 1978 .
- 3 - الدولة العربية في اسبانيا ، من الفتح حتى سقوط الخلافة .
الطبعة الاولى . دار النهضة العربية 1978 .
الطبعة الثانية . دار النهضة العربية 1980 .
- 4 - ملامح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري .
دار النهضة العربية 1979 .
- 5 - الدولة الاموية والمعارضة .
مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فان فلوطن .
الطبعة الاولى ، دار الحداثة 1980 .
الطبعة الثانية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1984 .

6 - صفحات من تاريخ جبل عامل ، مع آخرين .
المجلس الثقافي للبنان الجنوبي 1980 .

7 - الحجاز والدولة الاسلامية ،

دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول في
الهجري . المؤسسة الجامعية للدراسات 1983 .

8 - تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول

من دولة عمر الى دولة عبد الملك دار إقرأ 1984

9 - نشوء الحركة السياسية في الكوفة

41 هـ - 71 هـ

معهد الانماء العربي 1984

الفهرست

الموضوع	الصفحة
الإهداء	5
مقدمة الطبعة الثانية	7
مقدمة الطبعة الأولى	13
1 - الأمويون وخراسان	19
2 - الشيعة السياسية	39
3 - خلفية النظرية المهدية	51
4 - المهديّة وسقوط الدولة الأموية	57
المصادر والمراجع	61
أبحاث في السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية	
في ظل خلافة بني أموية - ج. فان فلوتن	67
مقدمة المترجم	69
مقدمة المؤلف	71
القسم الأول : السيطرة العربية	75
القسم الثاني : التشيع	123
القسم الثالث : المعتقدات المهدوية	151
ملحق	177
بيليوغرافيا	191

هذا الكتاب

ان هذا الكتاب يتعرض لمسائل دقيقة، تمتد على مساحة زمنية رهصت بالمتغيرات التي تبلورت على الصعيد «الايديولوجي» في مطالع القرن الثاني الهجري . ولعل المسألة الشيعية كانت في طليعة الحركات التي صاغت او برجت العمل السياسي في ذلك الوقت ، مجسدة فرادتها في تلك الدينامية التي كانت احدى سماتها اللافتة . اما العناصر المغذية لها في هذا السبيل ، فكان من ابرزها « العلم » الذي اعتبر من خصوصيات زعامتها المتناقلة ، فضلاً عن « الموروث الكر بلائي » ، الذي أمدها بعتصر آخر اساسي ، مستلهمه منه ، وحركات اخرى غيرها ، التضحية الراقية والتجربة التضالية الفذة .

وقد لا يبدو « فان فلوتن » على استيعاب كاف للحركة الشيعية من هذا المنظور ، خاصة وأن هذه على الرغم من الاضطهاد الذي استهدفها في العهدين الأموي والعباسي ، فإن زعامتها كانت أقل استهدافاً في الأول - إذا ما استثنينا المجابهة الحتمية بين « الحسين » و « يزيد » - في الوقت الذي كان فيه السيف مسلطاً على رأسها في العهد الثاني ، ويجول دون قيامها بحد معين من التحرك السياسي . وسؤدي ذلك لاحقاً الى منعطف آخر ، ربما كان أكثر جذرية من سوابقه . أو ما يمكن تسميته بـ « المعنة » التي زامنت الامام السادس جعفر بن محمد (الصادق) ، منظر الفكر الشيعي وممثل شرعية الحركة ، التي خرج من صفوفها من جنح الى التطرف والسرية المطلقة . وكانت « المهدي » نتاج هذه الظروف ، في ضوء تطورات المرحلة وتحت تأثير معاناة الشيعية السياسية التي بلغت الذروة عشية اختفاء الامام او « غيبته » .

معين التاريخ
لاهل التاريخ